دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	تاريخ الاوضاع الحضارية لمملكة غرناطة من خلال كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ، 713هـ / 776 هـ
المصدر:	حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية - الكويت
المؤلف الرئيسي:	المغراوي، رابح عبدالله
المجلد/العدد:	الحولية20, الرسالة140
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2000
الصفحات:	8 - 206
رقم MD:	476729
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EduSearch, AraBase
مواضيع:	الادباء العرب، العصر الأموي، الطوائف الدينية، مملكة غرناطة، أحمد السلماني ، ابوعبدالله محمد بن سعيد بن عبدالله بن علي ، الأدب العربي، النقد الأدبي، التحليل الأدبي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/476729

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الرسالة : ١٤٠

تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة من خلال كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (٧١٣هـ ـ ٧٧٦هـ)

أ. د. رابح عبدالله المغراوي

قسم التاريخ ـ جامعة محمد الأول

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية - الحولية العشرون - ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

المؤلف :

أ.د. رابح عبدالله المغراوي

- أستاذ تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، المملكة العربية المغربية.

- عضو مؤسس لمجلة «المنعطف المغربية».

الإنتاج العلمي :

- خصائص منهجية التأريخ عند لسان الدين بن الخطيب، مجلة «المنعطف»، عدد: ١/ ١٩٩١ .

- كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة: منهجية التأليف والتصنيف، مجلة آفاق الثقافة والتراث. الإمارات العربية المتحدة، عدد: 20-21، سنة 1998.

- التواصل الدبلوماسي بين الأندلس النصرية والمغرب المريني من خلال رسائل ابن الخطيب الأندلسي (750 هـ- 770 هـ). مجلة التاريخ العربي، عدد 6، سنة 1998.

المحتوى

الملخص ١٥

الفصل الأول: إطار تاريخي، ونبذة عن حياة ابن الخطيب ١٧

المبحث الأول: الإطار التاريخي ١٧

المبحث الثاني: نبذة عن حياة ابن الخطيب ٢٣

الفصل الثاني: «الإحاطة» ومنهج التأريخ للأحوال السياسية والحضارية ٣١

المبحث الأول: الإحاطة والتأريخ للأحوال السياسية لغرناطة ٣٢

المبحث الثاني: الإحاطة والتأريخ للأحوال الحضارية المختلفة ٣٣

المقصد الأول: الإحاطة والتأريخ للحياة الاجتماعية ٣٤

المطلب الأول: العناصر السكانية ٣٥

المطلب الثاني: مقومات الشخصية الأندلسية ٣٩

أ ـ اللغة ٣٩

ب ـ الصفة الخلقية ٤٠

جـ ـ صفة اللباس ٤٣

د ـ أسلوب المعاش ٤٦

المطلب الثالث: العادات والتقاليد ٥١

المطلب الرابع: أنواع الاحتفالات ٥٣

النوع الأول: الاحتفال بالموكب السلطاني ٥٣

النوع الثاني: الاحتفال بالمولد النبوي ٥٣

النوع الثالث: احتفالات الأعراس ٥٤

النوع الرابع: الاحتفال للإعذار ٥٥
المطلب الخامس: مظاهر اللهو والمرح ٥٧
المظهر الأول: الموسيقى والغناء ٥٧
المظهر الثاني: الصيد ٥٨
المظهر الثالث: الرياضة والتجند ٥٨
المظهر الرابع: النزهة ٥٨
المطلب السادس: الحياة الدينية ٥٩
المقصد الثاني: الإحاطة والتأريخ للحياة الاقتصادية ٦٥
المطلب الأول: النشاط الاقتصادي ومقوماته ٦٦
المطلب الثاني: جودة الأرض وانفساحها ٦٦
المطلب الثالث: وفرة المياه وعذوبتها ٦٩
المطلب الرابع: اعتدال المناخ وصحة الهواء ٦٩
المطلب الخامس: النشاط الفلاحي وآثاره ٧٠
المطلب السادس: كثرة المنتوج وتنوع الغلة ٧٠
المطلب السابع: الصناعة: مقومات ومظاهر ٧٢
المطلب الثامن: بعض مظاهر النشاط التجاري ٧٤
المطلب التاسع: صفة العملة وقيمتها ٧٧
المقصد الثالث: الإحاطة والتأريخ للحياة الثقافية ٧٩
المطلب الأول: في الطب والجراحة والصيدلة والنبات ٨١
المطلب الثاني: في العلوم القديمة ٨٦
المقصد الرابع: الإحاطة والتأريخ العمراني والمعماري ٩٣

المطلب الأول: في عمارة المساجد وما يتعلق بها ٩٦
المطلب الثاني: في عمارة المارستان والمدرسة والزاوية ٩٦
المطلب الثالث: في المدارس ومعاهد العلم والمعرفة ... ٩٨
المطلب الرابع: في بناء السور والأبراج ٩٨
المطلب الخامس: في إتمام القنطرة وبناء مسجد دار القضاء وترميم المساجد ٩٩
المطلب السادس: في العناية بقبور الملوك وأضرحتهم ١٠٠
المقصد الخامس: الإحاطة والتأريخ للنظم العسكرية ١٠٠
المطلب الأول: مشيخة الغزاة والحيثيات التاريخية ١٠٢
المطلب الثاني: مشيخة الغزاة وتوازن القوى السياسية ١٠٤
المطلب الثالث: مشيخة الغزاة ومؤهلات الترشيح ١٠٤
المطلب الرابع: مشيخة الغزاة وجهة التعيين ١٠٥
المطلب الخامس: مشيخة الغزاة: الامتيازات والصلاحيات.. ١٠٦
المطلب السادس: مشيخة الغزاة والاستغناء عنها ١٠٩
المطلب السابع: المؤسسة العسكرية، الزي والأسلحة ١١١

الفصل الثالث: الإحاطة والتأريخ للنظم الإدارية ١١٥
المبحث الأول: الإحاطة والتأريخ للنظم السياسية ١١٦
المقصد الأول: مؤسسة الملك ١١٦
المطلب الأول: الملك والألقاب ١١٧
المطلب الثاني: صلاحيات الملك ١١٩

١ ـ تولية الولاة ١١٩
٢ ـ تعيين أرباب الوظائف السامية ١٢٠
٣ ـ مجالس الملك : ١٢١
أ ـ مجلس الرقاع
ب ـ مجلس التهاني
جـ ـ مجلس الرسل الواردة
د ـ مجلس المبايعات
هـ ـ مجلس المواجهة (المظالم)
٤ ـ إصدار الظهائر ١٢٣
٥ ـ زيارات التفقد ١٢٣
٦ ـ قيادة الجيش ١٢٣
٧ ـ ختم الرسائل والظهائر ١٢٤
٨ ـ صلاحيات الملك واستبداد الوزراء والحجاب ١٢٤
المطلب الثالث : ولاية العهد وصياغة البيعة ١٢٥
١ ـ ولاية العهد ١٢٥
٢ ـ صياغة البيعة ١٢٧
المقصد الثاني : الوزارة والحجابة ١٢٩
المطلب الأول : الوزارة ١٢٩
المطلب الثاني : الحجابة ١٣٢
المطلب الثالث : المؤهلات المرشحة للوزارة ١٣٣
١ ـ صفة القيادة العسكرية ١٣٤

٢ ـ الشرف والأصالة والوجاهة ١٣٥
٣ ـ المال والثراء ١٣٦
٤ ـ العلم والأدب ١٣٦
المطلب الرابع: نهاية الوزارة: صورها وأسبابها ١٣٧
١ ـ استنفاد المدة ١٣٧
٢ ـ العزل لأسباب أخلاقية ١٣٨
٣ ـ العزل والاعتقال بسبب الاستبداد ١٣٩
٤ ـ العزل والصرف بسبب الخشية ١٣٩
٥ ـ العزل بتهمة الخيانة العظمى ١٣٩
٦ ـ العزل بتهمة الولاء لسلطان اغتصب حقه ١٤٠
٧ ـ العزل لدواعي التشبه بالنصارى ١٤٠
٨ ـ الاستقالة ١٤١
٩ ـ الاستغناء ١٤١
المطلب الخامس: الاشتراك في الوزارة ١٤٢
المطلب السادس: الوزارة المزدوجة ١٤٤
المطلب السابع: صلاحيات الوزير ١٤٥
المقصد الثالث: الكتابة ١٥٤
المطلب الأول: الكتابة: المكانة والمحل ١٥٥
المطلب الثاني: مؤهلات الكاتب ١٥٦
المقصد الرابع: وظائف سياسية تابعة ١٥٩
المطلب الأول: القهرمة (وكالة الملك) ١٦٠

المطلب الثاني: ولاية الأشغال ١٦٣
المطلب الثالث: ولاية المستخلص (ولاية الإشراف) ١٦٥
المطلب الرابع: تعليم ولد السلطان ١٧٠
المطلب الخامس: ولاية تنفيذ الأرزاق ١٧٢
المطلب السادس: الأشغال المخزنية والشهادة المخزنية ١٧٢
المطلب السابع: طبيب الدار السلطانية ١٧٤
المبحث الثاني: الوظائف الشرعية والخطط الدينية ١٧٧
المقصد الأول: القضاء ١٧٧
المقصد الثاني: قضاء الجماعة ١٨٠
المطلب الأول: قاضي الجماعة: التعيين والكفاءات ١٨١
المطلب الثاني: القاضي: المؤهلات والصلاحيات ١٨٤
١ ـ المؤهلات ١٨٤
٢ ـ الصلاحيات ١٨٥
المطلب الثالث: الوزعة أو أعوان القاضي ١٨٧
المقصد الثالث: الإمامة والخطابة ١٨٨
المقصد الرابع: الحسبة والشرطة ١٨٩
المقصد الخامس: العدالة والتوثيق ١٩٣
المقصد السادس: خطة المواريث ١٩٦
خلاصة ١٩٧
المصادر والمراجع ١٩٩

الملخص

تتناول هذه الدراسة بالبحث الأوضاع السياسية والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والعمرانية، والعسكرية، والإدارية لآخر دويلة إسلامية أندلسية، كتب لها أن تقضي مرحلة تاريخية عصيبة وسط ظروف سياسية حرجة للغاية.

إنها مملكة غرناطة على عهد بني الأحمر، تلك الظاهرة الأنموذج في التفرد والغرابة، من حيث النسيج التاريخي والحضاري.

لقد كانت متفردة في قيامها، متفردة في صمودها واستمرارها، متفردة في نتاج حضارتها، متفردة في مأساة زوالها واندثارها.

إنها البوتقة التي انصهر فيها رصيد التجربة التاريخية والثقافية الأندلسية، والمحطة النهائية للإرث الحضاري للأمة في هذه المنطقة النائية.

كما تناولت الدراسة مظنة هذا كله، متمثلا في الإدارة والمرجعية التاريخية، التي لولاها ما عرف عن هذه الدويلة ما عرف.

إنه لسان الدين بن الخطيب، الوسيلة التاريخية المستحوذة، وإنها كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، المورد التاريخي المهيمن.

هذا الذي لان له الأدب كما لان لداود الحديد، فقدم لوحة تاريخية بأداة فنية رائعة في انسجامية نادرة بذ فيها من تقدمه وأعجز من جاء بعده، فلا التاريخ بُخس حقُّه، ولا الأدب تجووز حده.

تمثل هذا في الأسلوب البليغ الممتع، الذي يعتمد الدقة في التصوير، والإيجاز الرفيع، القريب من جوامع الكلم، قلة عبارة، وثراء إشارة، أماطت النقاب عن تفاصيل أوضاع هذه المملكة المختلفة، بما لا شيء فوقه.

كل هذا وفق منهج في الترتيب غاية في الإحكام وصنعة التبويب، دل على اتساع باع صاحبه في دراية التاريخ وممارسة التأليف.

يقف على هذا دون شك كل من أنعم النظر فيما نعرضه من خلال فصول هذه الدراسة المتواضعة.

الفصل الأول
إطار تاريخي ونبذة عن حياة ابن الخطيب

المبحث الأول: الإطار التاريخي:

مرت الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية (٤٢٢هـ/ ١٠٣١م) بظروف سياسية مضطربة، تميزت بالتمزق والتشتت الداخلي الناجم عن صراع الزعامات المتعددة التي أفرزها الوضع المتردي للبلاد، حيث استقل كل أمير بمدينة من مدن الأندلس، جاعلاً منها قاعدة لملكه، يدعو فيها بدعوته.

وقد سمّى المؤرخون هذه المرحلة التاريخية بعصر دول الطوائف، أو ملوك الطوائف (٤٠٧هـ-٤٤٩هـ/ ١٠١٦م-١٠٥٧م).

ثم اكتسحها بعد ذلك المد المرابطي الزاحف[1] حيث استطاع أن يضمها إلى إمبراطوريته، بعد أن أسقط زعاماتها نهائياً، وبعد سقوط الدولة المرابطية على يد الموحدين (٥٤٠هـ/ ١١٤٥م) أصبحت خاضعة لهم أيضاً.

بيد أنه سرعان ما بدأ الوهن والضعف يدب في أوصال هذه الدولة الكبيرة، خاصة بعد أن برزت في المنطقة قيادات أخرى تزاحمها، وتريد انتزاع مشعل الزعامة من يدها، كما جرت العادة، مكيلة لها الضربات المتتالية.

ويجمع المؤرخون على أن السبب المباشر الذي كان وراء هذا الضعف والسقوط السريع، هو تلك الهزيمة التي شهدها الموحدون في موقعة العقاب أمام القوى النصرانية سنة (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م).

وقد روع على إثر ذلك سرب الإسلام في تلك المنطقة، وازدادت حدة الصراع، وعمت الفوضى والفتن وتنامى تكالب العدو، وأفرزت الأوضاع المتردية زعماء

(١) - كان تاريخ أول دخول للمرابطين إلى الأندلس سنة ٤٧٩هـ بإيعاز من أمير إشبيلية المعتمد بن عباد، حينما تأزمت بالبلاد الأوضاع من جراء الانقسام وتكالب العدو النصراني. انظر: ابن الخطيب، الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، ج٢، ص٢٤١ - ٢٤٧، وابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ٣٥٠ فما فوق.

أندلسيين يريدون إنقاذ الموقف، والوقوف ترسانة في وجه التحدي النصراني المتكالب فظهر أول ما ظهر زعيم أندلسي عرف بابن هود[٢]، استطاع أن يجمع كلمة المسلمين ويتولى قيادة الجهاد ضد العدو في الأندلس[٣].

(٢) - هو محمد بن يوسف بن هود الجذامي، تملك الأندلس بعد انقراض دولة الموحدين، كان شجاعاً، كريماً، حيياً، وفياً، متهوراً، خرج من مرسية سنة ٦٢٥هـ، جرت عليه هزائم كثيرة آخرهن التي كانت على يد ابن نصر حوالي سنة ٦٣٤هـ، توفي في ظروف غامضة سنة ٦٣٥هـ. ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص١٢٨ - ١٣٢. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج١، ص٢٧٧ - ٢٨٦. عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ص ٣١ - ٣٧. حجي، التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، ص ٥١٣ - ٥١٦. فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص٢١.

(٣) - الأندلس: الأندلس مصطلح جديد أطلقه المسلمون الفاتحون على شبه جزيرة «إيبيريا» عندما بسطوا نفوذهم عليها، وطاب لهم المقام بها فأصبحوا جزءاً لا يتجزأ من شعوبها.

قال ياقوت الحموي مشيراً إلى هذا: «وهي - أي الأندلس - كلمة عجمية لم تستعملها العرب في القديم، وإنما عرفتها العرب في الإسلام» ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٢٦٢.

ويجمع المؤرخون على أن أصل مصطلح الأندلس لا يعدو أن يكون إما تعريباً وإما نطقاً محرفاً للمصطلح الأعجمي المعروف (vandals) نسبة إلى القبائل الوندالية التي يرجع أصلها إلى شعوب الجرمان، احتلت شبه جزيرة إيبيريا من حوالي القرن الثالث إلى حوالي القرن الخامس فسميت باسمه (vandalusia).

ولقد تطور مدلول الأندلس كمصطلح عربي إسلامي متأثراً بدلالته التاريخية والجغرافية والسياسية سعة وضيقاً استجابة لامتداد الفتوح أو تقلصها وانحسارها.

فأطلق مصطلح الأندلس أول ما أطلق على جميع شبه الجزيرة الإيبيرية، وهي إسبانيا والبرتغال حالياً، وعدّ المسلمون الأندلس جزيرة مجازاً قياساً على جزيرة العرب. ثم أطلق مصطلح الأندلس على المناطق التي استقر بها المسلمون مجتمعاً ودولة في شبه الجزيرة، فكانت الحدود الجغرافية للأندلس أيام الخلافة الأموية تشمل أكثر أسبانيا الحالية وجميع أراضي البرتغال تقريباً، وهي أقصى ما بلغه الفتح الإسلامي في هذه البلاد.

ثم بدأ في التقلص والانحسار كما مرت الإشارة إلى أن أصبحت الأندلس تعني المناطق الجنوبية لإسبانيا وهي المناطق التي كانت بأيدي المسلمين إبان حكم دولة بني نصر «بني الأحمر» التي كانت آخر دويلة أندلسية إسلامية حكمت إسبانيا قرابة القرنين والنصف حيث سقطت سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م، قال ابن خلدون يعرض حدود مملكة غرناطة: «ولم يزل الطاغية يقتطع مملكة الأندلس كورة كورة، وثغراً ثغراً، إلى أن ألجأ المسلمين إلى سيف البحر ما بين رندة [Ronda] من الغرب، وإلبيرة [Elvira] من شرق الأندلس، نحو عشر مراحل من العرب إلى الشرق، وفي مقدار مرحلة أو ما دونها في العرض ما بين البحر والجوف..»

العبر ج٧، ص٣٦٨ - ٣٦٩. وانظر أحمد المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٤٤٨. والعبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص٢٢٧. والحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة، ص٣٧، وحسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص١٩٠.

وهذه المنطقة هي نفسها التي تسمى إلى الآن «أندلوثيا» [Andalucia] وهو مصطلح لا يعدو أن يكون تقسيماً إدارياً فقط لإسبانيا الحديثة لا يعكس الدلالة الجغرافية التاريخية بقدر ما يعكس الدلالة التاريخية لآخر الوجود الإسلامي في تلك المنطقة التي استرجعها الإسبان بعد نضال طويل.

تمكن في البداية أن يبسط نفوذه على رقعة لا يستهان بها من بلاد الأندلس[٤] ولكنه ضعف في آخر الأمر، إذ لم يستطع أن يصمد أمام الضربات المتوالية التي كان النصارى يوجهونها له باستمرار، وكانت أقوى ضربة تلقاها تلك التي كانت سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م) هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم يستطع ابن هود أن يقاوم النفوذ المتزايد لبني الأحمر بقيادة محمد بن يوسف الغالب بالله، واضطر في زحمة هذه الظروف إلى مهادنة العدو تلقاء تنازلات عدة على حساب الإسلام والأندلس، ففاوض ملك قشتالة فرناندو الثالث سنة (٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م) ودفع له مبلغاً ضخماً من المال وتنازل له عن ثلاثين حصناً[٥].

استطاع الزعيم النصري محمد بن يوسف بن الأحمر قبيل هلاك ابن هود أن تكون له سلطة قوية مكنته من تأسيس دولة ظلت قائمة أكثر من قرنين ونصف من الزمان، عرفت في التاريخ بمملكة غرناطة نسبة إلى مدينة غرناطة ذات التاريخ العريق[٦].

استطاعت هذه المملكة طيلة فترة وجودة أن تصمد وتقاوم إلى آخر رمق، بفضل سياسة المهادنة مع العدو والتحالف مع الصديق، واغتنام الفرص المتاحة، كما استطاعت أن تحقق انتصارات كبيرة على فترات متفاوتة، وخاصة في الفترات التي يتزعمها فيها أمراء أقوياء، ويكون العدو منشغلاً بمشاكله الداخلية.

بدأ هذا الزعيم في تحركه باستراتيجية ذكية مكنته من الاستمرار، والوصول إلى الغاية المنشودة، فتظاهر أول أمره بإطاعة ملوك العدوة وملوك إفريقية، فحصل على مال وإعانة، وكان قبلُ قد افتتح أمره بالولاء للخلافة[٧] العباسية ببغداد[٨].

(٤) - عنان، ص٣٨. فرحات، ص ١٢.

(٥) - عنان، ص ٣١ - ٣٥. فرحات، ص ٢٣.

(٦) - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج١، ص٩١ - ١١٤. ابن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، ص٢١ - ٢٣.

(٧) - الخليفة العباسي الذي كان معاصراً لهذا السلطان هو أمير المؤمنين المستنصر بالله أبو جعفر منصور بن الظاهر محمد بن الناصر أحمد، كانت مدة ملكه ما بين سنة ٦٢٣هـ وسنة ٦٤٠هـ توفي عن عمر يناهز إحدى وخمسين سنة، خلفه ابنه المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس في بغداد. انظر ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٤٦٥. وابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٢٢ فما فوق. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٤٥، وغيرها من المصادر كثير.

(٨) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص٩٥. واللمحة البدرية، ص٤٣.

ويعد هذا السلطان المؤسس الحقيقي لهذه المملكة، حيث أرسى القواعد، وسن السنن، وأثَّل الملك، ومن أعظم أعماله بناء حصن الحمراء الذي جلب له الماء وسكنه وباشر الحسابات بنفسه فتوفر ماله وغصت بالصامت خزائنه[٩].

توفي هذا السلطان سنة (٦٧١هـ/ ١٢٧٣م) بعد أن عمر طويلاً في السن والملك، وخلفه ابنه محمد بن محمد بن يوسف بن نصر الذي يعد الموطد والمؤصل للملك في هذه الدولة.

ثم تعاقب على عرش الدولة النصرية بعد الأميرين المذكورين ملوك عدة تأرجحوا بين القوة والضعف، عرفت الدولة خلالها تطورات كبيرة سواء على مستوى الداخل أو الخارج.

ولما كانت هذه الدراسة تتمحور حول لسان الدين بن الخطيب وكتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة» فإنني لن أفيض في تتبع المراحل السياسية التي قطعتها هذه الدولة من البداية إلى النهاية من خلال التأريخ لملوكها وأمرائها، وإنما سأنتقل إلى التركيز على أحوالها على عهد الأميرين اللذين عاصرهما ابن الخطيب وكان له شأن في دولتهما، وهما الأميران أبو الحجاج يوسف الأول وابنه أبو عبدالله محمد الخامس الغني بالله.

خلف الأمير يوسف الأول (٧٣٣هـ- ٧٥٥هـ/ ١٣٣٣م- ١٣٥٤م) أخاه محمد بن إسماعيل الذي مات مقتولاً بيد أحد مماليك أبيه بإيعاز من رؤساء جند المغاربة لنفرة وقعت بينه وبينهم[١٠].

ويعد هذا السلطان من أعظم الملوك النصريين قدراً وجلالة وعزماً وتدبيراً ومعرفة[١١]، وكانت له مكانة خاصة في نفوس الأندلسيين، كما ظل يحظى باحترام كبير لدى العديد من المؤرخين، فاعتبر عهده بداية تسنم غرناطة أوج مجدها السياسي والحضاري[١٢].

(٩) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص٩٥. ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٣.

(١٠) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٣٩٢. ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص٩٦ - ٩٧.

(١١) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص٣١٨ - ٣١٩. ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص٢٠١.

(١٢) - ARIE RACHEL, L'ESPAGNE MUSULMANE AU TEMPS DES NASRIDES (1232 - 1492). P101.

انهزم هذا السلطان أمام القوات النصرانية أكثر من مرة، واستولى العدو في عهده على عدة مناطق من البلاد، كانت أعظم هزيمة شهدتها الأندلس، بل شهدها المغاربة إلى جانبهم تلك التي كانت بظاهر طريف سنة (٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)، حينما استنجد بسلطان المغرب أبي الحسن المريني[١٣] بعد أن اشتد عليه أمر القشتاليين.

ورغم المشاغل الحربية التي واجهها هذا السلطان، فإنه لم يغفل عن تأثيل المجد الحضاري، المتمثل في البناء والعمران، فقد وصف بالكلف بالمباني[١٤]، كما اهتم بالناحية الثقافية لم ينعم هذا السلطان بمديد العمر، فقد تخطفه الموت ساجداً في صلاة العيد، وهو في ذروة شبابه وطموحه حيث اغتاله طعناً رجل موتور سنة (٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م)[١٥].

خلف هذا السلطان ابنه محمد الخامس الغني بالله وكان يافعاً لم تحنكه السياسة.

تولى إمارتين متقطعتين؛ الأولى من سنة (٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م) إلى سنة (٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م)، والثانية من سنة (٧٦٣هـ/ ١٣٦٢م) إلى سنة (٧٩٣هـ/ ١٣٩١م)، وبهذا يكون قد عمر طويلاً في الملك وقارب المدة التي قضاها مؤسس ملكهم الأول.

تميزت السياسة الخارجية في دولته إبان إمارته الأولى بالمهادنة والمصانعة بسبب انشغال قشتالة بالفتن والانقسامات الداخلية التي استمرت طويلاً.

أما من الناحية الداخلية فقد تعرض هذا الملك لفتنة سياسية خطيرة نجا منها بأعجوبة نادرة، بسبب الثورة المباغتة التي أوقعها به أخوه إسماعيل سنة (٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م) بإيعاز من ابن عمه وصهره الرئيس أبي عبدالله، وسبب هذه

(١٣) - هو السلطان أبو الحسن علي المريني (٧٣١هـ - ٧٤٨هـ/ ١٣٣١م - ١٣٤٧م)، من أعظم ملوك الدولة المرينية، يعد عهده العصر الذهبي، وعصر القوة والاتساع في المنطقة لولا انقلاب ابنه أبي عنان عليه، وإرغامه له على التنازل عن الحكم في السنة المذكورة، توفي هذا السلطان سنة ٧٥٢هـ. انظر ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية. ابن خلدون، كتاب العبر، ج١٣. ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص٩٥. د. محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر المريني، ص١٠٩ - ١٢٤. جوليان، تاريخ إفريقية الشمالية، ص٢٨٨.

(١٤) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٣٢١ - ٣٢٨. ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص١٠٩.

(١٥) - ابن الخطيب، الإحاطة ج٤، ص ٣٣٣. ابن الخطيب، اللمحة البدرية ص١١٠.

الثورة كما تذكر الروايات التاريخية أن الغني بالله حينما استقل بالأمر ألزم أخاه إسماعيل قصراً من قصور أبيه ممتعاً ومحاطاً بإخوته وأمه، وكان هذا الأمير قد عهد له السلطان أبو الحجاج أول الأمر تحت داعي المحبة والإيثار رغم صغر السن، ثم عدل عنه إلى أخيه محمد تغليباً للمصلحة العامة، وكانت أم إسماعيل على جانب كبير من الدهاء والطموح، فسعت إلى أن يكون لولدها الملك فوجدت في صهرها المذكور خير معين، فكان العقل المدبر لهذه الثورة[١٦] التي أفقدت الكثير من هيبة مملكة غرناطة السياسية.

عاشت مملكة غرناطة فترة مضطربة بعد هذا الانقلاب حيث تغير كثير من معالمها ورسومها بسبب قلة التجربة وانعدام الكفاءات[١٧].

لم يدم إسماعيل في الحكم إلا شهوراً حتى غلب عليه مدبر أمره، ثم دبر قتله فباشر الملك بعده[١٨].

كان السلطان محمد الغني بالله اللاجئ إلى المغرب يترصد ويترقب الأمور عن بعد ويتابع الأحداث لا يفارقه الأمل، إلى أن اشتد عزمه على الخروج إلى الأندلس لانتزاع الملك من غاصبه وقاتل أخويه، وقد أعانه على ذلك ملك المغرب وكذلك ملك قشتالة.

ولما اتصل الخبر بالأمير المتوثب على أخيه خشي على نفسه ففر إلى ملك قشتالة فهرع الغني بالله لاستنقاذ العرش سنة (٧٦٣هـ/ ١٣٦٢م)[١٩].

ويمكن القول إن مملكة غرناطة على عهد دولته الثانية عرفت أوج قوتها السياسية الداخلية التي لن تعرفها أبداً بعد ذلك إلى أن انهارت نهائياً واضمحل وجودها.

(١٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص٢٦ فما فوق. ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص١٢٠ فما فوق، العبادي، مقدمة تحقيق كتاب «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب» لابن الخطيب، ج٢، ص١٤.

(١٧) - العبادي، مقدمة تحقيق كتاب «نفاضة الجراب في علالة الخطيب، ج٢، ص١٣.

(١٨) - تراجع تفاصيل الانقلاب الثاني والثالث في المصادر التالية: الإحاطة، ج٢، ص٢٢ - ٢٨، اللمحة البدرية ص٢٦ - ٢٩، نفاضة الجراب، ج٢، ص١٠٣ - ١١٩.

(١٩) - تراجع تفاصيل العودة إلى الملك في المظان الآتية: الإحاطة، ج٢، ص ٢٩ - ٣٢، اللمحة البدرية ص٢٦ - ٢٩، نفاضة الجراب، ج٣، ص ١١٥ فما فوق.

وعلى العموم فقد اضطلع هذا السلطان بأعمال جليلة على مستوى الداخل والخارج[٢٠]، وما زال يرفل في الأمن والسؤدد، ويتمتع بالقوة والمجد إلى أن توفي سنة (٧٩٣هـ/ ١٣٩١م).

وتعاقب على مملكة غرناطة بعد موت الملك الغني بالله أمراء أغلبهم ضعاف لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام القوى النصرانية الساعية نحو الاتحاد والاتفاق على إنزال الضربة القاضية بآخر سرب من أسراب الأمة الإسلامية بالأندلس وكان ذلك سنة (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م).

المبحث الثاني: نبذة عن حياة ابن الخطيب [٢١]:

لسان الدين بن الخطيب شخصية أندلسية غنية عن التعريف تمتعت بالألمعية والمشاركة في كثير من الفنون والعلوم، فكان شاعراً بارعاً، وأديباً متمكناً، ومؤرخاً متميزاً، وطبيباً ماهراً، وفيلسوفاً متصوفاً، ترك في جميع هذه المعارف والفنون مصنفات مهمة متعددة الأسفار والأجزاء تنوف على الستين كتاباً منها ما وصل إلينا ومنها ما أبادته الأقدار.

وهو شخصية ملأت الدنيا وشغلت الناس على امتداد العصور، وأسالت حبراً غزيراً، وما زالت مثار اهتمام كثير من المثقفين على تباين الثقافات واللغات.

هو أبو عبدالله محمد بن سعيد بن عبدالله بن علي بن أحمد السلماني، يكنى

(٢٠) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص٥٢.

(٢١) - الكتب التي تناولت حياة ابن الخطيب وتراثه، قديماً وحديثاً، كثيرة ومتنوعة، نذكر شذرات منها تمثيلاً لا حصراً لأن المقام لا يسمح:
العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر. الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، كحالة، معجم المؤلفين، حاجي خليفة، كشف الظنون. البغدادي، إيضاح المكنون. مجموعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلامية. بروكلمان، تاريخ الأدب العربي. البستاني، دائرة المعارف اللبنانية. الزركلي، الأعلام. المقري، نفح الطيب. المقري، أزهار الرياض. ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان. ابن الأحمر، نثير الجمان. ابن القاضي، جذوة الاقتباس. المراكشي، الإعلام. التطواني، ابن الخطيب من خلال كتبه. عنان، لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، هذا بالإضافة إلى الدراسات والبحوث الكثيرة التي لا يحصيها العد.

بأبي عبدالله، ويلقب بلسان الدين بن الخطيب[٢٢]، أصله من سلمان وهو بطن من بطون عرب اليمن القطحانية الذين استوطنوا الشام، ولما جاء الإسلام، وفتحت الأندلس، وهاجر إليها العرب، بعد تحول ملك بني أمية إليها من المشرق، كان من بين من هاجر فلول من سلف ابن الخطيب، نزلوا قرطبة حاضرة الأندلس التي اختصت باحتضان الشاميين الوافدين عليها بين الفينة والأخرى، ولعل هذه الفترة هي التي عرف فيها سلف ابن الخطيب ببني وزير[٢٣].

كانت أسرة ابن الخطيب نبيهة اشتهرت بالأدب والسياسة والفضل، ولقد أشاد ابن الخطيب بعدد من آبائه وأجداده في تعريفه بنفسه في خاتمة الإحاطة.

كان ميلاده بلوشة في الخامس من رجب سنة (٧١٣هـ/ ١٣١٤م)، ونشأ في هذه الأسرة ذات المنصب العالي والشرف الكبير، وكان على صلة وثيقة بالملوك والأمراء متأثراً بتنشئتهم وتنشئة ذوي الأقدار من الأعيان، تعلم القرآن كما جرت العادة حفظاً وتجويداً، ثم تدرج في أخذ العلوم والمعارف المختلفة متقلباً في أحضان الأقطاب من الشيوخ الذين حفل بهم عصره سواء في الأندلس أو في المغرب[٢٤]، فتحصلت له بذلك ثقافة متنوعة ومعارف متعددة، يقول منوهاً بحجم شيوخه موجزاً: «هذا على سبيل الإلمام، ولو تفرغت لذكرهم لخرج هذا التقييد عما وضع له»[٢٥].

كما تجدر الإشارة إلى أن ابن الخطيب لم يأخذ عن شيوخ الأندلس فقط، وإنما أخذ أيضاً عن شيوخ المغرب والمشرق يقول: «ومن أهل العدوة القريبة والمشرق الكثير بالإجازة»:[٢٦].

يصف ابن خلدون ابن الخطيب مشيراً إلى العلوم والمعارف التي تربى عليها إلى

(٢٢) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص٤٣٩.
(٢٣) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٤٣٩.
(٢٤) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص٤٥٧ - ٤٥٩.
(٢٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص٤٥٩.
(٢٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص٤٥٩.

أن برع فيها قائلاً: «ونشأ ابنه محمد (ابن الخطيب) هذا بغرناطة وتأدب على مشيختها، واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل، وأخذ عنه العلوم الفلسفية، وبرز في الطب، وانتحل الأدب، وأخذ عن أشياخه وامتلأ من حوض اللسان نظمه ونثره، مع انتقاء الجيد منه، ونبغ في الشعر والترسل بحيث لا يجارى فيهما»[٢٧].

ولا أدل على هذا من المصنفات والأوضاع المختلفة التي دبجتها يراع ابن الخطيب السيالة في الفنون المتنوعة، والعلوم المتباينة، فإن ذكر التاريخ فالإحاطة في أخبار غرناطة خير شاهد على ذلك، وإذا ذكر الأدب فجميع مصنفاته تشهد، وإذا ذكر الشعر فديوانه «الصيب والجهام والماضي والكهام»، وإذا ذكر الفقه وأصوله فكتابه «مثلى الطريقة في ذم الوثيقة» ومنظومته في أصول الفقه، وإذا ذكر التصوف والفلسفة فكتاب «روضة التعريف بالحب الشريف»، وإذا ذكر الطب فكتاباه «عمل من طب لمن حب» و «الوصول لحفظ الصحة في الفصول» وإذا ذكرت السياسة فمقاماته ورسائله المتعددة، وإذا ذكرت الرحلة والمشاهدات فكتابه «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب» وكلها تميزت بالجدة والطرافة والفائدة في التاريخ والأدب إن على مستوى الشكل والمنهج وإن على مستوى المضمون[٢٨].

كل هذه المؤهلات ستتضافر لدفع ابن الخطيب إلى حلبة الصراع وصنع القرار السياسي والمساهمة في أحوال دولته باختيار من سلطان الأندلس آنذاك أبي الحجاج يوسف (٧٣٣هـ- ٧٥٥هـ/ ١٣٣٣م- ١٣٥٤م) الذي قلده رسم الكتابة والوزارة ومهام أخرى سنة (٧٤٩هـ)[٢٩]. وهذه الوظائف إذا اجتمعت في يد شخص وسم بذي الوزارتين في الأندلس وزارة القلم والسيف.

ولما مات السلطان أبو الحجاج يوسف (٧٥٥هـ- ١٣٥٤م) وخلفه ابنه محمد الغني بالله أقره على جميع السلطات والامتيازات التي كانت في يده، وزاد في

(٢٧) - ابن خلدون، العبر، ج١٣، ص ٦٨٩.
(٢٨) - انظر: التطواني، ابن الخطيب من خلال كتبه، ومقدمات مصنفاته المحققة.
(٢٩) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٤٤٣.

تكريمه وإعلاء شأنه حتى أصبح أثيراً لديه مقتصراً عليه لما كان ينطوي عليه من قدرات وكفاءات هائلة[٣٠].

لم يقتصر نشاط ابن الخطيب السياسي على إملاء الرسائل وصياغة القرارات، وإنما تجاوز ذلك إلى الممارسة الفعلية، ولم تكن هذه الممارسة محصورة في السياسة الداخلية للدولة، وإنما تجاوزته إلى التمثيل الدبلوماسي الفعلي، فكانت أول سفارة قام بها تلك التي كانت على عهد السلطان أبي الحجاج يوسف الأول حيث بعثه إلى سلطان المغرب آنذاك أبي عنان (٧٤٩هـ-٧٥٩هـ) عقب وفاة والده أبي الحسن[٣١].

ولم تكن دبلوماسية ابن الخطيب معروفة لدى ملوك الإسلام فقط وإنما كانت معروفة لدى ملوك النصارى أيضاً، يقول إميليو غرسية غومث: «ونجد في مدونة المستشار دون لويث أيالا، وإن لم يجزم النقد التاريخي بصحتها بعد رسائل صنوفاً متبادلة بين الملك القشتالي[٣٢] وبين مسلم من غرناطة كان الملك القشتالي يثق فيه ويتخذه صديقاً، واسع المعرفة، فيلسوفاً عظيماً ومستشاراً لملك غرناطة يدعى BENAHATINE ولا يحتاج الإنسان إلى جهد كبير ليتعرف صاحب هذا الاسم وأنه ابن الخطيب اللوشي»[٣٣].

ولعل ما يؤكد هذا ما أشار إليه ابن الخطيب نفسه بشيء من الاعتداد بالنفس في نص رسالة الوداع التي وجهها لسلطانه محمد الغني بالله وهو نازح عن الأندلس إلى غير رجعة حينما قال: «واعلموا أيضاً على جهة النصيحة أن ابن الخطيب مشهور في كل قطر، وعند كل ملك»[٣٤].

ظل ابن الخطيب يمارس عمله السياسي لا يبالي بالأيام، إلى أن حدث على

(٣٠) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٤٤٣.

(٣١) - ابن خلدون، العبر، ج١٣، ص ٦٩٠.

(٣٢) - الملك القشتالي الذي كان على عهد ابن الخطيب وحكم مدة لا بأس بها، هو دون بطره (Don Pedro I) ابن ألفنش (Alfonco XI) وكان يلقب بـ«القاسي» (El Cruel)، حكم ما بين عام ٧٥١هـ وعام ٧٦٩هـ، ولقد ألم ابن الخطيب في آخر الجزء الثاني من كتاب «الإعلام» ببعض أحواله في ترجمة موجزة مفيدة ج٢، ص٣٣٥، ٣٣٦.

(٣٣) - مكي، مع شعراء الأندلس والمتنبي: سير ودراسات، ص١٦٠.

(٣٤) - ابن خلدون، كتاب التعريف، ص١٥١.

سلطانه الانقلاب المفاجئ الذي اضطره إلى الفرار إلى المغرب بعد أن سهّل له السلطان أبو سالم إبراهيم بن علي (٧٦٠هـ/ ٧٦٢ه) الانتقال إليه.

أما ابن الخطيب فقد جرت عليه أحداث أخرى إثر الانقلاب، فقد أبقاه المتغلب في مهامه في بداية الأمر، ولكن سرعان ما تغير نحوه بفعل السعاية والكيد، مخافة أن يعمل على عودة السلطان المخلوع، فقبض عليه وانتهب قليل ما يعلم له وكثيره وتافهه وخطيره، وأعمل التدبير في الإراحة منه والاحتيال في تسبيب هلاكه.

وما زال ابن الخطيب يترقب ما سيؤول إليه من أمره حتى تداركته العناية، فوصلته الشفاعة من سلطان المغرب أبي سالم مكتتبة بخطه جاعلاً خلاصه شرطاً في العقدة ومسالمة الدولة[٣٥].

اغتنم ابن الخطيب فرصة وجوده بالمغرب فانقطع إلى العلم وزيارة الصالحين ومشاهدة المعالم والآثار، فطاف في بلاد المغرب معملاً الرحلة، فأثمر تجواله في مدن المغرب الأقصى عن عدة مؤلفات أهمها «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب» في ثلاثة أسفار ويدخل ضمن أدب الرحلات.

ولما عاد سلطانه إلى الملك ثانية بقي ابن الخطيب في «سلا»[٣٦] مؤثراً الراحة وتحصيل العلم والتصنيف، إذ لم يكن يرغب في العودة إلى الأندلس بعدما حصل له فيها ما حصل، وبخاصة أنه قد عوّض ما فقده هناك بفضل الجراية والإقطاع المريني[٣٧].

(٣٥) - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج٢، ص٣١١، وانظر: ابن خلدون، العبر، ج١٣، ص ٦٣٧ - ٦٣٨.

(٣٦) - سلا = Sale: مدينة مغربية شهيرة ومتوسطة في الكبر، عرفت توسعاً عمرانياً ملحوظاً في الزمن الحاضر، يفصلها عن مدينة الرباط عاصمة المغرب النهر العريق الشهير «أبو رقراق»، نزل بها ابن الخطيب لاجئاً أيام محنته، وعقد بينها وبين «مالقة» الأندلسية مفاخرة طريفة في مقامة مسجعة، وصفها في معيار الاختبار قائلاً: «العقيلة المفضلة، والبطيحة المخضلة، والقاعدة المؤصلة، والسدرة المفصلة، ذات الوسامة والنضارة، والجامعة بين البداوة والحضارة، معدن القطن والكتان، والمدرسة والمارستان، والزاوية كأنها البستان، والوادي المتعدد الأجفان، والقطر الآمن عند الرجفان، والعصير العظيم الشان، والأسواق الممتازة حتى برقيق الحبشان، اكتنفها المسرح، والخصب الذي لا يبرح، والبحر الذي يأسو ويجرح، وشقها الوادي يتمم محاسنها ويشرح» ص١٥٢. وانظر الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٢٣١.

(٣٧) - ابن خلدون، العبر، ج١٣، ص٦٣٩.

ولم يمر على عودة السلطان المخلوع إلى ملكه طويل وقت حتى أرسل إليه يدعوه إلى العودة صحبة لأهله وولده، فلبى ابن الخطيب دعاءه على مضض[٣٨].

خاض ابن الخطيب بعد عودته إلى الأندلس ثانية غمار السياسة والوزارة أشد ما يكون الغمار، إلى درجة الاستبداد، حيث أصبح هو المسير الحقيقي للبلاد بعد أن تأكدت الرغبة فيه، فبدأ العمل السياسي المكثف شأن من احتدمت في صدره رغبتان متناقضتان[٣٩]، غير أنه واجه صعوبات كثيرة.

لم تكن هذه السلطة المطلقة التي اجتمعت في يد ابن الخطيب وهو يباشر مهامه وزارته الثانية لتتركه هنيئاً إذ سرعان ما جرت عليه الحقد والحسد من قبل الناقمين المتطلعين الذين لم ترقهم المكانة التي أصبح ابن الخطيب يحتلها في قصر الحمراء بغرناطة، ولم ترقهم السياسة التي بات يمليها، ففكروا في السعاية له وتشكيك السلطان في نواياه تجاهه وتحذيره منه وتخويفه من مغبة أمره، وقد اختلف الباحثون في تفسير الأسباب التي جلبت على ابن الخطيب العداوة والجفوة[٤٠].

وأمام هذه الأوضاع بدأت نفس ابن الخطيب تحدثه بأشياء كثيرة، بعد أن استبدت به الهواجس وأحاطت به الحيرة[٤١].

لم يستطع ابن الخطيب المكث في بلده وقد أحيطت به الشرور، وكادت النفوس من حوله تميّز من الغيظ، وأعيته الحيلة بعدما بذل كل جهد في نيل إذن صاحبه بالرحيل إلى المغرب بناء على العهد الذي أبرم بينهما[٤٢]، ففكر في تحقيق ذلك بأي وسيلة ممكنة، فلم يجد غير الفرار ملاذاً، والهروب عياذاً[٤٣].

---

(٣٨) الناصري، الاستقصا، ج٤، ص٤٢.

(٣٩) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص٦٥، أعمال الأعلام، ج٢، ص٣١٥ - ٣١٧.

(٤٠) - انظر مثلاً: عنان، نهاية الأندلس، ص ١٤٥ والسائح، منوعات ابن الخطيب، ص٤٦، ومختار العبادي: النزعات الاقتصادية في حياة ابن الخطيب، وسياسة ابن الخطيب المغربية.

(٤١) - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج٢، ص ٣١٥.

(٤٢) - ابن الخطيب، الإحاطة ج٤، ص ٤٤٥.

(٤٣) - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج٢، ص ٣١٨.

وكان تاريخ خروج ابن الخطيب من الأندلس إلى غير رجعة في غرة جمادى الآخرة من سنة ٧٧٣هـ موهماً سلطانه بتفقد الثغور الجنوبية، فالتحق بجبل طارق الذي كان تحت يد الدولة المرينية ومن هناك إلى سبتة ثم إلى طنجة، وهنالك وصله كتاب من أولاده الذين تركهم وراءه يصفون فيه توجسهم وقلقهم على مصيرهم، مما اضطره إلى الانتقال مباشرة وعلى الفور إلى تلمسان حيث كان يقيم حينئذ السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز (٧٦٨هـ- ٧٧٤هـ)، يلتمس منه التوسط لدى سلطان الأندلس بشأن إلحاق أهله وولده، فتم له ذلك[٤٤].

لم تجر الأمور كما قدرها ابن الخطيب حينما استوطن المغرب، فقد امتدت نحوه أصابع الاتهام، وكانت التهمة جسيمة وخطيرة، إنها تهمة الزندقة التي طالما تذرع بها أهل السلطان حينما يحبون استحلال دم أهل العرفان، ولقد كان منها براء[٤٥].

وحاكموه وطالبوا بسفك دمه، وبذلوا في سبيل ذلك كل وسيلة بيد أن سلطان المغرب حال دون ذلك قائلاً للوفد المبعوث: «هلا انتقمتم منه وهو عندكم، وأنتم عالمون بما كان عليه! وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جواري»[٤٦].

ظل ابن الخطيب محمياً ينعم بالعافية على تنغص الأحوال، يأوي إلى ركن السلطان عبد العزيز الذي لم يقصر في دفع الأذى عنه، بيد أنه لم ينشب أن هلك، ودخل المغرب عقب وفاته في متاهة من الصراعات السياسية الداخلية بسبب الوريث الشرعي الذي خلفه أبوه صغيراً لم يبلغ الحلم بيد أن كبير وزرائه أنقذ الموقف فكفل الأمير، وقاد البلاد أحسن القياد، وواصل البر في حق ابن الخطيب.

اغتنم ابن الأحمر الذي كان يتربص بابن الخطيب والدولة التي حمته الدوائر، فرصة وفاة السلطان عبد العزيز، فأطلق سراح من كان معتقلاً عنده من ذوي الشوكة من بني مرين، وأعانهم بالمال والعتاد، واستطاع أن ينتزع الملك من الصبي ووزيره،

(٤٤) - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج٢، ص ٣١٨.
(٤٥) - المقري، نفح الطيب، ج٥، ص ١١٨.
(٤٦) - ابن خلدون، العبر، ج١٣، ص ٦٩٧.

ويقيم مكانه السلطان أبا العباس سنة (٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م)، وكان من بين الشروط المتفق عليها بين ابن الأحمر والسلطان المريني الجديد، القبض على ابن الخطيب إن تم له الأمر.

لم تمض إلا أيام معدودات حتى ألقي القبض على ابن الخطيب، وحوكم وعزر وأودع السجن، ووقعت المشاورة على قتله، فأفتى بعض الفقهاء بقتله، واقتحم عليه السجن ليلاً فقتل خنقاً سنة (٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) ودفن بباب المحروق بفاس، ثم أخرج من قبره، ووضع على شفيره وقد أضرمت النار في جثته، بيد أنها لم تصبه كله، وإنما أصابت رأسه ووجهه الذي تغير إلى السواد.

هكذا كانت نهاية ابن الخطيب كما وصفها صديقه ابن خلدون الذي كان على صلة به إلى آخر رمق من حياته[٤٧].

لقد كانت بحق نهاية مأساوية تجسدت فيها أبلغ صور البشاعة والوحشية، وغابت عنها أبسط معاني الرحمة والإنسانية.

(٤٧) - ابن خلدون، العبر، ج١٣، ص ٧٠٩ - ٧١٠.

الفصل الثاني
«الإحاطة» ومنهج التأريخ للحياة السياسية والحضارية

مقدمة:

لا ريب أن فيما بسطناه سابقاً ما يدل على أهمية هذا المؤلف وقيمته، ولكي نقف على أهميته أكثر نتعرف جوانب أخرى منه من خلال تقويم الفوائد التي يقدمها للباحث على مختلف المستويات والأنشطة الإنسانية، وأقصد بذلك تقويم الكتاب من حيث تأريخه للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والعمرانية وغير ذلك.

وجدير بالذكر أن الفائدة التي يمكن أن يقدمها كتاب الإحاطة في النواحي المذكورة هي ما تعلق بالقرنين السابع والثامن وخاصة القرن الثامن لقرب ابن الخطيب من مواردهما العلمية المتنوعة الكثيرة.

لقد أحصيت تراجم القرنين السابع والثامن في الإحاطة فوجدتها تبلغ ثلاثمائة وثلاث ترجمات، هذا مع العلم أن مجموع تراجم الإحاطة كلها لا تتعدى ستاً وسبعين وثلاثمائة ترجمة، وبناء على هذا ستكون نسبة الحصة التي ظفرت بها تراجم القرنين السابع والثامن أزيد من خمسة وسبعين في المائة.

أما إذا حاولنا تحديد نسبة تراجم القرن الثامن الهجري وحده، فإننا أحصيناها فوجدناها حوالي إحدى وثلاثين ومائتي ترجمة، وبناء على هذا تكون تراجم القرن الثامن وحده قد شكلت نسبة أزيد من خمسة وخمسين في المائة من مجموع الكتاب، وأعتقد أن هذا القدر من التراجم في القرن الثامن كاف لإعطاء صورة متكاملة نوعاً ما عن القرن على مختلف المستويات.

ويجدر بي التنبيه على أنني في تقويمي للكتاب من خلال هذه الجوانب المذكورة التي تتقرر من خلالها أهمية الإحاطة، سأدع النصوص المقتبسة تفصح عن مكنون مضمونها، وفحوى خطابها، لأنها فصيحة بليغة وواضحة بينة ولا أتدخل بالتعليق إلا ملعا عندما عندما تدعو الضرورة.

المبحث الأول: «الإحاطة» والتأريخ للأحوال السياسية لغرناطة:

لعل أكثر الجوانب التي استوفى ابن الخطيب حقها، وأعطاها نصيبها، بحكم الموقع والرغبة والميول بأن فصل فيها القول، جانب التاريخ السياسي، حيث أرخ لمدينة غرناطة عاصمة مملكة بني الأحمر وأم قراها، بدءاً من تاريخ تحول مقاليد الريادة والسيادة إليها على عهد الصنهاجة البربر، عقب انهيار الدولة العامرية والخلافة الأموية، ونشوب الفتنة التي سميت في التاريخ الأندلسي بالفتنة البربرية سنة ٤٠٣هـ، إلى أن استقل بها بنو الأحمر، مروراً بجميع العصور، وذلك من خلال المقدمة الجغرافية والتاريخية التي جعلها قسماً أولاً للكتاب، وكذلك من خلال القسم الثاني المخصص لتراجم الأعلام والأعيان الذين تربطهم بغرناطة صلة الانتماء بالأصالة أو الميلاد أو السكنى أو الطروء أو المرور لسبب من الأسباب.

كما استطاع كتاب «الإحاطة» أن يصور لنا العلاقات السياسية التي كانت تربط المغرب بالأندلس، سواء على عهد المرابطين أو الموحدين أو على عهد المرينيين أخيراً، وقد صور العلاقات بين الدولة النصرية والمرينيين تصويراً دقيقاً ومستوعباً، كما كشف عن جوانب كبيرة ومهمة من تاريخ الدولة المرينية من خلال الترجمة لسلاطينها الذين أجازوا إلى الأندلس برسم الجهاد، أو من خلال الإلماع إلى ملوكها ضمن تراجم الملوك والأمراء النصريين عندما يشير إلى من عاصرهم من ملوك وسلاطين الدول المجاورة.

كذلك صور لنا «الإحاطة» العلاقات السياسية التي كانت سائدة بين مملكة غرناطة والممالك النصرانية وهي علاقات تأرجحت ما بين الحرب والسلم والمنابذة والهدنة واغتصاب الأراضي ثم استخلاصها والإغارة والرد بالمثل، والكر والفر من كلا الجانبين وما يستتبع ذلك من عقد المعاهدات وإبرام اتفاقيات الصلح والأمان، وتبادل السفارات.

عرفنا كل هذا من خلال تراجم الملوك والأمراء النصريين الذين أفاض ابن الخطيب في الحديث عنهم وعن أحوالهم وأعمالهم ومناقبهم وجهادهم والملوك

على عهدهم، وجلب نصوص الرسائل السلطانية الكثيرة والمتنوعة الأغراض والمضامين.

ولما كان ميدان المساحة التاريخية السياسية التي جال فيها قلم ابن الخطيب لاحباً، والوقائع الواصفة للأحداث ثرة، ومجالات بنيات وحدات الحقول التأريخية المتجانسة متعددة ومتباينة، وتوزع ذلك وتفرقه في ثنايا كتاب الإحاطة برمته، استجابة لما أملته الضرورة المنهجية، وصنعة التأليف المرعية الراجعة إلى حال صيرورة هذا النوع من التصنيف من جهة، وخيارات الإبداع المرتدة إلى موهبة الذوق الخطيبية من جهة ثانية، لما كان كل هذا وارداً لم نر ضرورة في استجلاب النصوص الشاهدة لأنها كثيرة تخرج بنا عن الغرض المقصود، ثم إننا تحدثنا عن هذا في توطئة الإطار التاريخي لهذا النص التاريخي الذي نحن في صدده فلا فائدة من التكرار، ولمن شاء أن يستقصي ذلك العودة إلى الكتاب جملة فذلك خير شاهد.

المبحث الثاني: «الإحاطة» والتأريخ للأحوال الحضارية المختلفة:

مقدمة:

لعلي لا أكون مغالياً إذا قلت: إن أخص خصيصة تميز بها ابن الخطيب في كتابته التاريخية المتعلقة بتاريخ وطنه، حرصه على الإلمام بالجوانب المختلفة من حياة الإنسان داخل المجتمع الذي يحيا فيه، فتجده إذا أرخ لا يكتفي بذكر تاريخ الدولة السياسي، وإنما يشير أيضاً إلى أحوالها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والمعمارية والعسكرية بشكل مثير للانتباه قلما يشاركه في ذلك العمل مؤرخ من المؤرخين، وأظنني لا أجازف إذا جزمت بتفرده في ذلك دون غيره فيما وصلتنا من تواريخ على كثرتها وتنوعها.

ولقد وجدناه كلما تصدى لكتابة تاريخ بلاده كتابة تاريخية محضة، سواء أطال أو أوجز، قدم لذلك بمقدمة عامة ولو موجزة يعرض فيها أحوال بلاده الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وخاصة تاريخ الدولة التي احتضنت ذلك السرب من بقية

المسلمين بالأندلس، ونعني به مملكة غرناطة في ظل بني الأحمر.

ولا أدل على ذلك من تينك المقدمتين المستفيضتين المفيدتين اللتين اختارهما ليوطئ بهما كلاً من كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة» و «اللمحة البدرية في الدولة النصرية» فقد استطاعت هاتان المقدمتان أن تعطيانا صورة واضحة ومفصلة عما كان يجري في تلك المملكة من نشاط إنساني على مختلف الأصعدة.

قال ابن الخطيب وهو يعرض منهجه في التصنيف والتأليف مشيراً إلى ما سيضطلع به مشروعه من ذكر لما أسميناه بالأوضاع الحضارية: «والترتيب الذي انتهت إليه حيلتي، وصرفت في اختياره مخيلتي، هو أني ذكرت البلدة حاطها الله، منبهاً منها على قديمها، وطيب هوائها وأديمها، وإشراق علاها، ومحاسن حلاها، ومن سكنها وتولاها، وأحوال أناسها، ومن دال بها من ضروب القبائل وأجناسها، وأعطيت صورتها، وأزحت في الفخر ضرورتها وذكرت الأسماء على الحروف مبوبة، وفصلت أجناسهم بالتراجم المترتبة..»[٤٨].

فكيف قدم لنا لسان الدين بن الخطيب مختلف الأوضاع الحضارية لبلاده؟ وما مظاهر الجدة والطرافة في ذلك؟

ذلك ما سنعرضه من خلال العناصر الآتية:

المقصد الأول: «الإحاطة» والتأريخ للحياة الاجتماعية:

مقدمة:

نعني بالحياة الاجتماعية أبرز مظاهر الأنشطة الإنسانية الجماعية الفاعلة والمتفاعلة التي ترسم في نهاية المطاف خصائص المجتمع الغرناطي ومميزاته كوحدة متجانسة لها مقومات شخصيتها المتفردة، مثل الإشارة إلى العناصر المكونة للمجتمع الغرناطي، وطبيعة أداة التواصل التي كانت سائدة وصفة الملامح العامة لسكان

(٤٨) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٨٧.

المجتمع الغرناطي، وصفة أنواع الملبوس الذي كان رائجاً، وأسلوب المعاش، وبعض العادات والتقاليد، وطبيعة الحياة الدينية وهلم جرا.

المطلب الأول: العناصر السكانية:

أ- العرب والبربر:

من الأمور الأساسية والمنهجية التي انتبه إليها ابن الخطيب وهو يحاول إعطاء صورة عن المجتمع الغرناطي إشارته إلى العناصر المتساكنة في هذا المجتمع قائلاً: «وأنسابهم عربية وفيهم من البربر والمهاجرة كثير»(٤٩)، ولم يكتف ابن الخطيب عند ذكره للعنصر العربي بالإشارة إليه جملة، بل نظر في الوثائق الرسمية من مراسيم وظهائر وبيعات وإجازات فتقصى الأصول النَّسَبية التي يتكون منها المجتمع عامة وذكرها مفصلة، يقول ابن الخطيب: «وأنسابهم حَسبما يظهر من الإسترعات(٥٠) والبيعات السلطانية والإجازات عربية يكثر فيها القرشي والفهري والأموي والأنصاري والأوسي والخزرجي...»(٥١) فيعد حوالي سبعة وسبعين أصلاً عربياً ينتسب إلى بطون مختلفة من جزيرة العرب، ثم يشير إلى نسبها حسب الكثرة والقلة تدقيقاً في الإحصاء كقوله: «ويقل من ذلك السلماني نسباً، وكالدوسي، والحواري، والزبيدي، ويكثر فيهم كالأنصاري، والحميدي، والجذامي، والقيسي، والغساني»(٥٢).

وابن الخطيب حينما يفعل هذا إنما يفعله لتأكيد غلبة العنصر العربي وطغيانه من حيث النسبة والكثافة استجابة للنزعة القومية، والحظوة بشرف الانخراط في سلكها لعامل النبوة كما هو بين، دل على هذا قوله: «وكفى بهذا شاهداً على الأصالة،

(٤٩) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٤.

(٥٠) - لم أقف على معنى لهذا المصطلح، ولست أدري أهو لفظ صحيح أم أصابة تحريف، وحسبي أن أذكر ما علق به المرحوم عنان على هذا اللفظ قال: «هكذا وردت في المخطوطات الثلاثة، وكذا في الملكية، ولعلها «الإشراعات»، ومفردها «إشراع»، أو الإشتراعات بمعنى مرسوم أو ظهير، أو لعلها إن كانت صحيحة، تعبير أندلسي قديم عن الإشراعات» الهامش رقم (٢)، الإحاطة، ج١، ص١٣٥.

(٥١) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٥.

(٥٢) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٦.

ودليلاً على العُروبيِّة»[٥٣].

ويستشف من خلال نصوص متفرقة أن العنصر البربري الوافد من جميع بلاد المغرب مترامية الأطراف خلال العصور التاريخية المتباينة لم يكن أقل نسبة من العنصر العربي، كما تفيد النصوص أن أواصر الامتزاج والتلاحم كانت بين العنصرين مستحكمة لتوازن كفتي العصبية والشوكة، وإن كان النفوذ السياسي والعسكري قد آل إلى العنصر البربري غير مدافع ابتداء من تاريخ ضعف الخلافة الأموية وانتهاء بسقوطها، ولكن الأمر الذي كان يحفظ التوازن بين الطائفتين، التفوق الثقافي والحضاري الذي كان عليه العنصر العربي على جهة الاختصاص والاكتساب.

هذا فيما يتعلق بالعناصر الأكثر انتشاراً والتي صرح ابن الخطيب بوجودها في مقدمة كتاب «الإحاطة».

ب ـ اليهود والنصارى:

أما العناصر الأخرى من يهودية ونصرانية فقد أشار إليها عرضاً في بعض التراجم، ولعل عدم إشارة ابن الخطيب إلى هذه العناصر صراحة راجع إلى احتقارهم، فتحاشى ذكرهم كعناصر سكانية تستحق الاحتفال والاهتمام.

ومن الإشارات التي دلت على وجود عناصر يهودية ما جاء خلال ترجمته لأمير المسلمين إسماعيل بن فرج بن إسماعيل (٧١٣هـ ـ ٧٢٥هـ/ ١٢١٤م ـ ١٣٢٥م)، حيث قال: «وأخذ يهود الذمة بالتزام سمة تُشَهِّرُهم، وشارة تميزهم، وليوفي حقهم من المعاملة التي أمر بها الشارع في الخطاب والطرق، وهي شواشي صفر»[٥٤].

ولقد انطوت هذه الإشارة على دلالات مهمة تستدعي الوقوف وتثير التدبر منها:

(٥٣) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٦:

(٥٤) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص٣٨٨:

١ ـ أن طائفة ليست بالقليلة من اليهود كانت تقطن غرناطة.

٢ ـ أنها كانت تتمتع بحرية واسعة وقوة كبيرة.

٣ ـ أن هذه الحرية جعلتها تتحلل من الالتزامات الشرعية إلا إذا تشدد في حقها أمير من الأمراء كما ثبت في النص المذكور.

ولم يفت ابن الخطيب أيضاً أن يعرض لنسبة النصارى في البلاد بشيء من التفصيل لا يشبه ما فعله مع جالية اليهود لكثرتهم ـ دون شك ـ وكذلك مركزهم الاجتماعي والديني كما تقرر في الشريعة، يدل على هذا العنوان الطويل الذي صدر به أحد فصول مقدمة الإحاطة وهو: «ذكر من آل إليه حال من ساكن المسلمين بهذه الكورة من النصارى المعاهدين على الإيجاز والاختصار»[٥٥] حيث عرض للتطورات التاريخية التي ألمت بهذه الطائفة منذ الفتح مروراً بجميع العصور التاريخية ودولها المتعاقبة وانتهاء بعصره، وهو مختصر يكشف عن الدور الخطير الذي لعبه النصارى داخل الدولة الإسلامية وما كانت له من آثار سلبية أدت إلى الإنهاك والإضعاف، يختمه بآخر فصل من تاريخ مناورتهم على الإسلام والمسلمين حينما أفتى القاضي أبو الوليد بن رشد الجد[٥٦] بإجلائهم عن الحضرة وتغريبهم شذر مذر في ظل الدولة المرابطية الفتية وأزعج منهم إلى بر العدوة[٥٧]... عدد جم، أنكرتهم الأهواء، وأكلتهم الطرق، وتفرقوا شذر مذر، وأصاب كثير من الجلاء جُمْعَتَهُم من اليهود، وتقاعدت بها منهم طائفة، هبت لها بمالأة بعض الدول ريح، فأمروا وأكثروا إلى عام تسعة وخمسين وخمسمائة،

(٥٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٠٦.

(٥٦) - هو الإمام العلامة، شيخ المالكية، قاضي قضاة قرطبة على عهده، أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد وكان فقيهاً عالماً، أفقه أهل الأندلس قاطبة، مقدماً في ذلك على أهل عصره، مع الديانة والفضل من مصنفاته «المقدمات» و «البيان والتحصيل» وغيرها، ولد سنة ٤٥٠هـ، وتوفي سنة ٥٢٠هـ، وحفيده هو فيلسوف زمانه. انظر ترجمته في: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص٥٠١.

(٥٧) - بر العدوة مصطلح جغرافي وتاريخي أندلسي - مغربي، شاع في العصور التاريخية الماضية يطلقه الأندلسي في بلاده ويريد به المغرب، ويطلقه المغربي في بلده ويريد به الأندلس، والعدوة لغة هي اليابسة التي دونها بحر أو نهر، والبرّان اللذان بينهما حاجز مائي ضيق الاتساع بسميان عدوتين.

ووقعت فيهم وقيعة احتشتهم، إلا صابة[٥٨] لهذا العهد قليلة، قديمة المذلة، وحلفت الصغار، جعل الله العاقبة لأوليائه»[٥٩].

ت ـ المدجنون:

وكان يوجد إلى جانب العناصر المذكورة عنصر «المدجنين»، وما كان لي أن أعدهم عنصراً لولا ملاحظة تميزهم إلى درجة الاغتراب أحياناً وسط إخوانهم الأندلسيين، رغم أنهم من بني جلدتهم، ويشتركون معهم في عقيدتهم، بيد أن بقاءهم في قواعدهم تحت السلطة النصرانية، واختلاطهم بالنصارى أفقدهم كثيراً من مقومات شخصيتهم الإسلامية والأندلسية، حيث تأثروا بهم في كثير من الأحوال الاجتماعية والحضارية مثل اللغة والثقافة والأخلاق إلى درجة فيها كثير من مظاهر الانهزام والغلبة، وهذا الأمر فيه إنذار مبكر بالذوبان والتحلل والاضمحلال، ولاشك أن النصارى تأثروا هم أيضاً بأوضاع الأندلسيين الحضارية كما تدل القرائن.

ومما يدل على ذكر ما نعرضه على سبيل المثال لا الحصر، قال ابن الخطيب في حق محمد بن علي بن عبدالله بن محمد بن الحاج (ت: ٧١٤هـ): «كان أبوه نجاراً من مدجني مدينة إشبيلية... انتقل بعد مهلك أبيه إلى باب السلطان ثاني ملوك بني نصر، ومت إليه بوسيلة أدنت محله... إلى أن تولى وزارة ولده أمير المسلمين أبي الجيوش نصر، واضطلع بتدبيره، ونقم الناس عليه إيثاره لمقالات الروم، وانحطاطه في مهوى لهم، والتشبه بهم في الأكل والحديث، وكثير من الأحوال والهيئات والاستحسان، وتطريز المجالس بأمثالهم وحكمهم، سمة وسمت منه عقلاً لنشأته بين ظهرانيهم، وسبقت إلى قوى عقله المكتسب في بيوتهم فلم تفارقه بحال...»[٦٠].

(٥٨) - الصابة: الشرذمة القليلة.

(٥٩) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١١٤.

(٦٠) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ١٤٠ - ١٤١

والنص يذكر بما جاء في أحد فصول مقدمة ابن خلدون وهو : «فصل في أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده» يقول ابن خلدون مبيناً السبب : «والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، وإنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقاداً، فتنحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به . . . »[٦١].

ولا يقل نص ابن الخطيب عمقاً وطرافة عن نص ابن خلدون، فضلاً عن تأريخه المبكر لحقيقة تأثر المسلمين بالنصارى وتعليل ذلك، فإذا كان ابن خلدون قد عزاه إلى الغلبة والانقياد، فإن ابن الخطيب عزاه كما هو باد إلى الاختلاط في النشأة، وشتان بين التفسيرين، فتفسير ابن خلدون نفساني سياسي، وتفسير ابن الخطيب اجتماعي حضاري، ومعلوم ما لسلطة الاجتماع والحضارة على ما هو نفساني سياسي.

المطلب الثاني : مقومات الشخصية الأندلسية :

أ ـ اللغة :

لم يفت ابن الخطيب أن يسجل مواصفات اللغة وطبيعتها التي كانت سائدة واللهجات التي كانت رائجة في المجتمع الغرناطي حيث قال : «وألسنتهم فصيحة عربية يتخللها غرب كثير، وتغلب عليه الإمالة»[٦٢].

وهذا النص على قصره وضآلة حجمه يقدم لنا معطيات عدة غاية في الأهمية والطرافة منها :

١ ـ سيادة اللغة العربية وذيوعها دون منازع، وهذا يؤكد أنها كانت لغة التواصل الاجتماعي والمعرفي في الأعم الأغلب.

٢ ـ أنها ظلت على نصاعتها وإشراقها بما كفل لها البقاء محافظة على أبرز مقومات شخصيتها وخصوصيتها ضامنة تأثيرها وصمودها، وهذا ما توحيه صفة

(٦١) - ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص٥١٠.

(٦٢) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٣٤.

«الفصاحة» التي وصف بها ابن الخطيب لغة بلاده في زمانه.

٣ ـ أنها لغة قد تسرب إليها «غَرْب» كثير، ولا نحتاج هنا إلى معجم لغوي يعرفنا دلالة هذا اللفظ، فلا ريب أنها الأسماء والمصطلحات التي ترتد إلى لغات ولهجات العناصر البشرية المتنوعة المتساكنة.

٤ ـ أن تسرب هذا الغرب الكثير إلى لغة العرب يكشف عن التلاحم والتمازج بين العناصر المتساكنة، كما يكشف من جهة أخرى عن حقيقة مسكوت عنها بالغة الأهمية، وهي التوازن الاجتماعي بين طوائف ساكنة غرناطة ذات الانتشار الواسع الذي يضمن عملية التأثير والتأثر، وأعتقد أن دراسة للنصوص العربية الموروثة الراجعة إلى هذه المرحلة لتكشف عن طبيعة هذا الـ«غرب» الكثير وأصوله، وإن كنت لا أستبعد أن يكون هذا الغرب راجعاً إلى الألسنة واللهجات الأكثر انتشاراً إبانئذ وهي اللهجات الرومية والفرنجية من جهة، واللهجات البربرية المتعددة والمتنوعة من جهة ثانية.

٥ ـ أن من صفات هذه العربية أيضاً لكنة الإمالة، وهي صفة كلام أهل الشام التي ما زالت شاهدة حتى الآن، وهذا ما يؤكد طغيان موجة مهاجرة الشام الذين نزحوا من بلادهم عند سقوط الخلافة الأموية بالمشرق، واستئنافها جديدة في الأندلس على يد صقر قريش عبد الرحمن الداخل.

ب ـ الصفة الخَلْقيَّة:

لم يشذ عن قلم ابن الخطيب وهو يؤرخ لأوضاع بلاده أن يقدم ومضة ناصعة ورائعة، رسم من خلالها لوحة مختزلة ودقيقة، موحية ومؤثرة تفوق من حيث القيمة والدلالة اللوحة الفنية لأنها تنبض بالحياة فضلاً عمّا تثيره من ظلال وإيحاءات ممتدة في فضاءات الخيالات اللاحبة، يقول: «وصورهم حسنة، وأنوفهم معتدلة غير حادة، وشعورهم سود مرسلة، وقدودهم متوسطة معتدلة إلى القصر، وألوانهم زهر مشربة بحمرة»(٦٣).

(٦٣) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٤.

لقد استطاع ابن الخطيب بفضل هذا النص أن يرسم لنا بوساطة أدبه وحسه صورة رائعة لأهل غرناطة كأنها صورة فوتوغرافية، بل وأنَّى لآلة التصوير أن تهتدي إلى ذلك لأنها جامدة وخالية من الحس فضلاً عن كونها فريدة الصورة أحاديتها، قدم من خلالها المقومات والحدود الواصفة المُمَيِّزَة جنساً وفصلاً وعرضاً متمثلة في: وصف الهيئة العامة بالحسن، ثم شرع في التفصيل بوصف الأنوف بالاعتدال نافياً عنهم صفة الحدة المشينة، ووصف الشعور من حيث اللون بالسواد، ومن حيث الطبيعة بالاسترسال مما يؤكد الاختلاط والامتزاج، كما وصف القدود بالاعتدال والميل إلى القصر، وأخيراً وصف لون البشرة الأزهر المشوب بالحمرة، وهي صورة لا تزال صادقة إلى الآن يقف عليها كل من زار وتجول في شوارع مدينة غرناطة.

لقد حاز ابن الخطيب بهذا الوصف العام لقومه قصب السبق من حيث دقة الملاحظة، والقدرة على التجرد والحكم، إذ نادراً ما نجد نظيره في كتب التراجم والتاريخ.

هذا فيما يخص الرجال من أهل الحضرة، أما فيما يخص النساء فقد وصفهن وصفاً بلغ فيه الغاية دقة وحسن تعبير، إلى حد الإغراء المثير لد «فتنة»، كشف به عن حالهن خَلقاً وخُلقاً، أُفَضِّل أن أكتبه عمودياً على غرار شعر التفعيلة، لجماليته وموسيقيته، مبالغة في التنويه والاحتفاء يقول:

«وحريمهم حريم جميل،
موصوف بالسحر (وفي نسخة أخرى «بالحسن»)،
وتنعم الجسوم،
واسترسال الشعور،
ونقاء الثغور،
وطيب النشر،
وخفة الحركات،

ونبل الكلام،

وحسن المحاورة،

إلا أن الطول يندر فيهن»[٦٤].

إنه نص ينبض بالجمال ويشع بالحسن، يكاد ينطق روعة، ويتكلم بدعة، بما جلّى فيه يراع الإبداع تنميقاً وتزويقاً، وتفصيلاً وتدقيقاً، حشرت فيه جميع أدوات البيان، فجاء على قدر من الإحكام في العمران والبنيان، ينساب انسياب الفرات العذب، ويسري من الوجدان سريان شعر الصبِّ، ويملك الحواس فعل السحر الذي يخلب اللب.

والنص من الناحية الدلالية يمكن تقسيمه إلى:

١ ـ قيم جمالية طبيعية موروثة تكشف عن اختلاط عناصر بشرية متعددة تضافرت عبر العصور لتنتج ما يمكن تسميته بـ«العنصر الأندلسي» ونعني بها قوله: «وحريمهم حريم جميل، موصوف بالسحر... واسترسال الشعور... إلا أن الطول يندر فيهن».

٢ ـ قيم حضارية مكتسبة نجمت عن العراقة في الحضارة والإغراق في النضارة بفعل المدنية والبعد عن الخشونة، يعبر عن هذا قوله: «... وتنعم الجسوم... ونقاء الثغور، وطيب النشر... ونبل الكلام، وحسن المحاورة».

٣ ـ قيم جمالية ذوقية يشكلها في الغالب الإرث الثقافي، والذوق الاجتماعي الذي تصوغه العادات والتقاليد القوية الذائعة، ويصعب تفسيره بأكثر من هذا، وتعبر عن ذلك عبارة «خفة الحركات» التي ترغب الرجال في النساء غالباً حسب الذوق الأندلسي على الرغم من أن الإمام ابن حزم (٣٨٤هـ ـ ٤٥٦هـ) قرر خلاف هذا وإن كانت مقاصد الكلام ومقاماته بين الرجلين مختلفة بيد أن هناك خيطاً يجمع بينهما، وهذا ما يشفع لنا في إيراد نص ابن حزم لطرافته يقول: «كنا نظن أن العشق في ذوات الحركة والحدة من النساء أكثر، فوجدنا الأمر

(٦٤) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٩.

بخلاف ذلك، وهو في الساكنة الحركات أكثر، ما لم يكن ذلك السكون بلها»[٦٥].

ومن يدري لعل هذا ذوق له بيئته وأصوله الثقافية المرتدة إلى عصر ابن حزم وزمانه، أو لعله ذوق ابن حزم دون غيره.

ولقد حظي هذا الوصف الخطيبي خاصة باهتمام كبير من قبل الدارسين المحدثين والمعاصرين لما حمله من معان لطاف ودلالات نادرة.

جـ ـ صفة اللباس:

من الأشياء التي احتفل بها يراع ابن الخطيب، وهو يدون جزئيات تاريخ مجتمعه، الإلمام بصفة اللباس العام الذي كان يرتديه الأندلسيون في زمانه سواء في فصل الشتاء أو في فصل الصيف أو في أيام الجمع، يقول: «ولباسهم الغالب على طرقاتهم، الفاشي بينهم، الملف المصبوغ شتاء، وتتفاضل أجناس البز بتفاضل الجدة، والمقدار، والكتان، والحرير، والقطن، والأردية الإفريقية، والمقاطع التونسية، والمآزر المشفوعة صيفاً»[٦٦].

والنص يكشف عما نذكره من القيم الاجتماعية المتعلقة باللباس وهي:

١ ـ اللباس الفاشي الذي يشترك في ارتدائه أكثر الناس في شوارعهم وطرقاتهم خلال فصل الشتاء، ويتمثل في «الملف» وهو القماش المصنوع من الصوف، وابن الخطيب حينما يتحدث عن الملف يتحدث عنه بوصفه مادة أولية لا نوعاً من الملبوس، ويستشف من هذه الفكرة المستوى المعيشي الراقي الذي كان عليه أهل الأندلس، ويستشف أيضاً العناية الكبيرة بالمظهر التي تنم عن الرقي الحضاري، كما يوحي ببرودة المناخ الذي لا يقاومه إلا لباس الملف، ولا شك أن الملف كان لباساً خارجياً تحته أنواع من أخرى من الثياب، وهو ما كشف عنه النص في عبارة لاحقة.

(٦٥) - ابن حزم، رسالة في مداواة النفوس، ص ٣٧٤.
(٦٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٤ - ١٣٥.

٢ ـ تفاوت الناس وتفاضلهم في أنواع البزز والقماش من حيث الجدة والمقدار حسب تباين الناس غنى وثراء، وهذا يعكس تنوع الأذواق واختلاف الميول، فإذا كان الملف يعبر عن الذوق العام في اللباس، فإن التنوع الذي أشارت إليه العبارة اللاحقة يعبر عن الأذواق الخاصة.

٣ ـ تنوع المادة الأولية التي تصنع منها الألبسة، وهو تنوع كشف تقريباً عن جميع أنواع المواد الموجودة التي كانت سائدة في ذلك العصر، وتمثل في: الكتان والحرير والقطن والمرْعزى ومعناه كما جاء في المعاجم اللغوية؛ اللين من الصوف وكذلك الزغَبَ الذي تحت شعر العنز(٦٧).

فهي إذن أنواع تدل على نعمة الرفه ورغد العيش والعراقة في الحضارة التي عرفتها الأندلس بإجماع المؤرخين.

٤ ـ تنوع أنواع الملبوسات متمثلة في الأردية والمقاطع والمآزر المشفوعة وهو تنوع يوحي بأنه لم يكن للأندلسيين زي يميزهم على الإطلاق بما وصلوا إليه من تحضر، وإنما هناك تنوع حيث كانت الأردية الإفريقية والمقاطع التونسية تجد لها رواجاً في الأندلس.

ولم يفت ابن الخطيب أيضاً أن يشير إلى مكون آخر من مكونات زيهم لتكميل الصورة وبيان الحقيقة، ونعني به «العمامة»، فما موقعها من الزي الأندلسي؟

يقول ابن الخطيب: «والعمائم تقل في زي أهل هذه الحضرة، إلا ما شاذ في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم والجند العربي منهم»(٦٨).

وقلة التعمم تدل على معنى ثقافي لطيف يتمثل في استيعاب القيم الإسلامية لبعض المظاهر الحضارية والثقافية الأوربية والبربرية التي كانت طاغية على أهالي هذه الجهات، فلم تنسخها نسخاً بل احتضنتها لأنها لا تؤثر، وبقيت تقليداً حافظ

(٦٧) - ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص ١٦٧٠.
(٦٨) - ابن الخطيب، الإحاطة ج١، ص١٣٦.

عليه الشيوخ ستراً ووقاراً، والقضاة هيبة وفخاراً، والعلماء تأسياً واتباعاً، والجند العربي عادة واعتداداً.

ودل أحد النصوص المُهّمة على أن من الأندلسيين من كان يضع على رأسه غطاء أُطلق عليه في عرفهم مصطلح «الشاشية»، وقد سيق النص في معرض الحديث عن مناقب السلطان إسماعيل بن فرج بن إسماعيل خامس ملوك الدولة النصرية (٦٧٧هـ ـ ٧٢٥هـ) الذي ألزم اليهود بزي يميزهم عن كافة المسلمين، تمثل في ارتداء شواشي صفر، قال ابن الخطيب: «ولقد حدَّث من يخفُّ حديثه من الشيوخ أولي المجانة والدعابة، قال: كنا عاكفين على راح، وبرأسيَ شاشية ملف حمراء، فحاول أصحابي إنامتي، حتى أمكن ذلك، وبادروا إلى رقاع من ثوب أصفر، فصنعوا منها شاشية، ووضعوها في رأسي مكان شاشيتي، وأيقظوني، فقمت لشأني، وقد هيؤوا ثمناً لشراء بقل وفاكهة، وجهزوني لشرائه، فخرجت حتى أتيت دكان السوق، فساومته، فلما نظر إلي قال لصاحبه: جزى الله هذا السلطان خيراً، والله لقد كنت أبادر هذا اللعين بالسلام عند لقائه أظنه مسلماً، وبصق علي، فهممت أن أوقع به، ثم فطنت للحيلة، فانتزعتها، وبادرت فأوسعتهم ذماً...»[٦٩].

والنص يكشف فضلاً عن الإشارة إلى «الشاشية» أن عدد اليهود في غرناطة كان جمًا، وأنه بلغ اختلاطهم بالمسلمين درجة صعَّبت على كثير من الأندلسيين تمييزهم من المسلمين، كما يكشف عن أن هذا العمل الذي قام به هذا السلطان كان سابقة قلّما التفت إليه سلطان من السلاطين، لذلك أحاطت به الغرابة، حتى إن بعض الناس استغلوه للدعابة والمرح كما يستشف من النص المذكور.

هذا فيما يخص الزي العام الذي يغلب فيه الرجال لأنهم هم السواد الأعظم للمظهر الخارجي للمجتمع الأندلسي خاصة والمجتمعات الإسلامية عامة بحكم التعاليم الشرعية المحددة للحرية الظاهرية بالنسبة إلى المرأة بخلاف الرجال.

(٦٩) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص٣٨٨.

أما زي النساء فقد بدا من خلال الوصف غاية في التجمل والزينة إلى حد البذخ والترف المثير للاستغراب والتعجب، لا يشفع لذلك إلا درجة الجمال والحسن التي كنَّ عليها، والمستوى المعاشي الرفيع الذي يذكر بمستوى أعالي العائلات والطبقات في المجتمعات المتحضرة المعاصرة.

يصف ابن الخطيب زينة نساء غرناطة وحليها بقوله: «وحليهم في القلائد، والدمالج والشنوف، وخلاخل الذهب الخالص إلى هذا العهد في أولي الجدة، واللجين في كثير من آلات الرجلين فيمن عداهم، والأحجار النفيسة من الياقوت والزبرجد والزمرد، ونفيس الجوهر كثير ممن ترتفع طبقاتهم المستندة إلى ظل دولة أو أصالة معروفة موفَّرة»[٧٠]، وهذه الأوصاف كلها تدل على الغنى الفاحش الذي وصلت إليه غرناطة في ذلك العصر، وكذلك تدل على نفسية المرأة العربية في حرصها على اقتناء المذهبات وجمع المجوهرات، المنافي للبساطة والذي ربما كان قيمة حضارية متمكنة وخاصة في المجتمعات المدنية.

ولقد أدرك ابن الخطيب خطورة هذه المبالغة في الحرص على وسائل الزينة الفاخرة المختلفة الذي بلغ مبلغ التماجن والتنافس بينهن، إلى حد الخوف على المجتمع من قبلهن، ذلك المجتمع الذي يمر بظروف عصيبة، وأن تكون تلك الظاهرة سبباً في البلاء والإزراء يقول: «وقد بلغن من التفنن في الزينة، والتماجن في أشكال الحلي، إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر، ويكفكف الخطب، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة»[٧١].

د- أسلوب المعاش:

تحدث ابن الخطيب من جملة ما تحدث عنه وهو يصف الحياة الاجتماعية لأهل غرناطة أسلوب عيشهم، ونقصد به ما كانوا يقتاتونه من أنواع ما يؤكل من حبوب وقطاني وفواكه طرية ويابسة، فكشف عن قوتهم الأساسي سائر أيام العام، خاصة

(٧٠) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٩.
(٧١) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٩.

سكان المدن وذوو الدخل اللائق قائلاً: «وقوتهم الغالب، البر الطيب، عامة العام»[٧٢].

كما كشف عن قوت الضعفاء، وأهل البوادي، والمشتغلين بالفلاحة في فصل الشتاء خاصة، قائلاً: «وربما اقتات في فصل الشتاء الضعفة والبوادي والفعلة في الفلاحة الذرة العربية أمثل أصناف القطاني الطيبة»[٧٣].

وتحدث أيضاً عن الفواكه اليابسة التي كانت متوفرة ومتعددة سائر أيام العام قائلاً: «وفواكههم اليابسة عامة العام متعددة»، كما أنه لم يفته أن يعدد أصنافاً منها من الطري والجاف فذكر «التين، والزبيب، والتفاح، والقسطل، والبلوط، والجوز، واللوز»، ثم علق بما يشير إلى الوفرة والكثرة قائلاً: «. . . إلى غير ذلك مما لا ينفد، ولا ينقطع مدده إلا في الفصل الذي يُزهد في استعماله»[٧٤].

ولقد أشار ابن الخطيب إشارة طريفة مثيرة للاعتبار والتأمل وهي مسألة الادخار يقول متحدثاً عن أهل غرناطة: «. . . يدخرون العنب سليماً من الفساد إلى شطر العام»[٧٥] فالنص يكشف ـ كما هو بين ـ أنه كانت لهم طريقة مخترعة في أسلوب الادخار، وحفظ المخزون، سالماً من التعفن والضياع مدة طويلة، لعلهم راعوا فيها شروط المكان من حيث الارتفاع والانخفاض، والتربة من حيث الصلابة والليونة، وكذلك الهواء من حيث الرطوبة والجفاف، مما يكشف عن طول التجربة ومراس الخبرة.

لقد أبانت هذه النصوص المتعلقة بأسلوبهم في المعاش الحياةَ الراقيةَ والغنيةَ التي كانوا عليها رغم ما أشار إليه من وجود الضعفاء والفقراء.

كما كشفت نصوص أخرى داخل الإحاطة عن بعض ما كان أهل الأندلس يتناولونه من مأكولات مثل طبخ الأرز واللبن، كما ورد في ترجمة أحمد بن

(٧٢) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٧.
(٧٣) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٧.
(٧٤) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٧.
(٧٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٣٧.

عبدالنور (٦٣٧هـ - ٧٠٢ هـ) وهو يعرض بعضاً من مظاهر نوكه وغفلته، قال: «. . . ومنها أنه سار إلى بعض بساتين ألمرية مع جماعة من الطلبة، واستصبحوا أرزاً ولبناً، فطلبوا قدراً لطبخه فلم يجدوا. . .»[٧٦].

كما أشار في الصفحة نفسها أيضاً إلى طريقة من طرق طهي اللحم ربما كانت رائجة عندهم آنئذ، وهي طبخ اللحم في المرق، قال: «ومنها أنهم حاولوا طبخ لحم مرة أخرى في بعض النزه، فذاق الطعام من الملح بالمغرفة، فوجده محتاجاً للملح، فجعل فيه ملحاً وذاقه على الفور. . .»[٧٧].

والنصان يوحيان فضلاً عن هذين النوعين من المأكولات أنه ربما كانت من العادات الرائجة خروج الطلبة وشيوخهم أحياناً إلى النزه للاسترواح والاستجمام. كما وردت الإشارة الى نوع من الفطائر كانوا يصنعونه يدعى «المجبنات» وواحدته «مجبنة» بيد أن الوصف جاء من خلال بيتين من الشعر جلبهما ابن الخطيب في ثنايا ترجمة أبي البركات بن الحاج البلفيقي، وهو يذكر نتفاً من شعره قال: «ومنها قوله في المجبنات وهو من الغريب البديع:

ومصفرّة الخدّين مطويّة الحشا *** على الجُبن والمصفرّ يؤذن بالخوف
لها هيئة كالشمس عند طلوعها *** ولكنها في الحين تغرب في الجوف»[٧٨]

والبيتان وإن قدما بعض صفات المجبنات فإنها لا تفي بالمطلوب، لذلك اضطررنا الى البحث عن نصوص أخرى خارج «الإحاطة»، فالتمسنا ذلك فوجدنا أبياتاً لابن الأبّار الأندلسي (٥٩٥ هـ - ٦٥٨ هـ) استطعنا أن نكوّن من خلالها تصوراً قريباً عن حقيقة المجبنات، يقول:

بنفسي مثلجات للصدور *** لها سمتان من نار نور
حوامل وهي أبكار عذارى *** تزف على الأكف مع البكور

(٧٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٢٠٠.
(٧٧) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٢٠٠.
(٧٨) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ١٥٨.

بيـــاض الطّلح مـــا تنشق عنه * * * وفـوق أديمهـا صـهب الخـمـور
كـبـرد الطلّ حين تذاق طعـمـاً * * * وفي أحـشـائهـا وهج حـرور
لهـــا حـــالان بين فم وكف * * * إذا وافـتك رائقـة السـفـور
فـتـغـرب كـالأهلّة في لهـاة * * * وتطلع في يمين كـالبـدور (٧٩)

وقال أحمد المقري في معرض الترجمة للقاضي أبي يحيى بن عاصم الغرناطي، وكان يلقب بابن الخطيب الثاني: «ومن بارع نظمه رحمه الله قوله في المجبنات:

وربّ مـحـبـوبة تبـدّت * * * كـأنّهـا الشـمس في حـلاها
فـاعـجب لحـال الأنام من قـد * * * أحـبّـهـا منهم قـلاها (٨٠)

ويمكن أن نستنتج من خلال هذه المقطوعات المعاني والصفات الآتية:

١ - أن لون المجبنات كان أصفر.

٢ - أنها كانت مستديرة الشكل.

٣ - أنها تحشى بمادة معينة قد تكون جبناً، وقد تكون مادة تبعث على الحرارة.

٤ - أنها كانت تقلى في الزيت.

٥ - أنها كانت تتناول في الصباح.

٦ - أن من هذه صفاته لابد أن يكون مصنوعاً من الدقيق.

ولقد أكد نص آخر لابن الخطيب أنها كانت من الأشياء التي تقلى، ورد ذلك في ثنايا ترجمة محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم الأنصاري المعروف بالشديد (ولد سنة ٧١٠ هـ) من خلال رسالة بعثها ابن الخطيب للمذكور بمناسبة ولايته خطة الحسبة بمالقة يداعبه فيها من جملة ما جاء فيها قوله: «. . . فكن لقالي المجبّنة قالياً» (٨١).

(٧٩) - ابن الأبار، ديوان ابن الأبار، ص ٤٤٣. وانظر: المقري، أزهار الرياض ج٣ ص ٢٢١.
(٨٠) - المقري، أزهار الرياض، ج٣، ص ٣١٩.
(٨١) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ١٩٧.

والمجبّنة بهذا الاسم مازالت بعض المدن المغربية العريقة مثل فاس وتطوان تحافظ على صناعتها، وهي من الحلويات الشعبية المحترمة بيد أن شكلها أصبح مربعاً، وتطلى بالعسل أو يذر عليها السكر.

كما أن بقية النص الذي داعب من خلاله ابن الخطيب المحتسب الجديد يكشف عن ألوان أخرى من الأطعمة التي كان الأندلسيون يتناولونها، يقول ناصحاً ومداعباً: «... و[كن] لحوت السلّة سالياً، وأبد لدقيق الحوارى زهد الحواري... وسر في اجتناب الحلو [الحلوى] على سبيل السوا، وارفض في الشوا دواعي الأهوا، وكن على الهرّاس، وصاحب فريد الراس شديد المراس، وثب على بائع طبيخ الأعراس، ليثاً مرغوب الافتراس...»[٨٢]، والنص يدل على الأطعمة الآتية:

١ - الحوت: ولاشك أنه كان من عادة الأندلسيين بيعه في السلال القصبية أو الخشبية.

٢ - الحوارى: لفظة مشرقية تقابلها اللفظة الأندلسية «درمك» وهو خبز مصنوع من أجود أنواع الدقيق.

٣ - الحلو: ولعله يعني به أنواع الحلوى التي كانوا يصنعونها، وتغلب عليها الحلاوة إما بغمسها في العسل أو ذر السكر المسحوق عليها.

٤ - الشوا: أو الشواء وهو معروف وكثير التداول في المغرب إلى الآن، يباع في الأسواق، بل إن هناك أسواقاً مخصوصة لذلك، كما يقدم في كثير من الولائم والأعراس والمناسبات المختلفة.

٥ - الهريسة: وتصنع من البُر، وسميت كذلك لأن البُرّ الذي تصنع منه يدق ثم يطبخ، ويسمى صانعها هراساً، وربما كان الهراس مواد أخرى للطهو.[٨٣]

٦ - طبيخ الأعراس: ولسنا ندري إن كان هذا المركب الإضافي اصطلاحاً يطلق على نوع من المأكولات أم هو فعلاً طبيخ يعد لولائم الأعراس خاصة.

(٨٢) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ١٩٧ - ١٩٨.

(٨٣) - انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة «هرس»، ج٦، ٤٦٥١.

والنص فضلاً عن هذا دل على أن السوق في الأندلس لم يكن يقتصر على بيع المواد الغذائية وحسب، وإنما كان أيضاً يحتوي على مطاعم شعبية يطعم فيها الناس، وكذلك يباع فيه الطعام معداً، ربما اشتراه المقيمون من الأهالي.

المطلب الثالث: العادات والتقاليد:

مما لا شك فيه أنه كانت لأهل غرناطة عادات وتقاليد خاصة بهم يعرفون بها إلى جانب عادات أخرى قد يشتركون فيها مع كثير من المجتمعات الإسلامية آنذاك، ولعل أبرز عادة تميز بها أهل غرناطة حتى عدت في رأي ابن الخطيب من العادات المتميزة المتفردة، ربما لذيوعها وانتشارها وسط شريحة اجتماعية واسعة، ما أشار إليه في هذا الوصف، يقول: «وعادة أهل المدينة الانتقال إلى حلل العصير أوان إدراكه»(٨٤).

وحلل العصير هنا تعني مواضع «معاصر» الزيتون، هذه الشجرة المباركة التي لا نشك أنها كانت من أوفر الأشجار المثمرة المغروسة حينئذ في بلاد الأندلس كما تدل القرائن التاريخية والمعطيات الاقتصادية المعاصرة.

ولقد كان الانتقال تعبئة شاملة، سواء على مستوى الأسرة الواحدة، كوحدة اجتماعية جزئية، أو على مستوى المجتمع قاطبة، من حيث الكثرة كمجموع وحدات متعددة، تحشر له جميع الأدوات والوسائل الممكنة وتجمع له الأيدي العاملة المتمرنة يستشف هذا من تتمة النص المقتبس آنفاً: «.. بما تشتمل عليه دورهم، والبروز إلى الفحوص [المروج] بأولادهم»(٨٥).

والتعبئة بهذه الصورة المبينة توحي بطول المدة المستغرقة، لتشمل موسم الزيتون برمته، جنياً وقطفاً، وعصراً وهصراً، ثم أخيراً جمعاً وارتحالاً، ولعل المدة كانت أزيد من شهر.

كما يوحي النص بكثرة المتعاطين لهذا النوع من الفلاحة والصناعة، بما يجعل

(٨٤) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٣٨.
(٨٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٣٨.

الثمن زهيداً، والقيمة رخيصة، وبما يوحي أيضاً بكثرة الأرحاء الطاحنة التي تعتمد تقنيات عالية تشهد بالعبقرية والخبرة.

ومن العادات والتقاليد الغرناطية، التي هي أقرب إلى الأخلاق، طاعة أولي الأمر من الأمراء والسلاطين قال ابن الخطيب: «وطاعتهم للأمراء محكمة»(٨٦) ولعل هذا راجع إلى عوامل الوحدة التي كانت تؤلف صفوفهم وتنبذ فُرقتهم الذاهبة بريحهم، وقد أشار ابن الخطيب إلى بعض منها، مثل صلاح القائد، ووحدة المذهب واستقامة النحل(٨٧).

ويضاف إلى هذا عامل آخر، لا يقل أهمية عن الذي ذكره، ويتعلق بالجانب السياسي، فقد أصبحت مملكة غرناطة في موقع سياسي لا تحسد عليه، ولم تعد دولة قوية مترامية الأطراف كما كانت، فقد سقطت معظم قواعدها في أيدي العدو النصراني، كما أصبحت دويلة محاصرة بالنصارى من جميع الجهات، والجهة الوحيدة التي تصلها ببلدان الغرب الإسلامي تفصل بينها وبينهم لجنة البحر، وهذا الوضع يدعو إلى الوحدة والتماسك، فضلاً عن ذكريات التشرذم الطائفي المخزي الذي حدث في عصر ملوك الطوائف، والتي لا شك تكون قد عمقت لديهم الشعور بالتكاتف والتآلف.

وهناك خلق غرناطي آخر تميز أهل غرناطة به، قد ألم به ابن الخطيب، ندرجه هو الآخر ضمن العادات والتقاليد، ساعدت على بلورته وتعميقه في تقديرنا الظروف السياسية التي ألمعنا إليها أيضاً، ويتمثل في التحمل الضرائبي والجبائي دون شكوى أو ضجر، إذ مما لا شك فيه أن تكاليفه كانت مضنية لقلة الموارد، بسبب النفقات العسكرية الجهادية التي ما فتئت الإيالة النصرية قائمة عليها لتوكيد ذاتها، وضمان استمرارها، وإرهاب عدوها، يقول ابن الخطيب: «وأخلاقهم في احتمال المعاون الجبائية جميلة»(٨٨).

(٨٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٣٤.
(٨٧) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٣٤.
(٨٨) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٣٤.

المطلب الرابع: أنواع الاحتفالات:

النوع الأول: الاحتفال بالموكب السلطاني:

ومن العادات الرسمية الجارية الاحتفال بانتقالات الموكب السلطاني حين خروجه إلى بعض المناطق زائراً ومتفقداً، دل على هذا ما جاء في ترجمة خالد بن عيسى بن إبراهيم البلوي وكان معاصراً لابن الخطيب يقول: «وجرى ذكره في الرحلة التي صدرت عني [خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف] في صحبة الركاب السلطاني عند تفقد البلاد الشرقية [شرق الأندلس]... تتلقى ركابنا الأفواج، وتحيينا الهضاب والفجاج إلى قنتورية[٨٩]، فناهيك من مرحلة قصيرة كأيام الوصال، قريبة البكر من الآصال، كان المبيت بإزاء قلعتها السامية الارتفاع، الشهيرة الامتناع، وقد برز أهلها في العديد والعدة، والاحتفال الذي قدم به العهد، على طول المدة صفوفاً بتلك البقعة، خيلاً ورجلاً كشطرنج الرقعة، لم يتخلف ولد عن والد...»[٩٠].

هذا بالإضافة إلى الحفلات والمسرات التي تبعث عليها الأعياد الدينية المختلفة والولائم الدنيوية كالعقيقة والختان وختم حفظ القرآن بالنسبة إلى الولائد والولدان، التي وصفهم فيها ابن الخطيب بالاقتصاد والتوسط وعدم البذخ قال: «وأعيادهم حسنة، مائلة إلى الاقتصاد»[٩١].

النوع الثاني: الاحتفال بالمولد النبوي:

ومن العادات الرسمية أيضاً، الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف، فإضاءة الشموع، وإحياء الليالي، بالذكر في المساجد، والمباني السلطانية، وقراءة المديح، حيث يسهم الشعراء بالقصائد الغراء.

(٨٩) - قنتورية = Cantoria بلدة تقع جنوب «برشانة» Purchana على نهر المنصورة، وصفها ابن الخطيب بقوله: "... يجود بها الجبن والعسل، ومن دونها الأسل، وأما عن الخبز فلا تسل، وإن كانت أحسن شكلاً، فأقل شرباً وأكلاً، وأجفى أهلاً، وأشد جهلاً، وأعدم علاً ونهلاً، وأهلها شرار..." معيار الاختيار ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٩٠) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٥٠٠ - ٥٠١، وانظر تفاصيل الرحلة في: مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله)، أحمد مختار العبادي، ط: ١٩٨٣، ص: ٢٥ - ٥٣.

(٩١) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٣٧.

وظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي لم تكن مقصورة على الأندلس وكفى وإنما كانت تشاركها في ذلك سائر بلاد الغرب الإسلامي، ويذكر المقري أن هذه العادة ترجع إلي العزفي وهو من حكام سبتة، يقول: «وقد تقدم أن العزفي صاحب سبتة هو الذي سنّ ذلك في بلاد المغرب، وأتى بزلفى تدنيه إلى الله وتقرب، واقتفى الناس سننه، وتقلدوا مننه، تعظيماً للجناب الذي وجب له السمو والعلو، على أن بعضهم قد خرج في ذلك الى حد الإسراف والغلو، وكلّ يعمل على شاكلته»[٩٢].

ولقد وجدنا إشارات كثيرة، نبه فيها ابن الخطيب على هذه الاحتفالات، وخاصة حينما يذكر شعر شاعر من الشعراء الذين يترجم لهم.

ولعل أطرف ما يمكن الرجوع إليه في هذا الباب، دقة في الوصف، واستيعاباً في العرض، ما جاء في الجزء الثالث من كتاب «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب» في الفصل التاسع.

النوع الثالث: احتفالات الأعراس:

والذي كشف لنا عن بعض المظاهر الأندلسية في الأزفة والأعراس نص رسالة مسجعة أوردها ابن الخطيب في الإحاطة، كان قد بعث بها إلى صديقه ابن خلدون بمناسبة تسريه بجارية رومية تدعى هند، وقد قدم على سلطان الأندلس محمد الغني بالله في دولته الثانية، وكانت سلفت له يد لهذا السلطان حينما كان لاجئاً بالمغرب، وكان ابن خلدون ساعتها كاتباً للعلامة في الدولة المرينية.

والرسالة كلها سخرية ودعابة، هتكت من خلال بعض عباراتها ستر الحياء، لكنها مقبولة من الأدباء، وخاصة من مثل ابن الخطيب، وربما شفع لها أيضاً ما انطوت عليه من حقائق اجتماعية واقتصادية وثقافية.

ولما كان نص الرسالة طويلاً، سأذكر بعض ما جاء فيه على شكل نقاط رئيسة وهي:

(٩٢) - المقري، أزهار الرياض، ج١، ٢٤٣.

١ - كان من عادة أهل الأندلس أن تذهب النساء بالعروس إلى الحمام قصد التنظيف والتطرية، قال ابن الخطيب: «. . . وقد أقبل ظبي الكناس من الديماس، ومطوق الحمام من الحمّام، وقد حسنت الوجه الجميل التطرية، وأُزيلت عن الفرع الأثيث الأبرية، وصقلت الخدود، فهي كأنها الامرية، وسلط الدلك على الجلود، وأُغْرِيَت النَّوْرَةُ بالشعر المولود، وعادت الأعضاء يزل عنها اللمس، ولا تنالها البنَان اَلخمس، والسحنة يجول في صفحتها الفضية ماء النعيم، والمسواك يلبي من ثنية التنعيم. . .»[٩٣].

٢ - وكان من العادة أيضاً استقبال العروس بأنواع الطيب، يتجاوب حولها المزهر والدف، وما إلى ذلك، يقول ابن الخطيب: «وأقبلت الغادة يهديها اليمن وتزفها السعادة، فهي تمشي على استحياء، وقد ذلع طيب الريا، وراق حسن المحيا، حتى إذا نزع الخف، وقُبلّت الأكف، وصاح المزهر وتجاوب الدف، وذاع الأرج، وارتفع الحرج. . .»[٩٤].

٣ - وكان من العادات أيضاً أن يخرج العروس قميصاً عليه أثر دم افتضاض غشاء البكارة، دليلاً على الفحولة من جهة، والشرف من جهة ثانية، يقول ابن الخطيب: «. . . وإن كانت الأخرى [عدم التمكن من الافتضاض] فأخف الكمد، وارض الثمد، وانتظر الأمد، وأكذب التوسم، واستعمل التبسم، واستكتم النسوة، وأفض فيهن الرشوة، أو تقلد المغالطة وارتكب، وجئ على قميصك بدم كذب، واستنجد الرحمان، واستعن على أمرك بالكتمان. . .»[٩٥].

إلى غير ذلك من المظاهر، التي مازال الكثير منها سائداً في المغرب إلى الآن.

النوع الرابع: الاحتفال للإعذار:

(٩٣) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٥٠١.
(٩٤) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٥٠١ - ٥٠٢.
(٩٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٥٠٦.

ويعني وليمة الختان وقد عثرنا على نص في الإحاطة يكشف عن حفاوة هذا الحفل وضخامة أبهته، وسعة موسمه، يقول ابن الخطيب متحدثاً عن نفسه وهو يعرض مناسبات أغراضه الشعرية في هذه الدولة النصرية: «وقولي في امتداح السلطان لما احتفل لإعذار ولده، واستركب الفرسان المزاملة الهدف الخشبي المتخذة في الجو المسمى بالطبلة، وأرسى إلى جوارح الأكلب الضخام المجتلبة من أرض آلان، خلف فحول البقر الطاغية الشرس، تمسكها من آذانها وأذنابها حتى تتمكن منها الرجال، وغير ذلك من أوضاع الإعذار وجزئياته»[٩٦]، والنص فضلاً عن إشارته الى الاحتفال بالإعذار يلمح إلى بعض مظاهر هذا الاحتفال وهي:

١ - استركاب الفرسان، ولاشك أن ذلك يكون في ساحة مخصوصة للهو واللعب.

٢ - حضور الموكب السلطاني ورجال الدولة.

٣ - اتخاذ هدف خشبي مرتفع ربما استهدفه الفرسان بالرماية.

٤ - إطلاق فحول البقر وإرسال الكلاب المجلوبة للتصارع معها.

٥ - رصد رجال مخصوصين للتمكن من الفحول بعد تمكن التعب منها.

ولعل من العادات التي كانت سائدة في مملكة غرناطة الخروج إلى ميادين اللهو واللعب في المناسبات والأعياد لشهود مصارعة الحيوان بحضور السلطان كما يستشف من بعض النصوص يقول في معرض وصفه لممر نهر «شنيل» وما يعرج عليه من منشآت وبنايات: «... في نهاية الإبداع والإحكام يتصل به [النهر] بناء قديم محكم، ويستقبل الملعب العيدي، ما بين ذُنابي الجسر إلى جدار الرابطة، وملعب بديع الشكل...»[٩٧].

والنص كما هو واضح لمن تأمله غني بالدلالات طافح بالظلال والإيحاءات.

(٩٦) - ابن الخطيب، الإحاطة ج٤، ص ٤٧٩.

(٩٧) - ابن الخطيب، الإحاطة ج١، ص ١١٨ - ١١٩.

المطلب الخامس: مظاهر اللهو والمرح:

المظهر الأول: الموسيقى والغناء:

من المظاهر الاجتماعية الغرناطية التي أشار إليها ابن الخطيب أيضاً فشو ظاهرة الغناء في الشوارع والدكاكين قال: «والغناء فاش حتى في الدكاكين التي تجمع صنائعها كثيراً من الأحداث كالخفافين ومثلهم»(٩٨).

ولقد دلّ نص آخر ورد في ثنايا ترجمة محمد بن عبدالله بن محمد بن لب الأمي (ت: ٧٠٥ هـ) ربما على تعاطي بعض الأندلسيين للغناء احترافاً لسعة جمهوره، يقول ابن الخطيب: «رجل يجري من الألحان على مضمار لطيف، ولم يكن له صوت رخيم يساوق انطباعه في التلحين، يخبر ذلك بالأوتار، وحاول من ذلك بيده مع أصحابه مالاذ به الظرفاء منهم...»(٩٩)، والنص لا يخفي نقد ابن الخطيب الموسيقي، وهو الذي صنف في الموسيقى تصنيفاً.

كما جاءت إشارات أخرى إلى انتشار أداة موسيقية معروفة تدعى «الشبّابة» وهي ضرب من ضروب الناي، وقد ذكر في نصوص تعلقت بأحوال الصوفية أثناء أذكارهم وأمداحهم ووجدهم، وكان هذا الأمر لا يعجب كثيراً من العلماء الذين أفتوا بتحريمه، فقد ذر ابن الخطيب في ترجمة غالب بن حسن بن غالب الخزاعي (٦٥٣ هـ - ٧٣٣ هـ) قوله: «له تأليف في تحريم سماع اليراعة المسماة بالشبابة، وعلى ذلك درج جمهوره»(١٠٠)، والرجل المذكور من أصل إفريقي استوطن جده الأندلس، ويفهم من تعليق ابن الخطيب الأخير أنه ربما كان أمراً مستهجناً عن التونسيين بخلاف الأمر عند الأندلسيين، خاصة إذا علمنا أنها كانت ظاهرة متفشية في الولائم والأعراس بل حتى في احتفالات المولد النبوي بحضور السلاطين والأمراء والصوفية وكبار رجال الدولة.

كما كشف أحد النصوص عن ظاهرة اتخاذ القينات للطرب والغناء مختلطات

(٩٨) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٣٧.
(٩٩) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٤٣٣.
(١٠٠) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٢٤٠.

بالرجال في الولائم والحفلات والأفراح المختلفة، قال ابن الخطيب في معرض الحديث عن مناقب السلطان إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف الذي: «حظر تجلي القينات للرجال في الولائم، وقصر طربهن على أجناسهن من الناس...»[١٠١].

المظهر الثاني: الصيد:

وكان يهتم به الأمراء والفرسان من رجال الدولة على وجه الخصوص إمعاناً في الفروسية وقدح زناد الشجاعة، ولقد أعثرنا البحث على نص طريف في حق أحد الأمراء النصريين وهو الأمير فرج محمد بن محمد بن يوسف بن نصر (٦٨٦ هـ - ٧٠٢ هـ)، قال ابن الخطيب يصف جولة من جولات صيده: «... وكان زناتي الشكل والركض والآلة، عروس الميدان، وحلس الخيل، يؤثر من شجاعته وثبات موقفه على الغرارة وعدم الحنكة أنه أنشب في اتباع خنزير ضخم الكراديس، عظيم الناب، عريض الغبطة، طرح نفسه عليه في ضحضاح، بفضل شجاعة فكبا به الطرف، واستقبل ذلك الخنزير الفحل صامداً، فاستقل زعموا من السقطة، وقد اخترط سيفاً عضباً كان يتقلده، وسبقه بضربة تحت عينيه أبانت فكيه، وأطاحت محل سلاحه، وخالطه مع ذلك أعزل، فلم يغن وتلاحق به فرسانه، وقد يئسوا من خلاصه، فرأوا ما بهتوا له...»[١٠٢].

المظهر الثالث: الرياضة والتجند:

ولقد كانت هناك هوايات أخرى منتشرة في المجتمع الأندلسي أخذ الناس من حظوظها كل حسب رغبته وميوله، كما يفهم من إشارات وردت في ترجمة محمد بن أحمد بن قطبة الدوسي، يقول ابن الخطيب: «ومناقبه يقصر عنها الكثير من أبناء جنسه كالفروسية والتجند والبسالة [الثقافة] والرماية والسباحة والشطرنج»[١٠٣].

المظهر الرابع: النزهة:

(١٠١) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٣٨٨.
(١٠٢) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ٢٤٦ - ٢٤٧.
(١٠٣) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٢٥٠.

ومن العادات التي كانت منتشرة أيضاً كما هو مفهوم من بعض النصوص والإشارات، ارتياد المواضع الطبيعية الغناء، للنزهة والراحة والاستجمام، ترويحاً عن النفس، وتربية للذوق، يستشف هذا من قوله وهو يتحدث عن البساتين والحدائق، ونهر المدينة غرناطة: «ولأهل الحضرة بهذه الجنات كلف، ولذوي البطالة فوق نهره أريك من دمث الرمل، وحجال من ملتف الدوح»(١٠٤).

خلاصة:

وفي هذه المظاهر الاجتماعية الحضارية ما يؤكد خفة الروح، وحضور الدعابة، وسرعة النكتة، التي عرف بها أهل الأندلس، وتميزوا بها بفعل المكونات الثقافية الموصوفة بالخصوصية، وكذلك عتق النسب في الحضارة والتمدن.

وقد تجلى ذلك واضحاً في مرآة أدبهم، من خلال المجالس والأندية، أثناء منادمة الأمراء والسلاطين، أو مسامرة الوزراء والأعيان، أو مذاكرة العلماء والخلان.

المطلب السادس: الحياة الدينية:

لم يغفل ابن الخطيب وهو يلم بالمظاهر الاجتماعية العامة في وطنه، أن يشير إلى الحياة الدينية.

ولقد تقرر ذلك بصيغتين مختلفتين، صيغة صريحة، ولكنها مقتبضة، وغير كافية، وصيغة ضمنية ولكنها كافية لإعطاء صورة واضحة نوعاً ما، ونعني بالصيغة الصريحة ما جاء في مقدمة كتاب «الإحاطة» يقول ابن الخطيب: «أحوال هذا القطر في الدين وصلاح العقائد أحوال سنية، والنحل فيهم معروفة، فمذاهبهم على مذهب مالك بن أنس إمام دار الهجرة جارية»(١٠٥).

لقد استطاع هذا النص أن يرسم لنا صورة عن الأحوال الدينية عامة، أما درجتها على وجه التفصيل فيجب التماسها من خلال متابعة واستقراء كل التراجم الواردة

(١٠٤) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١١٧.
(١٠٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٣٤.

في كتاب «الإحاطة»، وهذا ما أسميناه بالصيغة الضمنية ولا أدل على ذلك من هذا العنوان: «الزهاد والصلحاء والصوفية والفقراء» الذي اختاره ابن الخطيب اسماً لأحد أقسام تراجم «الإحاطة» وما أدرج تحته من أعيان وصف حالهم، وأماط اللثام عن أشخاصهم حينما حلاَّهم، فضلاً عن تراجم العلماء والفقهاء وغيرهم بما صدّق، حقاً ما أجمله ابن الخطيب في عبارته البليغة الموجزة وهو الفارس في هذا الشأن بما أوتي من تملك لناصية البيان.

ولقد لاحظنا من خلال تراجم أعلام أهل هذه المملكة كثرة المنتمين إلى الطرق الصوفية، بما دل على تناميها في هذه المرحلة من التاريخ، كما دل علي أن الأمر لم يكن مقصوراً على الأندلس وحدها، وإنما شاركها أيضاً أقطار بلاد المغرب لوحدة التاريخ والمصير. ويستشف من خلال نصوص ابن الخطيب وصياغاته أن الحركة الصوفية كانت تحظى باحترام كبير من جهة المسؤولين، كما كان لها تأثير جماهيري كبير.

ولقد أطلق عليهم ابن الخطيب مصطلحات متنوعة، دل كل مصطلح على جانب من جوانب أحوالهم مثل «الصوفية» وهو مصطلح عام وقديم، وربما اشترك فيه المشارقة والمغاربة ومصطلح «الفقراء» وهو مصطلح خاص نوعاً ما قد يكون له علاقة بحال التقلل والفقر التي يحرص عليها أهل الطريقة وقد يكون له صلة بمعنى الافتقار إلى الله وهي قيمة إيمانية وفلسفية عميقة في علم السلوك الإسلامي خاصة إذا ترجمت إلى حال وعمل، ومصطلح «السفّارة» الذي يعني من خلال السياقات كثرة السفر والطواف، ولعله مصطلح أندلسي مغربي خاص لما عرف عنهم من كثرة الانتقال وإعمال الرحلة داخل القطر وخارجه بما في ذلك بلاد المشرق.

ومن النصوص التي دلّت على كثرة المنخرطين في سلك الطريقة ما جاء في ترجمة محمد بن إبراهيم بن محمد بن محمد الأنصاري المعروف بالصنّاع (ت: ٧٤٩هـ)، يقول ابن الخطيب: «الشيخ الصوفي الكثير الأتباع، الفذ الطريقة، المحبب إلى أهل الثغور من البادية... حسن السمت كثير الذكر والمداومة، يقود من المخشوشنين عدد ربيعة ومضر، يعمل الرحلة إلى حصونهم، فيتألفون عليه

تألف النحل على أمرائها ويعاسيبها معلنين بالذكر، مهرولين، يغشون مثواه، بأقواتهم على حالها، ويتناغون في التماس القرب منهم، ويباشرون العمل في فلاحة كانت له بما يعود عليه بوفر وإعانة. . . ويتكلم في طريق المتصوفة على مذهب أبي عبدالله الساحلي شيخه»[١٠٦].

وقال في علي بن أحمد بن محمد بن عثمان الأشعري المعروف بابن المحروق (ولد سنة ٧٠٩ هـ): «هذا الرجل شيخ الفقراء السفّارة والمتسببة بالرباط المنسوب إلى جده، وهو مقيم الرسم حاج رحال عارف بالبلاد، طوّاف على كثير من مشاهير ما عرف الاصطلاح، وزار ترب الصالحين وصحب السّفارة. . . غيور على الطريقة»[١٠٧].

ومما دلّ على هيبة القوم وتعصب الناس لهم ما ذكر عن ابن المحروق المذكور حينما ابتلي بمحنة السلطان ولم يستنقذه إلا تمسك الناس به، يقول ابن الخطيب: «قبض عليه المتغلب على الدولة، وأزعجه بعد الثقاف في المطبق إلى مرسى أمرية، اتهاماً بمالأة السلطان، فامتعض له من أهل مدينة وادي آش، وتبعهم المشيخة على المجاهرة، فاستنقدوه، وكاشفوا المتغلب إذ كانوا على أرقاع الخلاف عليه، وعاجل الأمر تصير الملك لصاحبه، فعاد الشيخ إلى حاله. . .»[١٠٨].

كما كانت وفود وفاة شيوخ الطريقة مصيبة كبيرة وزلزالاً عنيفاً لا يمر بصورة عادية، وإنما كانت مظاهر التبجيل والتقديس تشيعه بما لا نظير له، قال ابن الخطيب يصف جنازة محمد بن إبراهيم بن محمد الأنصاري المذكور: «وكانت جنازته آخذة في الاحتفال، قدم لها العهد ونثر لها الناس من كلّ أوب، وجيء بسريره تلوح عليه العناية، وتحفة الأتباع المقتاتون من حل أموالهم وأيديهم من شيوخ البادية، فتولوا مواراته، تعلو الأصوات حوله ببعض أذكاره»[١٠٩].

(١٠٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.
(١٠٧) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٢٠١.
(١٠٨) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٢٠٢.
(١٠٩) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٢٣٠.

كما وصف جنازة محمد بن أحمد بن عبدالرحمن بن إبراهيم الأنصاري المعروف بالساحلي (ت: ٧٣٥ هـ): «وكانت جنازته مشهودة، تزاحم الناس على نعشه، وتناولوه تمزيقاً، على عادة عادتهم في ارتكاب القحة الباردة في مسلاخ حسن الظن»(١١٠).

ولعل أوسع نص وأدقّه عرض لأحوال بعض الطرق الصوفية في سمتهم وطريقتهم وترتيب أذكارهم، وحال وجدانهم، وطرافة طقوسهم، وسعة قلوبهم، وذيوع صيتهم، ما نذكره في هذا النص وإن كان طويلاً لأنه محكم البناء، ملتحم الحلقات، فلم نرض أن نجزئه، يقول ابن الخطيب في ثنايا ترجمة جعفر بن أحمد بن علي الخزاعي (٧٠٩ هـ - ٧٦٥ هـ): «. . . ويعسوب الطاغية والرغية من أهل ربض البيازين. . . خرج قومه من وطنه عند تغلب العدو على الشرق، فنزلوا ربض البيازين، جوفي المدينة، وارتاشوا وتلثموا، وبنوا المسجد العتيق، وأقاموا رسم الإرادة، يرون أنهم تمسكوا من طريق الشيخ أبي أحمد بآثاره، فلا يغبّون بيته، ولا يقطعون اجتماعاً على حالهم المعروفة من تلاوة حسنة، وإيثار ركعات، ثم ذكر ثم ترجيع أبيات في طريق التصوف، مما ينسب للحسين بن منصور الحلاج وأمثاله، يعرفونها منهم مشيخة قوّالون هم فحول الأجمة وضرائك تلك القطيعة، يهيّجون بلابلهم، فلا ينشبون أن يحمي وطيسهم، ويخلط مريعهم بالهمل، فيرقصون رقصاً غير مساوق للإيقاع الموزون دون العجال الغالبة منهم، بإفراد كلمات من بعض المقول، ويكرّ بعضهم على بعض، وقد خلعوا خشن ثيابهم، ومرقوعات قباطيهم، ودرانيكهم، فيدوم حالهم حتى يتصببوا عرقاً، وقوالهم يحركون فتورهم، ويزمرون روحهم، يخرجون بهم من قول إلى آخر، ويصلون الشيء بمثله، فربما أخذت نوبة رقصهم بطرفي الليل التمام، ولاتزال المشيعة لهم يدعونهم ويحاجونهم إلى منازلهم، وربما استدعاهم السلطان إلى قصره محمضاً في لطائف نعيمه باخشيشانهم، مبدياً التبرك بألويتهم، ولهم في الشيخ أبي أحمد والد

(١١٠) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٢٤١.

نحلتهم، وشحنة قلوبهم، عصبية لهم وتقليد بإيثاره، أنفجت لعقده أيمانهم، وشرط في صحة دينهم، وارتكبوا في النفور عن سماع المزمار القصبي المسمى الشبّابة الذي أرخص في حضور الولائم، مع نفخ برعه العدد الكثير من المجلّة الصلحاء القدوة مرتكباً، حتى ألحقوا بالكبائر الموبقة، وعدوا اجتنابه جبلّة وكراهة طباعية، فتزوى عند ذكره الوجوه، وتقتحم عند الاتهام به الدور، وتسقط فيما بينهم بفلتة سماعه أخوة الطريق، وهم أهل سذاجة وسلامة، أولو اقتصاد في ملبس وطعمة، واقتيات بأدنى بلغة، ولهم في التعصب نزعة خارجية، وأعظمهم ما بين مكتسب متسبب، وبين معالج مدرة، ومريع حياكة، وبين أظهرهم من الذعرة والصعاليك كثير . . . »[١١١].

والنص ينطق بالمعاني الآتية :

١ - كثرة أتباع هذه الطريقة.

٢ - انتماؤها إلى شرق الأندلس من الناحية الجغرافية هاجرت إلى غرناطة بعد استيلاء العدو على قواعده، وإلى الشيخ أبي أحمد الساحلي من حيث الطريقة.

٣ - اتخاذ المقر ببناء المسجد وإقامة إدارة الإرادة يرتاده المريدون لإقامة رسم الطريقة، والارتقاء في أحوال التربية، باعتماد الذكر، وإقامة الصلوات.

٤ - الترجيع بالشعر الصوفي، والترنيم بما ينسب للحلاج وأمثاله من شعر، يتولى ذلك رجال حسنت أصواتهم اصطلح على تسميتهم بـ: «القوالين»، يهيجون الملأ وفق إيقاع مخصوص.

٥ - قد يدوم الذكر ويطول الوجد الليل كله.

٦ - تقدير عامة الناس لهم، ودعوتهم إلى منازلهم ودورهم، كذلك السلطان قد يطلبهم إلى قصره في المناسبات المختلفة تبركاً بهم.

(١١١) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

٧ - لا تعتمد هذه الطريقة «الشبابة» أداة في ألحانهم، وآلة في غنائهم، وتراها محرمة، قد تقتحم البيوت لأجلها أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، ويقصى المريد بسببها.

٨ - أن هناك من الطرق ما كان يرخص لاستعمال هذه الآلة، قياساً على جوازها في الولائم والحفلات، كما ثبت في النص الذي وصف الاحتفال بالمولد النبوي على عهد الدولة الثانية للسلطان محمد الغني بالله، وسنثبته في الملاحق.

٩ - أن أصحابها أولو اقتصاد في المأكل والملبس، متعصبون على طريقة الخوارج.

١٠ - أنهم يعتمدون على أنفسهم في الكسب والمعاش في فلاحة وتجارة.

١١ - أن الطريقة تضم الكثير من الصعاليك والمعدمين.

ومن مظاهر الإصلاح الديني على عهد السلطان محمد الغني بالله، رأباً للصدع، وجمعاً للكلمة، وتوحيداً للصف، ودفعاً للانحراف والزيغ، وإصلاحاً لمظاهر الفساد، ما أشار إليه الخطيب، منوهاً بمناقب الدولة، على عهده، يقول: «ومن الغيرة على الدين، وتغير أحوال الملحدين، من مآزق جهاد النفس، ما وقع به العمل من إخماد البدع، وإذهاب الآراء المضلة، والاشتداد على أهل الزيغ والزندقة، وقد أضاقت أرباب هذه الأضاليل الشريعة، وسدت مضرهم في الكافة، فيسلط عليهم الحكام، واستدعيت الشهادات، وأخذهم التشريد، فهل تُحس منهم أحداً، أو تسمع لهم ركزاً»(١١٢).

ولقد كان لأهل التصوف مكانة مرموقة، وهيبة محفوظة، واحترام مراعىً، حتى لدى القومس الأعظم برومة وعلماء النصارى في ذلك الصقع، دل على هذا ما جاء في ترجمة عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين المرسي (ت: ٦٦٩هـ)، قال ابن الخطيب: «وحدثني شيخنا أبو البركات، قال: حدثني أشياخنا من أهل الشرق [شرق الأندلس]، أن الأمير أبا عبدالله بن هود، سالَمَ طاغية النصارى فنكث عهده، ولم يف بشرطه، فاضطره ذلك إلى مخاطبته إلى القومس الأعظم

(١١٢) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٦٥.

برومة، فوكل أبا طالب بن سبعين، أخا أبي حامد المتكلم عنه، والاستظهار بالقعود بين يديه، قال: فلما بلغ باب ذلك الشخص المذكور برومة، وهو بلد لا تصل إليه المسلمون، ونظر إلى ما بيده، وسئل عن نفسه، كلم ذلك القس من دنا منه محلُّه من علمائهم بكلام، ترجم لأبي طالب بما معناه «اعلموا أن أخا هذا ليس للمسلمين اليوم أعلم بالله منه»(١١٣).

ولا أدل على تنامي الروح الصوفية، والردة إلى الدين، من نزعات ابن الخطيب الصوفية نفسه التي نلمحها في أحواله ومواقفه وكتاباته، وخاصة عقب محنته الأولى التي لم ينجه منها إلا أجله، حتى إنه ألف في التصوف كتابه الطريف العظيم الفائدة «روضة التعريف بالحب الشريف» معارضة لكتاب في الحب والعشاق ورد من مصر لابن أبي حجلة عنوانه «ديوان الصبابة» فعارضه بما هو أشرف من ذلك يقول مفصحاً عن غرضه: «وعنَّ لي أن أذهب بهذا الحب المذهب المتأدي إلى البقاء، الموصل إلى ذروة السعادة، في معارج الارتقاء، الذي غايته نعيم لا ينقضي أمده، ولا ينفد مدده، ولا يفصل وصله، ولا يفارق الفرع أصله، حب الله المبلغ إلى قربه، المستدعي لرضاه وحبه المُؤثَر بالنظر إلى وجهه...»(١١٤).

المقصد الثاني: الإحاطة والتأريخ للحياة الاقتصادية:

مقدمة:

ونقصد بالتاريخ الاقتصادي تناوله ما كانت تقوم عليه حياة الناس في تدبير معاشهم، وتحسين أحوالهم، إذ عادة ما يتناول في دراسة الحياة الاقتصادية في أي مجتمع من المجتمعات، النشاط الفلاحي، والنشاط الصناعي، والنشاط التجاري.

وقد ألم ابن الخطيب في «إحاطته» بهذه الأنشطة على اختلافها وإن كان التوسع في بعض منها غالباً ما يكون على حساب بعض آخر.

(١١٣) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٣٤ - ٣٥.
(١١٤) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٩٧ - ٩٨.

المطلب الأول: النشاط الاقتصادي ومقوماته:

ليس من اليسير على الناظر في الكتابة الاقتصادية الخطيبية التي وردت في الإحاطة، فصل النصوص التي تحدثت عن النشاط الفلاحي البحت من جهة، عن تلك التي تحدثت عن النشاط التجاري من جهة ثانية، عن الأخرى التي تحدثت عن النشاط الصناعي من جهة ثالثة، وأيضاً عن تلك التي تحدثت عن المقومات المادية، والشروط الموضوعية التي يقوم عليها النشاط الاقتصادي برمته من انفساح أرض وخصوبة تربة، وتنوع غلات، ووفرة ماء وصحة هواء، وما إلى ذلك، لأن ذلك في تقدير ابن الخطيب - وإن لم يصرح - أقوى بيان، وأوضح دليل يعكس الحياة الاقتصادية، ويغني عن التفصيل الذي يأنفه الإيجاز، وتضيق به الهمة، ويستحيل معه الاستقصاء.

ولكي نتمكن من استيعاب المعلومات والفوائد المتعلقة بالمظاهر الاقتصادية لمملكة غرناطة، لابد من اتباع طريقة تجزيئية نحلل من خلالها مفردات النشاط الاقتصادي ومقوماته المختلفة، ثم إذا انتهينا من ذلك جئنا بخلاصة نجمع فيها القول، ونستخلص منها العبرة.

المطلب الثاني: جودة الأرض وانفساحها:

من النصوص المهمة التي تؤكد جودة الأرض وغناها بصفة عامة ما نجده في أوليات حديثه عن هذا الموضوع مثل قوله: «ومن كرم أرضنا أنها لا تعدم زريعة بعد زريعة، ورعياً بعد رعي»[١١٥]، فهي دائمة العطاء والإنتاج، في تنوع وتباين، متاعاً للناس والأنعام».

وتحدث تحت هذا العنوان: «فصل فيما اشتمل عليه خارج المدينة من القرى والجنات والجهات» عن الأراضي الغنّاء، والبساتين الفيحاء، المحيطة بسور المدينة حوط السوار يقول ابن الخطيب في تصوير بديع وجميل كأننا في مشاهدة حية: «ويحف بسور هذه المدينة المعصومة بدفاع الله، البساتين العريضة المستخلصة،

(١١٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٩٨.

والأدواح الملتفة، فيصير سورها من خلف ذلك كأنه من دون سياج كثيفة، تلوح نجوم الشرفات أثناء خضرائه»[١١٦].

كما عدد وسمى بعد ذلك الحدائق والجنات معلقاً على ذلك بقوله: «كلها لا نظير لها في الحسن والدمانة [الخصوبة] والربيع، وطيب التربة، وغدق السقيا، والتفاف الأشجار، واستجادة الأجناس، إلى ما يجاورها ويتخللها مما يختص بالأحباس الموقفة، والجنات المتملكة، وما يتصل بوادي سنجيل ما يقيد الطرف، ويعجز الوصف»[١١٧].

هذا فيما يتعلق بالبسائط والمنخفضات. أما ما يرجع إلى الجبال والمرتفعات، فلم يستثن ابن الخطيب الحديث عنه، يقول في مستهل فصل من فصول مقدمة الكتاب: «وتركب ما ارتفع من هذه المدينة من جهاتها الثلاث، الكروم البديعة، طوقاً مرقوماً، يتصل بما وراءها من الجبال، فتعم الربى والوهاد، وتشمل الغور والنجد، إلا ما اختص منها بالسهل الأفيح، متصلاً بشرقي باب إلبيرة، إلى الخندق العميق، وهو المسمى بـ «المشايخ»، بسيط جليل، وجو عريض تغمى عن العد أمراجه»[١١٨].

ويتحدث ابن الخطيب أيضاً عن وفور الغراس وتنوعه حيث انساح وامتد ليحيط بجميع أنحاء المدينة فيقول: «وتذهب هذه الغروس قبلة، ثم يفيض تيارها إلى غرب المدينة وقد تركت بها الجبال الشاهقة، والسفوح العريضة، والبطون الممتدة، والأغوار الحائفة، مكللة بالأعناب، غاصة بالأدواح»[١١٩].

وتحدث أيضاً عما وراء الجنان والمجالات الخضراء التي حاذت سور المدينة وحفت به قائلاً: «ويحيط بما خلف السور من المنى والجنات في سهل المدينة، العقار الثمين، العظيم الفائدة، المتعاقب الغلة، الذي لا يعرف الجمام، ولا يفاوق الزرع، من الأرض البيضاء...»[١٢٠].

(١١٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١١٥.
(١١٧) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١١٦.
(١١٨) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٢٠.
(١١٩) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٢٤.
(١٢٠) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٢٥.

كما تحدث عن فحص غرناطة المشهور بثرائه وجماله الشبيه بغوطة دمشق من البلاد الشامية، ووصفه أجمل وصف كعادته قائلاً: «وفحصها الأفيح المشبه بالغوطة الدمشقية، حديث الركاب، وسمر الليالي، قد دحاه الله في بسيط تخترقه المذانب، وتتخلله الأنهار والجداول، وتتزاحم فيه القرى والجنات، في ذرع أربعين ميلاً أو نحوها، تنبو العين فيها عن وجهه، ولا تتخطى المحاسن منها إلا مقدار رقعة الهضاب، والجبال المتطامية منه بشكل ثلثي دارة، قد عرت منه المدينة فيما يلي المركز لجهة القبلة، مستندة إلى أطواد سامية، وهضاب عالية، ومناظر مشرفة، فهي قيد البصر، ومنتهى الحسن، ومعنى الكمال»(١٢١).

ولا يفوت ابن الخطيب أن يشير إلى ما يتخلل ذلك من البوادي والقرى، ويذكر أسامي بعضها يقول: «ويتخلل هذا المتاع الغبيط الذي هو لباب الفلاحة، وغير هذه المدرة الطيبة، سائر القرى التي بأيدي الرعية، مجاورة لهذه الحدود، وبنات لهذه الأمهات... وتنيف أسماؤها على ثلاث مائة فرية ما عدا ما يجاور الحضرة من كثير من قرى الأقاليم أو ما استضافته حدود الحصون المجاورة»(١٢٢).

وهذه القرى ليست صغيرة كما يظن، وإنما هي في حجم المدن والأمصار الكبيرة، يقول ابن الخطيب دافعاً الوهم الذي قد يفرزه الظن: «وقد ذكرنا أن أكثر هذه القرى أمصار، فيها ما يناهز خمسين خطبة، تنصب فيها لله المنابر، وترفع الأيدي، وتتوجه الوجوه»(١٢٣).

ويفيدنا ابن الخطيب بفائدة طريفة تتعلق بنوعية الملكيات الأرضية التي كانت رائجة في المملكة مشيراً إلى كثرة الملكيات المشتركة والإقطاعات المشاعة، وندرة الملكيات غير المشتركة إلى حد الانعدام، يقول في معرض حديثه عن القرى: «منها ما انبسط وتمدد، فاشترك فيه الألوف من الخلق، وتعددت منه الأشكال... ومنها ما انفردت بمالك واثنين فصاعداً، وهو قليل»(١٢٤).

(١٢١) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٩٩.
(١٢٢) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٢٦.
(١٢٣) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٣٢.
(١٢٤) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٢٦.

كما أشار في أحد النصوص إلى نسبة المنتوج المقوم بالذهب فيما يخص بعض الجنات الوفيرة الغلات قائلاً: «. . . منها ما يُغِلُ في السنة الواحدة نحو الألف من الذهب»[١٢٥].

المطلب الثالث: وفرة المياه وعذوبتها:

عند الحديث عن وفرة المياه التي تسد احتياجات المملكة وزيادة، يبدأ ابن الخطيب بمعين المياه وخزانها الأعظم، ومنبعها الغزير الأحكم، معدداً ينابيعه وعيونه، ونعني به جبل «شُلَيْر» قاعدة الثلوج سائر العام، يقول: «. . . شلير جبل الثلج، أحد مشاهير جبال الأرض، الذي ينزل به الثلج شتاء وصيفاً. . وينساب منه ستة وثلاثون نهراً من فوهات الماء، وتنبجس من سفوحه العيون»[١٢٦].

كما وصف لنا بعد ذلك نهر «سنجيل» ويسمى أيضاً «شنيل» أكبر أنهار المملكة، يخترق العاصمة غرناطة فيقول: «وهذا الوادي من محاسن هذه الحضرة، ماؤه رقراق من ذوب الثلج، ومجاجة الجليد، وممره على حصى جوهرية، بالنبات والظلال محفوفة، يأتي من قبلة البلد إلى غربه، فيمر بين القصور النجدية، ذوات المناصب الرفيعة، والأعلام الماثلة. . . ويرتفع من هذا النهر الزلال جداول»[١٢٧].

المطلب الرابع: اعتدال المناخ وصحة الهواء:

قال ابن الخطيب مشيراً إلى هوائها الطيب في عبارة عارضة مقتضبة: «صح منها الهواء»[١٢٨].

كما تحدث ابن الخطيب عن المناخ والهواء كعامل من العوامل المؤثرة في بناء الشخصية عضوياً ونفسانياً يقول: «فجسوم أهلها لصحة الهواء صلبة، وسحانهم خشنة، وهضومهم قوية، ونفوسهم لمكان الحر الغريزي جريّة [جريئة]»[١٢٩].

(١٢٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١١٥.
(١٢٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٩٦.
(١٢٧) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١١٧.
(١٢٨) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٩٦.
(١٢٩) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٩٧.

وأشار أيضاً إلى برودة المناخ وقساوته شتاء للقرب من المؤثرات الثلجية الجبلية يقول: «وبردها لذلك في المنقلب الشتوي شديد، وتجمد بسببه الأدهان والمائعات، ويتراكم بساحاتها الثلج في بعض السنين»(١٣٠).

المطلب الخامس: النشاط الفلاحي وآثاره:

لاشك أن من أبرز مظاهر النشاط الفلاجي توفر شروطه ووجود مرغباته، إضافة إلى كثرة نتاجه، وتلون أنواعه.

أقول هذا لأن النصوص التي تتحدث عن النشاط الفلاحي المباشر الراجع إلى العامل الفاعل، والمحرك النشيط، المتمثل في الإنسان فرداً وجماعة، تعوزنا بشكل ملحوظ، ونحن نرفع عقيرة اللوم عن لسان الدين ابن الخطيب، فلا نطالبه بما يعجزه، ونسأله أن يشذ عن القاعدة فيفصل القول فيما لم يكن في مكنة أهل زمانه من المؤرخين، الذين لم تتطور بعد عندهم عملية كتابة التاريخ، لتشبه صناعة التاريخ عند المعاصرين.

من أهم النصوص المباشرة والوحيدة التي تناول ابن الخطيب من خلالها النشاط الفلاحي ما ذكره عقب ذكره للرياض المحيطة والقرى القريبة مما خلف سور المدينة، حين قال: «وفي هذه القرى الجمل الضخمة الرجال، والفحول من الحيوان الحارث لآثار الأرض، وعلاج الفلاحة»(١٣١).

المطلب السادس: كثرة المنتوج وتنوع الغلة:

لعل أوضح المؤشرات التي تكشف عن حجم الجهد المبذول في الأنشطة الفلاحية، كثرة المنتوج وتنوع الغلة، إذ هي آثاره ونتائجه، وفي هذا المجال لا نعدم نصوصاً، ولا نفقد إشارات.

ومن الأوصاف العامة التي وصف بها ابن الخطيب بلاده من حيث النتاج نعتها بأنها: «بحر من بحور الحنطة، ومعدن للحبوب المفضلة»(١٣٢). كما وصفت بكثرة

(١٣٠) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص٩٦.
(١٣١) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٢٥ - ١٢٦.
(١٣٢) - ابن الخطيب، ج١، ص٩٦.

الفوائد: «من قمح وشعير، وكتان، وكثرة المرافق، من حرير، وكروم، وزيتون، وأنواع الفواكه»[١٣٣].

وقال في موضع آخر: «تلوح مبانيها [المدينة]، ناجمة بين الثمار والزيتون، وسائر ذوات الفواكه، من اللوز والإجاص والكمثرى، محدقة من الكروم المسحة، والرياحين الملتفة، بحور طامية»[١٣٤]. وقال أيضاً: «ويحسن فيها قصب السكر»[١٣٥].

من الإشارات الطريفة أيضاً التي ألم بها ابن الخطيب، وتكشف عن نشاط مُهمٍّ من الأنشطة الفلاحية، ما ذكره عن تربية أنواع الدواجن والحمائم يقول معدداً مزايا غرناطة الاقتصادية: «ومصاب للحمائم والدواجن ماثلة، منها في طوق البلد، وحمى سورها جملة»[١٣٦].

أشار ابن الخطيب من جملة ما أشار إليه وهو الطبيب الحاذق صاحب التصانيف في ذلك، ما توفرت عليه بلاده من الأعشاب الصيدلانية المجربة في الأدوية، بما كشف عما كان في هذا البلد من عمل منظم ومتطور، فيما يتعلق بالصناعة الطبية، كما دلت قرائن أخرى عن ذلك، قال: «وتعددت الجنات بها والبساتين، والتفت الأدواح، وشمر الرواد على منابت العشب مظان العقار مستودعات الأدوية والترياقية»[١٣٧].

كما سمى بعض الأنواع معتذراً بالإيجاز لسبب الكثرة قائلاً: «وبه المرقشينة على اختلافها، واللازورد وبفحصها وما يتصل به القرمز، وبها من العقار والأدوية النباتية والمعدنية ما لا يحتمل ذكرها الإيجاز»[١٣٨].

---

(١٣٣) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٠٩.
(١٣٤) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٢٠.
(١٣٥) - ابن الخطيب، ج١، ص ٩٨.
(١٣٦) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٢٥.
(١٣٧) - ابن الخطيب، ج١، ص ٩٦.
(١٣٨) - ابن الخطيب، ج١، ص ٩٨ - ٩٩.

كما أشار إلى عقار أطلق عليه اسم «الجنطايانا» الذي نبه على قيمته بقوله: «وهو عقير رفيع ومكانه من الأدوية الترياقية مكانه»(١٣٩).

ألم ابن الخطيب أيضاً إلمامة لطيفة ومفيدة بالعطور حينما عرفنا ببعض أنواع العود الطيب الرائحة قائلاً: «وبناحية دلاية [مدينة قريبة من ألمرية] من عملها، عود اليلنجوج، لا يفوقه العود الهندي ذكاً وعطر رائحة»(١٤٠)، كما سمى نوعاً اختص به جبل «شلير»: «وبجبل شلير منها سنبل فائق الطيب»(١٤٢).

المطلب السابع: الصناعة، مقومات ومظاهر:

الحديث عن الصناعة وما يتصل بها هو الآخر لم يأت إلا عرضاً، غير أننا يمكن أن نستنتج منه تصوراً لا بأس به في هذا الشأن.

عرفنا ابن الخطيب بالمادة الأولية، لما يمكن أن تقوم عليه بعض الصناعات فقال: «وفي عمالتها المعادن الجوهرية من الذهب، والفضة، والرصاص، والحديد، والتوتية»(١٤٣).

كما أشار أيضاً إلى بعض الصناعات القائمة على الفلاحة أو التابعة لها مثل صناعة الزيتون القائمة على العصر المعتمد على الرحى، وكذلك طحن الحبوب المتنوعة من قمح وشعير وذرة وحنطة، يقول ابن الخطيب مشيراً إلى كثرة الأرحاء في مدينة غرناطة ونواحيها: «ويشتمل سورها - أي سور المدينة - وما وراءه من الأرحاء الطاحنة بالماء على ما ينيف على مائة وثلاثين رحى»(١٤٤).

والنص فضلاً على كونه دالاً على صناعة الزيت والدقيق، دل على تقنية متقدمة

(١٣٩) - ابن الخطيب، ج١، ص ٩٨.
(١٤٠) - ابن الخطيب، ج١، ص ٨٩.
(١٤١) - ابن الخطيب، ج١، ص ٨٩.
(١٤٢) - ابن الخطيب، ج١، ص ٨٩.
(١٤٣) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٣٣.
(١٤٤) - ابن الخطيب، ج١، ص ١١٩.

بالنسبة لذلك العصر، وهي تقنية اعتماد الماء كمصدر للطاقة، طاقة الدفع والتحريك، وقد دلت نصوص أخرى على هندسة المياه لاستخدامه في مثل هذه الصناعات مثل قوله في موضع آخر: «ويرتفع من هذا النهر [نهر شنيل] الزلال جداول تدور بها أعداد من الأرحيٍّ لا نظير لها استعداداً وإفادة»(١٤٥).

وكثرة عدد الأرحاء المشار إليه آنفاً يدل على القدرة الاستهلاكية الكبيرة التي تنم عن وفرة عدد السكان، ورواج اقتصادي معتبر.

كما جاء نص مختصر وعارض دل على لطيفة فريدة متعلقة بعصير نوع من الأشجار، وإن كانت لا تفي بالمرغوب قال: «واختصت [بعض الحدائق والجنات] من أشجار العاريات ذات العصير الثاني بهذا الصقع، ما قصرت عنه الأقطار»(١٤٦).

وهناك إشارات أخرى أيضاً دلت على وجود نشاط صناعي كبير، وان كانت لا تفي بالغرض، لأنها تشير إلى وجود نشاط صناعي دون أن تبين جميع أنواع هذا النشاط، وإن ألمعت إلى نوع من أنواع النشاط الصناعي فقط لأن الإشارة لم تكن مقصودة، وإنما جاءت عرضاً، وذلك عند قوله متحدثاً عن ولوع أهل غرناطة بالغناء: «والغناء بينهم فاش حتى في الدكاكين التي تجمع صنائعها كثيراً من الأحداث كالخفافين ومثلهم»(١٤٧)، لقد دل هذا النص أيضاً على ظاهرة الإفادة من نسبة كبيرة من الأطفال في الصنائع التقليدية المختلفة.

ومن الصناعات التي أشار ابن الخطيب إليها صناعات الحلفاء المختلفة، مثلما جاء في ترجمة محمد بن سحنون الحميري (ت: ٧٠٥ هـ) قال: «... وكان يعمل بيده في الحلفا، ويتقوت من ذلك»(١٤٨)، والحلفاء نبات معروف في بلاد المغرب دقيق وكِث يرتفع في نمائه قرابة ذراع، وينتشر في المناطق السهوبية شبه الصحراوية

(١٤٥) - ابن الخطيب، ج١، ص ١١٧.
(١٤٦) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٣٧.
(١٤٧) - ابن الخطيب، ج٣، ص ٢٣٢.
(١٤٨) - ابن الخطيب، ج٣، ص ٢٤.

لقلة التساقطات، يُجَز من أصوله، وقد يُحَسُّ، ويستعمل في صناعة الحصر، والبراذع، والخرج، والقفاف، والحبال وما إلى ذلك، وهذه الصناعة مازالت باقية، وخاصة في أسواق المدن الصغيرة المحاذية للبادية.

كما وردت الإشارة إلى صناعة الذهب، بما جاء في ترجمة محمد بن أحمد بن فتوح المعروف بالطرسوني (توفي حوالي سنة ٧٣٠ هـ) قال ابن الخطيب: «. . . وكان صناع اليدين يرسم بالذهب، ويسفر. .»[١٤٩]، والنص يشير فضلاً عن ذلك إلى صناعة تسفير الكتب.

كما أشار إلى بعض الصناعات اليدوية مثل الدباغة والرقم على الجلود للاستعمالات المختلفة، مثل الإشارة إلى حانوت سراج يقابل باب مسجد من المساجد قد قعد فيه شاب وسيم: «يرقم جلداً كان في يده. . .»[١٥٠].

هذا بالإضافة إلى الصناعات الطبية المستخلصة للأدوية المختلفة وما يتعلق بها من أدوات ووسائل متنوعة كما دلت النصوص السالفة، دون أن ننسى صناعة السكر الذي توفرت مادته كما تمت الإشارة إلى ذلك سابقاً.

هذا وستتضح مظاهر أخرى من النشاط الصناعي من خلال الحديث عن مظاهر النشاط التجاري إذ من الصعب الفصل بين التجارة والصناعة.

المطلب الثامن: بعض مظاهر النشاط التجاري:

لم يفت ابن الخطيب أيضاً وهو يلم بكافة مقومات الحياة الاقتصادية، أن يشير إلى الحركة التجارية سواء في الداخل أو الخارج، يقول متحدثاً عن السوق الداخلية: «قد غصت الدكاكين بالخضر الناعمة والفواكه الطيبة والثمر المدخرة»[١٥١].

وقد دل هذا النص على ندرة ألفاظه على معظم أجناس الطعوم التي تندرج تحتها

(١٤٩) - ابن الخطيب، ج١، ص ١١٥ - ١١٦.
(١٥٠) - ابن الخطيب، ج١، ص ٩٩.
(١٥١) - ابن الخطيب، ج ٣، ص ٩٥.

الأنواع والألوان الكثيرة، فأشار إلى الخضراوات التي تضم العدد الذي لا يحصى من الأنواع، وأشار إلى الفواكه التي هي إجمال لبعض ما فصل قبل، وأشار إلى الثمُر المدخرة وهي الفواكه الجافة.

كما ألمع إلى تجارة الحرير التي كانت مزدهرة لإتقان صنعته وتعهد تربيته، فقال منوهاً ومفتخراً: «وكفى بالحرير الذي فضلت به فخراً وقيمة، وغلة شريفة، وفائدة عظيمة، تمتاره منها البلاد، وتجلبه الرفاق، وفضيلة لا يشاركها فيها إلا البلاد العراقية»[١٥٢].

وجاءت إشارات متناثرة هنا وهناك، على قلتها وتفاهتها، قد كشفت عن بعض أوجه التجارات الداخلية بالإشارة إلى أسماء بعض الأسواق التي كانت في مدينة غرناطة وغيرها من المدن الشهيرة، مثل سوق العطارين وهو السوق الذي يتخصص في بيع التوابل والعطور وغير ذلك من أنواع الأعشاب والنباتات الجافة، التي يعرف الناس أسماءها وفوائدها متوارثة خلفاً عن سلف ولايزال المغرب يحتفظ بهذه الأسواق في مدنه التاريخية والعريقة حتى اليوم بحيث قلما تجد مدينة من هذه المدن لا تحتوي على سوق من هذا القبيل[١٥٣].

ووردت الإشارة أيضاً إلى سوق الفخارين وهو السوق الذي تخصص في صناعة وبيع الأواني والتحف الخزفية والطينية المختلفة، وهذه أيضاً من الصناعات الباقية في المغرب يتفنن فيها الصناع المغاربة بما لا شيء فوقه، زخرفة ورسماً ونحتاً ونقشاً وتلويناً وتزويقاً بما يشهد بالعراقة والأصالة.

كما وردت الإشارة إلى سوق السقاطين، من «السَّقْط» كما جاء في لسان العرب وهي الأشياء التي تُسْقَطُ فلا يعتد بها لتفاهتها، ويقال لخُرْثيِّ المتاع، لأنه ساقط عن رفيع المتاع، وقد يطلق أيضاً على ما تنوول بيعه من تَابل ونحوه، لأنه ساقط القيمة[١٥٤]، وهذه أيضاً من التجارات التي نجد لها رواجاً بالمغرب إلى اليوم.

(١٥٢) - انظر ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص ٢٠٣٨.
(١٥٣) - انظر ابن الخطيب، ج ٢، ص ٢٨٦.
(١٥٤) - ابن الخطيب، ج٢، ص ٢٨٦.

وهناك سوق آخر وردت الإشارة إليه وهو سوق العطر، ولا يحتاج المرء إلى معجم ليتعرف معناه، فهو سوق تخصص في بيع أنواع العطور، من نباتات وأزهار وأحجار ومستخلصات تبعث على الروائح الطيبة، والأنسام الزكية، تقدح بالنار، أو تمزج بالماء، أو تُحذى بالاستعمال المباشر(١٥٥).

وهناك أيضاً سوق الغزل، وهو السوق الذي تخصص في صناعة الصوف من غزل ونسج وما إلى ذلك، مثلما جاء في أحد المترجم لهم «. . . وكان بمالقة يتَّجر بسوق الغزل»(١٥٦).

وكذلك الخياطة كما جاء في ترجمة محمد بن أحمد الساحلي (ت: ٧٣٥ هـ): «. . . واقتصر على التمعش من حرفة الخياطة»(١٥٧).

من الحرف التي تمت الإشارة إليها أيضاً، ما يرجع إلى الصناعات الطبية، كما جاء في ترجمة محمد بن محمد بن ميمون الخزرجي (توفي بعد عام ٨٥٠ هـ) قال ابن الخطيب: «. . . وكان يتعيش من صناعة الطب»(١٥٨)، وكذلك ما جاء في حق محمد بن علي بن فرج المعروف بالشِّفرة (ت: ٧٦١ هـ)، قال: «. . . متعيشاً من عشبه أول أمره. . .»(١٥٩).

كما أشار إلى التجارة الرائجة لأحد أنواع العقاقير الطبية لنفاسته وأهميته وقد ألمعت إليه سالفاً وهو «الجنطيانا» يقول بشأن رواجه: «يحمل منه إلى جميع الآفاق»(١٦٠).

وهناك أيضاً حرفة أخرى ربما كانت واسعة الانتشار، وهي المتاجرة في الكتب جمعاً ونسخاً وتفسيراً، كما وردت الإشارة في حق محمد بن محمد بن بيبش

(١٥٥) - ابن الخطيب، ج١، ص ٣٢٥.
(١٥٦) - ابن الخطيب، ج٣، ص ٢٣٩.
(١٥٧) - ابن الخطيب، ج٣، ص ١٩٥.
(١٥٨) - ابن الخطيب، ج٣، ص ١٨٠.
(١٥٩) - ابن الخطيب، ج١، ص ٩٨.
(١٦٠) - ابن الخطيب، ج٣، ص ٢٧، وانظر ج٣، ص ٢٨.

العبدري (٦٨٠ هـ - ٧٥٠ هـ) قال ابن الخطيب: «. . . متعيشاً من التجارة في الكتب، أثرى منها»[١٦١].

وهناك حرفة أخرى أشير إليها أيضاً، وهي التحرف بصناعة التوثيق[١٦٢]، وسأعرض لها ضمن الخطط الشرعية، في الفصل الثالث المتعلق بالنظم الإدارية للمملكة غرناطة خلال كتاب الإحاطة الذي سأقدمه مستقلاً في فرصة أخرى إن شاء الله.

هذا ولا شك أنه كانت هناك صناعات وحرف أخرى، مثل الحدادة والنجارة، وما يتعلق بالبناء، لم ترد فيها إشارات مباشرة، وإنما اقتصرنا على ما وردت الإشارة في الإحاطة فقط.

لم يقنع ابن الخطيب بتقديم هذه المعطيات الاقتصادية المهمة لا ريب، بل قدم لنا تقريراً عن جملة مداخيل الدولة السنوية من خلال هذا النص الطويل نسبياً والطريف حقيقة يقول: «وجملة المراجع العملية المرتفعة فيها في الأزمنة في العام بتقريب، ومعظمها السقي الغبيط السمين الغالي، مائتا ألف وثنتان وستون ألفاً، وينضاف إلى ذلك مراجع الأملاك السلطانية، ومواضع أحباس المساجد، وسبل الخير، ما ينيف على ما ذكر، فيكون الجميع باحتياط خمسمائة ألف وستون ألفاً، والمستفاد فيها من الطعام المختلف الحبوب للجانب السلطاني ثلاثمائة ألف قدح ويزيد»[١٦٣].

المطلب التاسع: صفة العملة وقيمتها:

من أهم وأطرف ما أتحف به ابن الخطيب، وأعلى من شأنه مؤرخاً وأديباً، وصفة الدقيق والنادر للعملة التي كانت رائجة في بلاده على عهده، سواء من حيث النوع أو من حيث الشكل، أو من حيث القيمة، فقال محدداً المادة المعدنية التي كان يُتخذ منها صرفهم: «وصرفهم فضة خالصة، وذهب إبريز طيب محفوظ»[١٦٤].

(١٦١) - ابن الخطيب، ج٤، ص ١٧٧.
(١٦٢) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٣١ - ١٣٢.
(١٦٣) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٣٧.
(١٦٤) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٣٧.

وقال يصف الدرهم وصرفه من حيث الشكل والقيمة: «ودرهم مربع الشكل، من وزن المهدي القائم بدولة الموحدين»[١٦٥]، وقال محدداً قيمة الأوقية منه: «في الأوقية منه سبعون درهماً، يختلف الكَتْبُ فيه»[١٦٦]، وقال معرفاً بصيغة الشعار الذي كان يحمله: «في شق «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، وفي شق آخر، لا غالب إلا الله، غرناطة»[١٦٧]، وقال يصف كتابة نصفه: «ونصفه وهو القيراط، في شق «الحمد لله رب العالمين»، وفي شق «وما النصر إلا من عند الله»(١٦٨)، وقال يصف ربعه: «ونصفه [نصف القيراط] وهو الربع، في شق «هدى الله هو الهدى»، وفي شق «العاقبة للتقوى»[١٦٩].

وقال يصف الدينار من حيث القيمة، وكذلك قيم أنواع صرفه: «ودينارهم في الأوقية منه، ستة دنانير وثلثا دينار، وفي الدينار الواحد ثمن أوقية وخُمس ثُمن أوقية[١٧٠]، وقال يصف شعاره: «وفي شق منه «قل اللهم مالك الملك بيدك الخير»، ويستدير به قوله تعالى: «إلهكم إله واحد، لا إلا إلا هو الرحمن الرحيم»، وفي شق «الأمير عبدالله بن يوسف، بن أمير المسلمين أبي الحجاج، بن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن نصر، أيد الله أمره»، ويستدير به، شعار هؤلاء الأمراء «لا غالب إلا الله»[١٧١].

ولا يفوت ابن الخطيب أن يسجل التغيير على مستوى الشعار الذي حدث للسكة في طبعتها الجديدة في عهده وهو المؤرخ الذي يرصد التطورات والتغيرات لما في ذلك من فائدة تأريخية، ولقد عكس هذا التعديل الوضع السياسي، والحالة النفسية لأهل هذا القطر دولة وأمة، حكومة وشعباً، وقد تربص بهم العدو وتنامى التوجس

(١٦٥) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٣٧ - ١٣٨.
(١٦٦) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٣٨.
(١٦٧) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٣٨.
(١٦٨) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٣٨.
(١٦٩) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٣٨.
(١٧٠) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٣٨.
(١٧١) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٣٨.

والقلق من مصير مجهول، وزمان لا تمر منه برهة إلا والتي تأتي شر من التي تمضي، فلم يعد لهم سوى الله حارساً، والصبر مؤنساً، يقول: «ولتاريخ تمام هذا الكتاب، في وجه «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون»، ويستدير به «لا غالب إلا الله»، وفي وجه «الأمير عبدالله الغني بالله، محمد بن يوسف بن إسماعيل بن نصر، أيده الله وأعانه»، ويستدير بربع «بمدينة غرناطة حرسها الله»[١٧٢].

المقصد الثالث: الإحاطة والتأريخ للحياة الثقافية:

لعل قيمة «الإحاطة» من حيث التأريخ للحياة الثقافية عموماً، تفوق كل قيمة من القيم المذكورة، وإن كانت صورتها تختلف، لأن أكثر تراجمه تختص بحياة العلماء والأدباء، والفقهاء والشعراء، وخاصة حياتهم العملية والأدبية والثقافية بوجه عام.

غير أن الصورة التي قدمت بها مختلفة عن الصورةالتي قدمت بها القيم الاجتماعية والاقتصادية، أهم مظاهرها التوسع والتشتت موزعة على جميع مفردات الكتاب وجزئياته.

ومن هذا المنطلق بدت صعوبة الظفر بحكم جامع مانع، عادل ومنصف، على طبيعة هذه الحياة الثقافية، وبالتالي على صنعة تأريخ الخطيبية من هذه الزاوية.

بيد أننا استطعنا من خلال استقراء التراجم أن نجس نبض الحياة الثقافية التي كانت سائدة، والميول العلمية التي كانت رائجة، وخاصة في القرنين السابع والثامن الهجريين، لتداخل حياة العلماء والأدباء فيهما من حيث الزمن، وذلك بتتبع اهتمامات كل فرد على حدة، ومن خلال تتبع أنواع العلوم والفنون التي كانت نافقة.

(١٧٢) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٣٨.

وتمكنا من تصور نوعية الثقافة التي كانت سائدة، ونكهة المعارف التي كانت مبثوثة، من خلال التأمل في التقسيمات التي أخضع لها ابن الخطيب كتابه من حيث التصنيف والترتيب، كما استطعنا أن نعرف من خلال الإطلاع على التراجم مفصلة، أكثر العلوم رواجاً، وكذلك تعرف العقلية والنفسية التي كانت مهيمنة.

كما كشفت «الإحاطة» أيضاً عن العلاقات الثقافية التي كانت تربط بلاد المغرب بالأندلس متمثلة في تنقل العلماء وهجرتهم، وبث علومهم ومعارفهم، وكذلك رحلة الطلبة والمتعلمين.

استطعنا بعد استقراء العلوم التي اهتم بها المترجم لهم وبرعوا فيها أن نسجل أن العلوم التي كانت رائجة بين الناس إجمالاً كثيرة ومتنوعة، وهي: اللغة، والنحو والبلاغة، والعروض، والأدب والخط، والفقه، وأصول الفقه، والفرائض، وعلم التوثيق، والقرآن وعلومه، والقراءات، والحديث دراية ورواية، وعلم الكلام، والإلهيات، والتصوف، والفلسفة، وعلم الجدل، وعلم المنطق، والحساب، والعدد، والتاريخ والطب، والصيدلة، والجراحة، والطبيعة، والهندسة، والرياضيات، والمساحة، والهيئة والنبات، والتعاليم، وصناعة التعديل، والأزياج، والكيمياء، والفلك والنجوم، والموسيقى، وما إلى ذلك. ولفت نظرنا نفاق سوق علوم الأدب وما يتعلق به من نظم ونثر، حيث وجدنا كثيراً من الأعيان والعلماء لهم نصيب وافر من الأدب، حتى إنه ليندر في أبناء ذلك الزمان من لا نظم له من الشعر وإن قل، بل وجدنا من الملوك والأمراء من كان يقرضه، لذلك وجدنا من بين ما وجدناه من العناصر التي تألفت منها معظم تراجم الإحاطة قول ابن الخطيب: «شعره» أو «نثره» أو «شعره ونثره».

ثم يأتي بعد هذا الصنف من الاهتمام، إن لم يكن يوازيه الاهتمام بالعلوم الشرعية مختزلاً في الفقه وما يتصل به، لركود العلوم الأخرى وانقراض أسانيدها، وللحاجة إليه في ميادين الحياة المختلفة.

من العلوم التي كانت رائجة أيضاً، استناداً إلى ما استنتجناه من إشارات ابن

الخطيب المتكررة والمتنوعة، علوم الطب، والصيدلة، والهندسة، والحساب، والعلوم العقلية على تنوعها إلى درجة لافتة للنظر بما شهد لها بالاحترام والحاجة.

ونظراً لطرافة النصوص التي صادفناها في هذا الباب، نذكر بعضاً منها، لأنها تؤرخ لرسوخ قدم المسلمين الأندلسيين فيها من جهة، كما تكشف عما كان لذلك من فائدة على إسپانيا المسيحية وأوربا من جهة ثانية.

المطلب الأول: في الطب والجراحة والصيدلة والنبات:

قال ابن الخطيب في حق أحمد بن محمد بن أبي الخليل مفرّج الأموي الإشبيلي، المعروف بالعشاب وابن الرومية (٥٦١ هـ - ٦٣٧ هـ): «... عجيبة نوع الإنسان في عصره، وما قبله، وما بعده في معرفةعلم النبات، وتمييز العشب، وتحليتها، وإثبات أعيانها، على اختلاف أطوار منابتها، بمشرق أو مغرب حساً ومشاهدة وتحقيقاً، لا مدافع له في ذلك، ولا منازع، حجة لا ترد ولا تدفع، إليه يسلم في ذلك ويرجع. قام على الصنعتين لوجود القدر المشترك بينهما، وهما الحديث والنبات، إذ موادهما الرحلة والتقييد وتصحيح الأصول وتحقيق المشكلات اللفظية، وحفظ الأديان، والأبدان، وغير ذلك... كثير الكتب جمّاعاً لها، في كل فن من فنون العلم، سمحاً لطلبة العلم، ربما وهب منها لملتمسه الأصل النفيس، الذي يعز وجوده، احتباساً وإعانة على التعليم... وكان كثير الشغف بالعلم، والدؤوب على تقييده، ومداومة سهر الليل من أجله، مع استغراق أوقاته، وحاجات الناس إليه، إذ كان حسن العلاج في طبه المورود.. له فيما انتحله من هذين الفنين تصانيف مفيدة، وتنبهات نافعة، واستدراكات نبيلة بديعة... ومنها في النبات: «شرح حشائش دياسقوريدوس وأودية جالينوس» والتنبيه على أوهام ترجمتها، والتنبيه على أغلاط الغافقي، والرحلة النباتية، والمستدركة، وهو الغريب الذي اختص به، إلا أنه عدم عينه بعده، وكان معجزة في فنه، إلى غير ذلك من المصنفات الجامعة...»[١٧٣].

(١٧٣) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٢٠٨ - ٢١٢.

وقال عنه في موضع آخر: «دخلها [غرناطة] غير ما مرة لسماع الحديث، وتحقيق النبات، ونقر عن عيون النبات بجبالها، أحد خزاين الأدوية، ومظان الفوائد الغريبة يجري ذلك في تواليفه بما لا يفتقر الى شاهد»(١٧٤).

ولا يخفى على الناظر في هذين النصين ما انطويا عليه من فوائد جليلة نذكر منها:

١ - تقرير تقدم هذا العالم العلَم في علم النبات ليس على معاصريه وحسب، وإنما على من تقدم ومن تأخر، ولو توقفت التحلية عند هذا الحد لكانت مبالغة لا مبرر لها، بيد أن ما لحقها من تدقيق وتحقيق، ونعت الأشياء بصفاتها، شفع لها، وأكد موضوعيتها إلى حد كبير.

٢ - الإشارة إلى خبرته الفائقة بأعيان النبات وصفاتها، تمييزاً وتحلية.

٣ - الدراية العجيبة بأطوار نموها، وتراتيب نشوئها وتطورها، كذلك العلم بمظانها من حيث المنبت شرقاً وغرباً.

٤ - اعتماد الحس والمشاهدة والتجربة، تحقيقاً للأمر بما لا كفاء له

٥ - الإشارة إلى العلاقة المنهجية القائمة بين هذا العلم وعلم الحديث الذي هو من أشرف العلوم وأجلها أصالة وموضوعاً ومنهجاً وفائدة، وفي الإشارة ما فيها من تأكيد أثر العلوم الشرعية الأصيلة في كثير من المعارف والعلوم النظرية والتجريبية المختلفة.

ولم يفت ابن الخطيب أن يشير حتى إلى المقومات المنهجية المشتركة بين العلمين وهي:

أ - إعمال الرحلة والانتقال.

ب - التقييد والتسجيل.

ج - تصحيح الأصول استناداً إلى المعاينة والمشاهدة باعتماد النقد والمقابلة.

(١٧٤) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٢١٣ - ٢١٤، وانظر: ج ٣، ص ١٦٠.

د - تحقيق الأسماء، وضبط المصطلحات المختلفة، بإزالة اللبس والغموض الذي قد يعلق بها.

ح - تحقيق الفائدة في حفظ الأديان بالنسبة إلى الحديث، وحفظ الأبدان بالنسبة إلى علم النبات، وشتان بين الحفظ وبين العلاج لمن تدبر، فالعلاج مجاهدة بعد اعتلال، والحفظ وقاية قبل اختلال.

٦ - الإشارة إلى مظنة هامة من مظان النبات في الأندلس، وهي الجبال.

٧ - الإشارة إلى خلة الشغف والعكوف والصبر على الطلب والإعانة على ذلك.

٨ - الإشارة إلى ازدواجية المهمة لدى المذكور، إذ لم يقتصر الأمر عنده على علم النبات، وإنما تعداه إلى الحياة العملية بالتصدي للعلاج، ذلك الذي كان موفقاً فيه غاية التوفيق مقبولاً عند الناس لمهارته وثقته.

وقال في حق أحمد بن محمد الكرني (كان حياً سنة ٦٩٠ هـ): «شيخ الأطباء بغرناطة على عهده. وطبيب الدار السلطانية، كان نسيج وحده في الوقار والنزاهة، وحسن السمت، والتزام مثلى الطريقة واعتزاز الصنعة، قائماً على صناعة الطب، مقرئاً لها، ذاكراً لنصوصها، موفقاً في العلاج، مقصوداً فيه، مكبوح العنان عما تثبت به أصول صناعته من علم الطبيعة، سنياً، مقتصراً على المداواة[١٧٥].

وأطرف ما يمكن استنتاجه من هذا النص ما يلي:

١ - أن المترجم به كان شيخ مدرسة الطب على عهده، ورئيس الأطباء المتصدرين للعلاج في الدار السلطانية.

٢ - أهم الصفات التي ينبغي أن تتوفر في الطبيب المعالج وهي الوقار والنزاهة.

٣ - أنه كان قد حوّل اهتمامه من الطب إلى الجانب التطبيقي منه، معرضاً عن الجانب النظري والفلسفي منه، لأن ذلك قد يتعارض مع العقيدة والشريعة الإسلامية، وفي ذلك ما فيه من الرقابة الذاتية والحيطة الدينية، إذ لم يسلم من

(١٧٥) - ابن الخطيب، ج١، ص ٢٠٦، وانظر أيضاً: ج٣، ١٩٥.

النقد من توغل في ذلك، وقد يعاقب دينياً وثقافياً واجتماعياً كما سيتأكد هذا من خلال نصوص أخرى سنذكرها.

وقال في آخر، وكان من الأطباء الجراحين الحاذقين في الصنعة، وهو محمد بن علي بن فرج القربلياني المعروف بالشفرة (ت: ٧٦١ هـ): «كان... مشتغلاً بصناعة الطب، عاكفاً عليها عمره، محققاً لكثير من أعيان النبات، كلفاً به، متعيشاً من عشبه أول أمره، وارتاد المنابت، وسرح بالجبال، ثم تصدر للعلاج، ورأس به، وحفظ الكثير من أقوال أهله... زعم أنه قرأ على أبيه ببلده من قربليان [وهي بلدة داخلة في حدود قشتالة] بلد الدّجن وأخذ الجراحة عن فوج من محسني صناعة عمل اليد من الرّوح[١٧٦]. ألف كتاباً في النبات»[١٧٧]، والنص في شقه الأول يؤكد كثيراً من المعاني التي أشرت إليها قبل قليل، ويمكن أن نستخلص من شقه الثاني الفوائد الآتية:

١ - أن المدجنين من المسلمين ظلوا قائمين على العلوم، رغم سقوط قواعدهم في أيدي النصارى، وكان ذلك مكسباً ثميناً للنصارى الذين كانوا يشهدون نهضة حقيقية في جميع الميادين.

٢ - أن المدجنين كانوا يأخذون عن النصارى بدورهم العلوم التي برعوا فيها، وهذا النص يؤرخ أيضاً الإرهاصات الأولى للنهضة العلمية التي ستشهدها أوربا - وإن كان ابن الخطيب قد صدّره بلفظ يدعو إلى الارتياب، ربما لبعد ذلك في نظره - وقد يكون ذلك أيضاً مؤشراً مهماً لما يمكن أن يكون قد وصل إليه التأثير الثقافي والحضاري للمسلمين الأندلسيين المدجنين في إسپانيا المسيحية، وبالتالي أوروبا، لأنهم ظلوا يشكلون حلقة الوصل بين النصارى والمسلمين عدة قرون.

٣ - الإشارة إلى ممارسة الجراحة والتشريح، والتي كان يطلق عليها أيضاً اصطلاح «صناعة عمل اليد»، الذي تردد ذكره في الإحاطة، وهذا الاصطلاح الأخير

(١٧٦) - أشك أن يكون هذا اللفظ صحيحاً، وانما هو تحريف للفظ «الروم» لأن بغير هذا لا يستقيم المعنى، والله أعلم.

(١٧٧) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ١٨٠.

كشف عن أهم مقومات علم الجراحة وأدواته، ألا وهي اليد، ودل فضلاً عن هذا على تمكن النصارى هم أيضاً من هذه الصناعة.

وورد نص طريف في حق آخر لا شك أنه كان خبيراً في علم الصيدلة وما يتصل بها، وهو حسن بن محمد بن حسن القيسي، أبو علي يعرف بالقلنار (كان حياً سنة ٧٥٢ هـ): «كان رحمه الله بقية شيوخ الأطباء ببلده، حافظاً للمسائل الطبية، ذاكراً للدواء، فسيح التجربة، طويل المزاولة، متصرفاً في الأمور التي ترجع إلى صناعة اليدين صيدلة واخراعة... حاول عمل الترقاق الفارق بالديار السلطانية عام ٧٥٢ هـ، مبرزاً في اختيار أجزائه وإحكام تركيبه...»[١٧٨].

وقال في آخر دخل غرناطة لأجل اختيار تجاربه في الأدوية المفردة، وهو أحمد بن محمد بن شعيب الكرياني (ت: ٧٤٩ هـ): «دخل غرناطة على عهد السابع من ملوكها الأمير محمد لقرب من ولايته في بعض شؤون، وحقق بها تغيير أمر الأدوية المنفردة، التي يتشوف الطبيب إليها...»[١٧٩].

كما أعثر التنقيب على نص طريف يتصل بالطب أيضاً نذكره ثم نعقب عليه بما يمكن استخلاصه من قيم ومعان علمية وثقافية وحضارية متنوعة، قال ابن الخطيب في حق غالب بن علي بن محمد اللخمي الشقوري الغرناطي (ت: ٧٤١): «... رحل في شبيبته إلى المشرق، فحج وقرأ الطب بالمارستان بالقاهرة المعزية، وحذق العلاج على طريقة المشارقة، وأطرف بكثير من أخبارهم، وانتصب للمداواة ببجاية، بعد مناظرة لها حكاية، وقدم على بلده فنبه به قدره، واستدعي الى باب السلطان وخدم به ثم تحول إلى العدوة، فاتصل لخدمة ملكها السلطان أمير المسلمين أبي سعيد...»[١٨٠].

والنص ينطوي على الإشارات الآتية:

١ - تنوع مصادر الطب الأندلسي بفعل الاحتكاك والرحلة، وهذا الأمر يغني

(١٧٨) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٤٦٧ - ٤٦٨.
(١٧٩) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٢٧٧.
(١٨٠) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٢٤٠ - ٢٤١.

التجارب، ويركم الخبرات، ويقدح في زناد المهارات.

٢ - أن طرائق أهل المشرق في العلاج والمداواة تختلف عن طرائق أهل الأندلس.

٣ - أن الطب في القاهرة كان يدرس في المارستان، وهو مظنة الممارسة والتجربة التي هي أساس علم الطب.

٤ - ودل النص أيضاً على أن الطب في المارستان لم يكن حكراً على المواطنين الأصليين فحسب، وإنما كان نجعة لجميع الرواد، وموروداً لجميع الطلاب.

٥ - أن الماهر بصناعة الطب لا تعوقه الحدود، ولا تقيده الشعوب، فحيثما حل فهو مطلوب، وأينما انتقل فهو مقصود.

٦ - أن الطبيب قد لا يتصدر للعلاج، وخاصة في بلد الغربة إلا إذا امتحن عن طريق المناظرة من قبل أطباء وعلماء أهل البلد، فإذا أثبت كفاءته منح الأهلية.

٧ - أن الطبيب إذا ثبتت كفاءته، وذاع صيته، خطبته القصور، وفي هذا ما فيه من تشجيع وتحفيز، يبقي على الصنعة، ويكي حماسة المنافسة.

المطلب الثاني: في العلوم القديمة [١٨١]:

جاءت في العلوم العقلية والقديمة على اختلاف أصنافها وتباين فروعها نصوص كثيرة ومهمة، كشفت عن أنواعها وفروعها ومصطلحاتها على استمرار تعاطيها، كما كشفت عن موقعها وسط العلوم المختلفة، وموقف الدين والثقافة والمجتمع منها، أو بعض منها.

وسأقتصر على عرض بعض النصوص فقط، مؤثراً تلك التي تستوعب الإشارة إلى معظم العلوم التي كانت سائدة، وكذلك التي احتوت على أحكام معيارية

(١٨١) - وتسمى أيضاً العلوم العقلية، وكذلك علوم الفلسفة والحكمة، وتتألف من أربعة علوم هي: علم المنطق، وعلم الطبيعة أو الطبيعيات، والعلم الإلهي أو الإلهيات، وعلم المقادير، ويأتي بيانها لاحقاً. انظر: صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، وكذلك ابن خلدون، المقدمة، ج٣، ص ١١١٩.

جسدت موقف الأندلسين من بعض المعارف والعلوم كما ألمعت آنفاً ثم أعلق عليها بعدُ بما أستنتجه من معان ودلالات.

من النصوص التي استوعبت عدداً من العلوم قول ابن الخطيب في حق محمد بن إبراهيم بن محمد الأوسي (ت : ٧١٥ هـ): «كان نسيج وحده، وفريد دهره، علماً بالحساب والهندسة[١٨٢]، والطب، والهيئة[١٨٣]، مديد الباع، أصيل المعرفة، مضطلعاً، متبحراً، لا يشق غباره، أقرأ التعاليم[١٨٤] والطب والأصول بغرناطة، كما استقدمه السلطان ثاني الملوك من بني نصر من مدينة بجاية، فانتفع الناس به، . . . ودوّن في هذه الفنون كلها ولخّص . . . وتواليفه كثيرة، منها؛ كتابه الكبير على طريقة «الشفا»، والزيج القويم الغريب المرصد، . . . وعدل مناخ الأهلة، وعليه كان العمل . . .»[١٨٥].

وقال في محمد بن محمد بن لب الكناني المالقي يعرف بابن لب: «كان ذاكراً للعلوم القديمة، ومعتنياً بها، عاكفاً عليها، متقدماً في عملها على أهل وقته، لم يكن يشاركه أحد في معرفتها، من الرياضيات والطبيعيات[١٨٦] والإلهيات[١٨٧]،

(١٨٢) - الهندسة: هي علم النظر في المقادير، وهي على نوعين: متصلة كالخط والسطح والجسم ومنفصلة كالأعداد فيما يعرض لها من العوارض الذاتية. . . وهي تفيد صاحبها في إضاءة عقله، واستقامة فكره، لأنها تقوم على البراهين الصحيحة، ومن فروعها أيضاً، الهندسة المخصوصة بالأشكال الدائرية، وكذلك الهندسة المخصوصة بالمخروطات التي تفيد في الصنائع العملية، ومن فروعها أيضاً المساحة، والمناظر أو البصريات. انظر ابن خلدون، المقدمة، ج٣، ص ١١٣١ - ١١٣٤.

(١٨٣) - الهيئة: علم النظر في حركات الكواكب ثابتها ومتحركها ومتحيزها، يستدل بكيفيات تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك لزمت عنها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية، والهيئة صناعة شريفة، ومن فروع الهيئة علم الأزياج. انظر ابن خلدون، المقدمة، ج٣، ص ١١٣٤ - ١١٣٦.

(١٨٤) - التعاليم: ركن هام من أركان العلوم العقلية الإنسانية القديمة، ورابع علومها من حيث الترتيب، ويختص بالنظر في المقادير، ويشتمل على علوم أربعة، أولها: علم الهندسة، وثانيها: علم الأرثماطيقي، وثالثها: علم الموسيقى، ورابعها: علم الهيئة. انظر: ابن خلدون، المقدمة، ج٣، ص ١١١٩.

(١٨٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٦٩ - ٧٠.

(١٨٦) - الطبيعيات: علم ينظر في المحسوسات من الأجسام المادية من معدن ونبات وحيوان، وكذلك العناصر الأصلية المكونة لها، وينظر كذلك في الأجسام الفلكية، والحركات الطبيعية، والحركات النفسانية، وغير ذلك، انظر: ابن خلدون، المقدمة، ج٣ ص ١١١٩.

(١٨٧) - الإلهيات: علم يهتم بالنظر في الأمور التي وراء الطبيعة من الروحانيات. ابن خلدون، المقدمة، ج٣، ص ١١١٩.

ذاكراً لمذاهب القدماء، ومآخذهم في ذلك، حافظاً جداً، ذاكراً لمذاهب المتكلمين، من الأشعرية وغيرهم. . . وكان له أرب في التطواف، وخصوصاً بأراضي النصارى، يتكلم مع الأساقفة في الدين فيظهر عليهم»[١٨٨].

ومن النصوص الطريفة في هذا الباب أيضاً قوله في حق محمد بن أحمد الرّقوطي المرسي: «كان طرفاً في المعرفة بالفنون القديمة: المنطق، والهندسة، والعدد[١٨٩]، والموسيقى[١٩٠]، والطب، فيلسوفاً، طبيباً ماهراً، آية الله في معرفة الألسن، يقرئ الأمم بألسنتهم، فنونهم التي يرغبون في تعلمها، مترفقاً، متعاطياً، عرف طاغية الروم حقه، لما تغلب على مرسية، فبنى له مدرسة يقرئ فيها المسلمين والنصارى واليهود، ولم يزل معظماً عنده. . . وطلبه سلطان المسلمين ثاني الملوك من بني نصر، واستقدمه وتلمّذ له، وأسكنه في أعدل البقع من حضرته، وكان الطلبة يغشون منزله المعروف له - وهو بيدي الآن - فعلم عليه الطب والتعاليم وغيرها، إذ كان لا يجارى في ذلك. . .»[١٩١].

ومنها ما جاء في حق أحمد بن محمد بن يوسف الأنصاري، أبو جعفر، الحبالي (كان حياً سنة ٧٦٣ هـ): «. . . له بصر بالمساحة[١٩٢] والحساب، وله بصر بصناعة التعديل[١٩٣] وجداول الأبراج[١٩٤]، وتدرب في أحكام النجوم[١٩٥]. . .»[١٩٦].

---

(١٨٨) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٨.

(١٨٩) - العدد: علوم عدة، أولها الأرثماطيقي وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف إما على التوالي أو بالتضعيف، ومن فروعه الحساب، وهي صناعة عملية في حساب الأعداد بالضم والتفريق، ومن فروعه أيضاً الجبر والمقابلة، وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك، ومن فروعه كذلك المعاملات، وهو تصريف الحساب في معاملات المدن في البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات، ومن فروعه كذلك الفرائض وهي صناعة حسابية في تصحيح السهام لذوي الفروض في الوراثات. انظر ابن خلدون، ج٣، ص ١١٢٥ - ١١٣١.

(١٩٠) - الموسيقى: علم يتم بواسطته معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد، وثمرته معرفة تلاحين الغناء. ابن خلدون، المقدمة، ج٣، ص ١١١٩.

(١٩١) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٦٧ - ٦٨.

(١٩٢) - المساحة: أحد العلوم الفرعية لعلم الهندسة، يحتاج إليه في تقدير مساحة الأرض، ويحتاج إليه في أمور الخراج، والفلاحة، والزراعة، في الشركة والقسمة عند الإراثة وما إلى ذلك.

(١٩٣)، (١٩٤)، (١٩٥) - لم أقف، في حدود اطلاعي وإمكانياتي، على مصنف يشرح مصطلحي «صناعة

أحمد بن محمد بن شعيب الكرياني (ت ٧٤٩هـ): «من أهل المعرفة بصناعة الطب، وتدقيق النظر فيها. . . والغالب عليه العلوم الفلسفية، وقد مقت لذلك، وتهتك في علم الكيمياء، وخلع فيه العذار، فلم يحل بطائل»[١٩٧].

حسن بن محمد بن باصة، أبو عليّ، يعرف بالصّعلعل، رئس المؤقتين بالمسجد الأعظم من غرناطة (ت ٧١٦ هـ): «كان فقيهاً إماماً في علم الحساب والهيئة، أخذ عنه الجلة والنبهاء قائماً على الأطلال، والرخائم والآلات الشعاعية، ماهراً في التعديل، مع التزام السنة والوقوف عند ما حد العلماء في ذلك، مداوم النظر، ذا مستنبطات ومستدركات وتواليف. . . »[١٩٨].

أحمد بن حسن بن باصة الأسلمي المؤقت بالمسجد الأعظم بغرناطة (ت ٧٠٩ هـ): «كان نسيج وحده، وقريع دهره معرفة بالهيئة وإحكاماً للآلة الفلكية، ينحت منها بيده ذخائر يقف عندها النظر والخبر، جمال خط، واستواء صفة، وصحة وضع، بلغ في ذلك درجة عالية ونال غاية بعيدة، حتى فضل بما ينسب إليه من ذلك كثيراً من الأعلام المتقدمين، وأزرت آلاته بالحمايريات، والصّفاريات وغيرها من آلات المحكمين، وغالى الناس في أثمانها»[١٩٩].

وهذه النصوص المذكورة على تباينها تكشف عن المعاني الآتية:

١ - أن معظم العلوم العقلية القديمة كانت رائجة متصلة الأسانيد، لها قدر من الاحترام وسط العلوم كلها بما في ذلك العلوم الشرعية.

٢ - أن المتعاطين لها من الشيوخ لم يكونوا مقلدين في ذلك، وإنما كانت لهم عليها تعقيبات واستدراكات بما أكد إضافاتهم الاجتهادية.

التعديل» و«جداول الأبراج»، ولعلها بناء على السياقات التي وردت فيها مصطلحات لها صلة بعلمي «أسرار الحروف» و«صناعة التنجيم». انظر: ابن خلدون، المقدمة، ج٣، ص ١١٥٩ فما فوق.

(١٩٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٢٠٥.

(١٩٧) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٢٧٢.

(١٩٨) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٤٦٨.

(١٩٩) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٢٠٤.

٣ - أن بعض الأوصاف التي وصف بها أعلام هذه العلوم تؤكد تقدُّم أهل الأندلس في بعض العلوم والفنون حتى في هذه الآونة التاريخية القلقة المدبرة.

٤ - أن أهل هذه العلوم والفنون صنفوا في العلوم التي برعوا فيها مصنفات مهمة وطريفة.

٥ - أن معظم المهتمين بهذه العلوم لم يقتصروا عليها وحدها، وإنما كانوا متقدمين حتى في بعض العلوم الأخرى شرعية ولغوية بما ضمن لهم التوازن.

٦ - أن منهم من كان يرتاد بلاد النصارى للمناظرة ومجادلة النصارى في قضايا الدين والعقيدة، بما كشف عن روح التسامح والحوار، وأظن أن الذي كان يضمنه في هذه المرحلة التاريخية، توازن القوى السياسية والاستراتيجية بين المسلمين والنصارى من جهة، وضعف روح التعصب النصراني الذي كان ينمو شيئاً فشيئاً، إلى أن وصل في نهاية المطاف إلى ذروة التعصب الأعمى، الذي سيذوق الأندلسيون من وباله الأمرين.

٧ - أن الملوك والسلاطين كانوا يعرفون حق هؤلاء العلماء وفضلهم، فكانوا يستجلبونهم، ويغدقون عليهم الأموال، ويخصصون لهم الجرايات، ويفتحون لهم المدارس والمساجد لتعليم الطلبة والرواد، ولقد عرف فضل هؤلاء العلماء الذين برعوا في هذه العلوم العقلية المتنوعة الضرورية حتى ملوك النصارى وحكامهم، وهذا ينبه على الرغبة الأكيدة لدى النصارى الأوروبيين في الإفادة والتحول.

٨ - أنه كان من العلماء المسلمين بالأندلس من كان عارفاً بأكثر من لغة، وكان يدرس بها العلوم المختلفة للنصارى واليهود، وفي هذا ما فيه من الغرابة والتعجب لمن تدبر.

٩ - أن المتعاطي للعلوم العقلية إذا حصر اهتمامه في الفلسفة أو الكيمياء، وتوغل في ذلك، لا يسلم من النقد والحط، وهذا يؤكد أن الفلسفة لم يكن لها جمهور عريض، ولم تحظ باحترام كبير كباقي العلوم النظرية الأخرى، رغم ما بذله

ابن رشد من مجهود في التقريب بين الفلسفة والدين، يشهد لهذه النصوص الكثيرة التي وردت في الإحاطة متعلقة بمن تهالك في الفلسفة، والتي توحي بعدم جدوى الخوض فيها.

ولا أدل على هذا الإجماع من الفصل الذي جرده ابن خلدون في مقدمته، وهو من المتأخرين، في إنكار الفلسفة، والإنكار على المتعاطين لها تحت عنوان: «فصل في إبطال الفلسفة وفساد منتحليها».

ومن الفنون التي اهتم بها الأندلسيون كثيراً وصادفنا لها ذكراً وتنويهاً من قبل ابن الخطيب بما أكد أهميتها ظاهرة الاهتمام بالخط، ولقد وردت الإشارة إلى هذا في كثير من الأحيان حتى إنه كان هنالك من لم يثبت له ابن الخطيب شيئاً إلا الخط، ولقد كان للأندلسيين براعة نادرة وتفننا طريفاً في هذا المجال لم يلحقهم فيه المغاربة بفعل التعهد والمراس المبكر، ولاخفاء في أهمية معرفة الخط بالنسبة لتحرير الرسائل الديوانية والظهائر السلطانية، وتحرير الوثائق على اختلاف أنواعها، علاوة على نسخ الكتب وإذاعتها بين الناس، والتي كانت عملية شبيهة بعمليات الطبع الحديثة، بيد أنها مضنية، وغالباً ما كان الاهتمام بالخط في البدايات الأولى من الطلب والتحصيل ومع المراس تتشكل الدربة وتتراكم التجربة فتتنوع النتائج والآثار.

ولم يكن حظ التاريخ والأخبار مهضوماً، وسوقه كاسدة، وإنما كان الاهتمام به واضحاً، وذلك لتداخله مع كثير من المعارف والعلوم.

هذا ويجب التنبيه على أن ترتيبنا لهذه المعارف والعلوم بحسب الاهتمام والعناية، لا يعني أن الاهتمامات كانت متخصصة، وإنما كانت لدى الواحد من المترجم لهم في كثير من الأحيان اهتمامات متنوعة عكست سمة ثقافية لذلك العصر عموماً، ونعني بها ثقافة المشاركة باصطلاح ذلك العصر أو الثقافة الموسوعية باصطلاح هذا العصر، ولا أدل على ذلك من ابن الخطيب صاحبنا نفسه شاهداً على ذلك.

ولقد استطاعت الحياة الثقافية في القرنين السابع والثامن الهجريين أن تنمو وتزدهر ازدهاراً سريعاً وواسعاً، ولعل ذلك يرجع إلى الظروف السياسية العصيبة

التي ما انفكت تمر بها بقية دول الإسلام في الأندلس، وهي تكابد محن حروب الاسترداد النصرانية، إلى أن انزوت في تلك الحدود الضيقة في أقصى جنوب الأندلس.

أما عن حظ المرأة الغرناطية من العلم كما عبرت عنه «الإحاطة»، فإننا لم نعثر في النسخة التي بين أيدينا، إلا على عدد قليل جداً من تراجم النساء، قد لا يتعدى عدد أصابع اليد الواحدة، وقد كشفت تراجمهن على فضلهن وأدبهن على وجه الخصوص، قال ابن الخطيب يصف إحدى النساء الغرناطيات وهي عائشة بنت عبدالواحد اللخمي: «أم صاحبنا الفقيه الصوفي أبي عبدالله الشقوري. حالها: امرأة فاضلة منقطعة القرين، شهيرة الفضل معروفة الدين والنزاهة والهمة وحسن التلطف في علاج النساء... عن دين متين، وإيثار وشفقة ورحمة ومجاهدة، من المؤمنات الصالحات العاقلات، ذوات الفضل والعقل»[٢٠٠] وبعد هذا يذكر لها بيتين من الشعر برواية أبيها.

لقد استطاع ابن الخطيب من خلال هذا النص الموجز أن يكشف لنا عما كانت تتتع به المرأة الغرناطية من الحرية التي كانت تخول لها ارتياد أماكن العلم ومظان الفضل، تشجعها على ذلك التقاليد الإسلامية الراقية المنفتحة.

ولقد أتحفنا ابن الخطيب بنص تاريخي طريف كشف عن الأسلوب والطريقة التي كانت تحصل بها المرأة الأندلسية المعارف والعلوم وخاصة ما تعلق بالفقه، قال يصف رسم أحد العلماء في التدريس والفُتْيا وهو محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن علي بن الفخار الجذامي (بين ٦٣٠ - ٦٤٠، وفاته ٧٢٣ هـ): «... يدرس من لدن صلاة الصبح إلى الزوال، ثم يسند ظهره إلى طاق المسجد بعد ذلك فيقرئ، وتأتيه النساء من خلفه للفتيا فيفتيهن على حال سؤالاتهن إلى نصف ما بين العصر والعشاء الأولى، ثم يأتي المسجد الأعظم بعد الغروب فيعقد للفتيا إلى العشاء الآخرة من غير أن يقبض من أحد شيئاً»[٢٠١].

(٢٠٠) - ابن الخطيب، قطعة ما لم ينشر من الإحاطة، ص ٢٤.
(٢٠١) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٩٢.

ولعل في هذه القلة النادرة من النصوص ما يدل على أن غاية المرأة في طلب العلم كانت محدودة، لا ترقى إلى درجة توازي فيها الرجل عمقاً واتساعاً، فعادة ما كانت تتوقف عند حفظ القرآن الكريم أو بعض منه، أو معرفة حظ من الفقه أو الإلمام بشيء من الأدب.

وعلى العموم لم يعدمنا ابن الخطيب إشارة إلى وضع المرأة الغرناطية من الناحية الثقافية في مجتمعها وهذه إيجابية من إيجابيات منهجه ساعده عليه أسلوب الترجمة.

المقصد الرابع: الإحاطة والتأريخ العمراني والمعماري:

وهو ما له علاقة بالحضارة في أفخم مظاهرها وأبهى أشكالها وصورها، ويتمثل في البناء والتشييد، والمعمار والتنضيد، وذلك ما يقتضيه العمران البشري تحت تأثير حركة التطور المستمرة.

لقد وجدنا لمحاً وإشارات كثيرة من جانب ابن الخطيب تحتفل بهذا الجانب المهم سواء في القسم الأول من كتاب «الإحاطة» أو في ثنايا القسم الثاني منه المتعلق بالتراجم المختلفة للملوك والأمراء الذين جرت العادة أن تعزى إليهم المآثر والمناقب.

هذا ويجدر التنبيه على أنه لم يكن «الإحاطة» وحده الذي تضمن هذه المادة، وإنما يمكن اعتبار جميع مصنفات ابن الخطيب التي تدخل في إطار التاريخ والجغرافية مظان ثرة لإشارات حضارية ومعمارية طريفة، مثل كتاب «إعمال الأعلام» الذي حرص دائماً على الإلمام بالمظاهر المعمارية للملوك والأمراء، وخاصة المشهور منها بحيث يستحق الذكر والإشادة، ومثل «معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار» الذي يعتبر أنموذجاً رائعاً لوصف أمهات المدن الأندلسية والمغربية، و «الإحاطة» بجميع جوانبها الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والمعمارية، وكذلك كتاب «مفاخرات مالقة وسلا» الذي ألم بجميع الجوانب الحضارية لهاتين

المدينتين، وكذلك كتاب «نُفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب» الذي انفرد بوصف كثير من المدن المغربية من الناحية الحضارية مثل مراكش وآسفي وأزمور وأغمات وغيرها من المدن المغربية.

من الإشارات العمرانية التي جاءت في «الإحاطة»، الإلماع إلى الكثافة التي تمتعت بها غرناطة، وقد ألمعت على اختلافها إلى كثافة سكانية عالية، يقول ابن الخطيب مقرراً هذه الحقيقة في الأسطر الأولى من كتابه، وهو يقدم مبررات خوضه غمار التأليف في هذا النوع من التصنيف، منوهاً بمزاياها وفضائلها: «. . . ورأيت أن هذه الحضرة التي لا خفاء بما وفر الله من أسباب إيثارها، وأراده من جلال قدرها، جعلها ثغر الإسلام، ومتبوأ العرب الأعلام، قبيل رسوله، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وما خصها به من اعتدال الأقطار، وجريان الأنهار، وانفساح الاعتمار، والتفاف الأشجار»[٢٠٢].

كما اقتبس نصاً لأحد مؤرخي[٢٠٣] هذه المدينة الذين تقدموه بقليل يؤكد من خلاله المكانة العمرانية التي آلت إليها بعد خراب «إلبيرة» أم قرى إقليم غرناطة. . . وقد خلفها [إلبيرة] بعد ذلك كله مدينة غرناطة من أعظم مدنها وأقدمها، عندما انقلبت العمارة إليها من إلبيرة، . . . فهي في وقتنا هذا قاعدة الدنيا. . . لا يعدلها في داخلها ولا خارجها بلد من البلدان، ولا يضاهيها في اتساع عمارتها، وطيب قرارها، وطن من الأوطان[٢٠٤].

وقال في معرض الحديث عن المجال الأخضر المتصل الذي أحدثته البساتين والجنات الكثيرة المتلاصقة التي تتخللها المنشآت المعمارية: «تلوح نجوم الشرفات أثناء خضرائه»[٢٠٥].

وكذلك أشار إلى المنارات والقباب المرصوصة على ضفاف النهر، يقول: «قد

(٢٠٢) ـ ابن الخطيب، ج١، ص٨٤.
(٢٠٣) – هو أبو القاسم الملاحي، سبقت ترجمته في الهامش (٨٣).
(٢٠٤) – ابن الخطيب، ج١، ص ٩٣.
(٢٠٥) – ابن الخطيب، ج١، ص ١١٥.

مثلت منها [الحدائق والجنات] على الأنهار المتدافعة العباب المنارة والقباب»[٢٠٦]، إشارة إلى المساجد وما شابهها من ديار ومعاهد.

وهناك إشارة أيضاً إلى القصور العديدة، وهي دور أهل غرناطة، التي كانت تبنى على المرتفعات، ومدينة غرناطة في معظمها مرتفعات، وكانت تنصب في ذراها الأعلام الخفاقة، يقول ابن الخطيب: «فيمر - نهر شنيل - بين القصور النجدية، ذوات المناصب الرفيعة، والأعلام الماثلة»[٢٠٧].

ووجدنا نتفاً معمارية أخرى تكشف عن مذهب أهل غرناطة في ارتفاع البنيان، واعتلاء العمران، كما كشفت عن نوع من التجمعات السكنية التي تشكلت منها القصبات، أو القصور الخاصة الفارهة الشبيهة بالقصبات، يقول ابن الخطيب: «وأما ما استند إلى الجبل... فيها القصور المحروسة والمنارة المعمورة والدور العالية والمباني القصبية»[٢٠٨].

كما وصف المناطق المجاورة لمدينة غرناطة بأنها: «متزاحمة بالبيوت والأبراج»[٢٠٩].

إلى غير ذلك من الإشارات التي وردت في مقدمة «الإحاطة» وقد دل معظمه على ما يتعلق بالعمران.

ويكفي ما ذكرناه آنفاً، عند عرضنا لبعض المقومات الاقتصادية والثقافية، مثل عدة القرى، وتشبيهها بالأمصار، وكذلك نَفاق سوق العلم بها، إلى غاية ولدت لدى ابن الخطيب الرغبة في النهوض بمهمة تخليد ذكر أعلامها عن طريق الكتابة، شاهداً على الاستبحار في العمران، والاتساع في البنيان.

أما ما ورد في ثنايا تراجم الملوك والأمراء النصريين فهو كثير ويتعلق معظمه بالوصف المعماري الجمالي، أذكر منه على سبيل المثال لا الحصر النصوص الطريفة

(٢٠٦) - ابن الخطيب، ج١، ص ١١٦.
(٢٠٧) - ابن الخطيب، ج١، ص ١١٧.
(٢٠٨) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٢١.
(٢٠٩) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٢٤.

الآتية أنموذجاً شاهداً على طريقة الوصف معلقاً عليها كلما دعت الضرورة إلى ذلك :

المطلب الأول : في عمارة المساجد وما يتعلق بها :

قال ابن الخطيب في معرض الحديث عن مناقب أمير المسلمين محمد بن محمد بن محمد بن يوسف ثالث ملوك بني نصر يصف ما أنشأه من مؤسسات معمارية : «وأعظم مناقبه المسجد الجامع بالحمراء ، على ما هو عليه ، من الظرف والتنجيد ، والترقيش ، وفخامة العُمُد ، وإحكام أنوار الفضة ، وإبداع ثراها ، ووقف عليه الحمام بإزائه ، وأنفق فيه مال الجزيةَ وأغرمها لمن يليه من الكفار . . . »[٢١٠] .

والنصُّ ينطوي على الإشارات الآتية :

١ ـ بذل الوسع في عمارة المسجد تحسيناً وتفخيماً وتأثيثاً .

٢ ـ تخصيص حمام بإزائه على سبيل الوقف للطهارة وتيسير العبادة .

٣ ـ بناء هذه المرافق بمال الجزية ، وإلزام الكفار المجاورين الأداء على سبيل الغرم نكاية بهم ، وإذلالهم .

المطلب الثاني : في عمارة المارستان والمدرسة والزاوية :

وقال في معرض حديثه عن مناقب محمد الغني بالله يصف المارستان العظيم والمدرسة والزاوية وهم من أمهات آثاره : «ومن مواقف الصدق والإحسان من خارق جهاد النفس ، بناء المارستان الأعظم حسنة هذه التخوم القصوى ، ومزية المدينة الفضلى ، لم يهتد إليه غيره من الفتح الأول ، مع توفر الضرورة ، وظهور الحاجة ، فأغرى به همة الدين ، ونفس التقوى ، فأبرزه موقف الأخذان ، ورحلة الأندلس وفذلكة الحسنات ، فخامة بيت ، وتعدد مساكن ، ورحب ساحة ، ودرور مياه ، وصحة هواء وتعدد خزائن ، ومتوضآت ، وانطلاق جراية ، وحسن ترتيب ، أبر على مارستان مصر ، بالساحة العريضة ، والأهوية الطيبة ، وتدفق المياه من

(٢١٠) - ابن الخطيب ، ج١ ، ص ٥٤٦ - ٥٤٧ .

فوارات المرمل، وأسود الصخر، وتموج البحر، وانسدال الأشجار، إلى موافقته إياي، وتسويغه ما اخترعته[٢١١] بإذنه . . . »[٢١٢].

ويدل النص على المظاهر الآتية :

١ ـ عظم المارستان، ومظاهر هذا العظم هي :

أ ـ تعدد المساكن والبيوت المحتضنة للمرضى، والمخصصة دون شك أيضاً للأطباء والطلبة .

ب ـ سعة المساحة، وانفساح المجال .

٢ ـ تنوع المرافق الصحية المختلفة، وتتمثل في الأمور الآتية :

أ ـ وفرة المياه .

ب ـ صحة الهواء .

ت ـ تعدد الخزائن .

ث ـ تعدد دورات المياه المعدة للوضوء والغسل .

٣ ـ سعة المجال الحيوي الجمالي الذي يبعث على الراحة والاستجمام النفسيين، وهذا ركن أساسي في التطبيب والتمريض ومظاهره هي :

أ ـ حسن الترتيب والتنظيم .

ب ـ انفساح الساحة، واتساع الباحة .

ت ـ طيب الأهوية .

ث ـ تدفق المياه من الفورات ومن أفواه أسود الصخر المنحوت .

ج ـ التفاف الأشجار، وانسدال الأغصان .

---

(٢١١) - يعني ابن الخطيب هنا نفسه، ويشير إلى إشرافه على هذه المنشآت حين بنائها، وما كان يمليه على البناة والمهندسين، من مقترحات وتوجيهات هندسية ومعمارية، بما يوحي بسعة صلاحياته، ودرايته بهذا الفن، الذي برع فيه الأندلسيون براعة نادرة .

(٢١٢) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٥٠ - ٥١ .

٤ ـ تخصيص الجراية الكافية لضمان أداء الوظائف المنوطة به .

والنص فضلاً عمّا ذكر يكشف أن هذا المارستان هو الأول من نوعه في الأندلس منذ الفتح الأول رغم الحاجة الملحة إليه .

وأيضاً إن الناظر في جميع المظاهر المذكورة ليقضي العجب في تطابقها تماماً مع مواصفات المستشفيات الحديثة في الدول المتقدمة رغم الفاصل الزمني الهائل ، بل إنها قد لا ترقى إلى مستواه في الجمالية والفنية كما هو ملحوظ .

المطلب الثالث : في المدارس ومعاهد العلم والمعرفة :

قال ابن الخطيب منوهاً بمناقب الحاجب أبي النعيم رضوان (ت : ٧٦٠هـ) : «أحدث المدرسة بغرناطة ، ولم تكن بها بعد ، وسبب إليها الفوائد ، ووقف عليها الرباع المغلة وانفرد بمنقبها ، فجاءت نسيجة وحدها بهجة وصدرا وظرفاً وفخامة ، وجلب الماء الكثير إليها من النهر ، فأبد سقيه عليها . . . »[٢١٣] .

وقال متحدثاً عن نفسه مشيراً إلى آثاره : « . . . وأجريته بطيب نفسه ، من اتخاذ المدرسة والزاوية ، وتعيين التربة ، مغيراً في ذلك كله على مقاصد الملوك ، نقشاً عليه ، بطيب اسمه في المزيد ، وتخليد في الجدرات للذكر ، وصوناً للمدافع غير المعتادة في قلب بلده بالمقاصر والأصونة ، وترتيل التلاوة آناء الليل وأطراف النهار . . . »[٢١٤] .

وقال في موضع آخر متحدثاً عن نفسه أيضاً : « . . . ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة ، بكر الحسنات بهذه الجهة ، بل بالجزيرة فيما سلف من المدة»[٢١٥] .

المطلب الرابع : في بناء السور والأبراج :

قال في مناقب الحاجب رضوان المذكور آنفاً والنص له اتصال بما ذكر : « . . .

(٢١٣) - ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج١ ، ص ٥٠٨ - ٥٠٩ .
(٢١٤) - ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٢ ، ص ٥١ .
(٢١٥) - ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٤ ، ص ٤٤٦ .

وأدار السور الأعظم على الربض الكبير المنسوب للبيازين، فانتظم منه النجد والغور في زمان قريب، وشارف التمام لهذا العهد، وبنى من الأبراج المنيعة في مثالم الثغور وروابي مطالعها المنذرة، ما ينيف على أربعين برجاً، فهي ماثلة كالنجوم ما بين البحر الشرقي من ثغر بيرة إلى الأحواز الغربية، وأجرى الماء بجبل «مورور» مهتدياً إلى ما خفي على من تقدمه. . . »[٢١٦].

المطلب الخامس: في إتمام القنطرة وبناء مسجد دار القضاء وترميم مساجد عدة:

قال معدداً مناقب محمد بن عبد الرحمن الكاتب (ت: ٦٠٧): «أشهد لما قربت وفاته، أنه كان قد أخرج في صحته وجوازه أربعة دنانير من صميم ماله لتتميم القنطرة التي بنيت على وادي شنجيل بخارج غرناطة، وكان قبل ذلك قد بنى مسجد دار القضاء من ماله، وتأنق في بنائه، وأصلح مساجد عدة»[٢١٧].

ويمكن أن نستخلص من النص الدلالات الآتية:

١ ـ أن ذوي اليسار من أعيان الدولة كانوا أحياناً يساهمون في إنجاز المرافق العامة أو تتميم ما أنجزته الدولة من أموالهم الخاصة على سبيل التحبيس والوقف.

٢ ـ أن هيئة القضاء كان لها مكان تدير فيه شؤونها وتسيِّر من خلاله أمورها ويسمى «دار القضاء».

٣ ـ أنها لم تكن من الناحية المعمارية تقل جمالية وفنية عن باقي المنشآت المعمارية الأساسية التي تتوفر عليها العمارة الإسلامية وخاصة في المدن العريقة العامرة والنبيهة مثل غرناطة.

٤ ـ أن المسجد مؤسسة دينية وتربوية أساسية وضرورية في كل معمار.

٥ ـ أن المساجد عادة كان يتعهدها الإصلاح والترميم، ولعل هذا هو السر الذي كمن وراء بقاء العديد من المساجد عبر التاريخ.

(٢١٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٥٠٨ - ٥٠٩.
(٢١٧) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٢١١.

المطلب السادس: في العناية بقبور الملوك وأضرحتهم:

جاء في وصف قبر السلطان إسماعيل بن فرج بن إسماعيل (٧١٣هـ ـ ٧٢٥هـ): «. . . وتنوهي الاحتفال بقبره نقشاً وتخريماً، وإحكاماً وحلياً، وتمويهاً، يشق على الوصف، وكتب بإزاء رأسه في لوح الرخام ما نصه. . .»[٢١٨].

ثم يذكر نص ما كتب على لوح الرخام بعد حذف عبارات الافتتاح بما دل على سعة مساحة اللوح لأنه استغرق صفحتين كاملتين تقريباً.

المقصد الخامس: الإحاطة والتأريخ للنظم العسكرية:

من النصوص القيمة التي حفلت بها مقدمة الإحاطة، ما ألم فيه ابن الخطيب معرفاً بطبيعة جند مملكة غرناطة وما يتعلق بالجانب العسكري بصفة عامة.

عرَّفنا الجند من حيث الصنف، والقيادة، والزي، ونوع السلاح، وبعض التطورات الحاصلة في ذلك.

فأخبر بأن عسكر المملكة كان مؤلفاً من نوعين من الجند: «وجندهم صنفان، أندلسي وبربري»[٢١٩]، وهو تصنيف قائم على أساس «الجنسية» المراعية للخصوصية الحضارية والجغرافية المرتدة إلى السيادة الوطنية، دونما تعارض مع ما يمليه التعاون المشترك الذي تباركه وحدة الدين والمصير.

كما أخبر أن القيادة لم تكن موحدة، وإن كانت مشتركة، بحيث كان لكل صنف قيادته ونظمه المستقلة، فقال عن قيادة الأندلسي: «والأندلسي منها يقودهم رئيس من القرابة، أو حظي من شيوخ الممالك»[٢٢٠]، وقد كشف النص كما هو واضح أن القيادة العليا للعسكر الأندلسي كانت محصورة في قرابة السلطان وفي صنعاء الدولة وخلصاء الإيالة، لأن الملك في ذلك العصر كان غلبة وعصبية.

(٢١٨) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٢٩٣.
(٢١٩) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٣٦.
(٢٢٠) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٣٦.

وقال عن قيادة الجند البربري المغربي: «والبربري منه يرجع إلى قبائله المرينية، والزناتية، والتجانية، والمغراوية، والعجيسية، والعرب المغربية، إلى أقطاب ورؤوس، يرجع أمرهم إلى رئيس على رؤسائهم، وقطب لعرفائهم، من كبار القبائل المرينية، يمت إلى ملك المغرب بنسب»(٢٢١).

والنص يكشف عن المعلومات الآتية:

١ ـ أن الجند البربري يتألف من قبائل بربرية متعددة، وإن كانت تجمعهم أصول نسبية متقاربة داخل العنصر البربري برمته، تؤلف بينهم عصبية قومية موحدة.

٢ ـ أن الجند البربري كان يضم في ثناياه جنداً عربياً مغربياً له مكانته وعصبيته.

٣ ـ أن القيادة العسكرية كانت موزعة على القبائل البربرية جميعها، حيث كان على رأس كل قبيلة قائد منها يجمع كلمتها ويوحد صفوفها، بما تقدم من صفات قيادية مؤهلة، وهذا التقسيم والتصنيف يوحي بالقوة العصبية وكثرة التعداد.

٤ ـ أن القيادة العليا للجند المغربي برمته ترجع إلى رأس الرؤوس، ورئيس الرؤساء، ويكون كبير كبراء القوم من القبائل المرينية التي تملك المغرب.

٥ ـ أن هذا الرئيس يجب أن تربطه بملوك المغرب من بني مرين صلة النسب.

٦ ـ كما دل هذا النص على تقليد أصبح راسخاً، بين دولة بني الأحمر الأندلسية، ودولة بني مرين المغربية، في مجال التعاون العسكري ضد العدو النصراني، ولد رتبة عسكرية نبهت منذ البدايات الأولى لتأسيس هذه الدويلة الأندلسية، بما تعين ـ تحت ضغط الطلب والإلحاح ـ على المغاربة أن يبذلوه من تضحيات وبذل من أجل الدفاع عن بيضة الإسلام في الأندلس استجابة للوازع الديني.

ولقد سميت هذه الوظيفة العسكرية بـ «مشيخة الغزاة»، وكان يعين رأسها بظهير شريف من قبل سلطان المغرب يتكلف بإمضائه سلطان الأندلس بتفويض منه.

ومزيداً من تسليط الضوء على هذه الخطة، نجرد لها مطلباً نوضح من خلاله

(٢٢١) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٣٦.

حيثياتها التاريخية، وتداعياتها السياسية بالمنطقة، سواء تعلق الأمر بالمغرب أو بالأندلس.

المطلب الأول: مشيخة الغزاة والحيثيات التاريخية:

يسجل ابن الخطيب عند أول رصد لهذه الخطة، منوهاً بنباهتها، على عهد السلطان إسماعيل بن فرج بن إسماعيل (٧١٣هـ- ٧٢٥هـ)، تحت عنوان «رئيس جنده الغربي» مشيراً إلى تاريخ نشأتها فيقول: «ومن أول هذه الدولة نبهت هذه الرتبة، واستحقت إفرادنا إياها»(٢٢٢).

وتذكر مصادر التاريخ أيضاً، وعلى رأسها «كتاب العبر» الذي يعد المورد الأساس في هذا الشأن، أن الأندلس بعد سقوط الدولة الموحدية التي كانت راعيتها وحاميتها مرت من الناحية السياسية والعسكرية على وجه الخصوص بأسوأ الأحوال وأضعفها، فكانت: «... قليلة الحامية، ضعيفة الأحوال، إلا من يلهمه الله إلى عمل الجهاد من قبائل زناتة المتلقفين كرة الملك والمقتسمين ممالك الغرب، خصوصاً بني مرين أهل المغرب الأقصى لاتصال عدوة الأندلس ببسائطه، وتعدد الفِراض ببحر الزقاق القريب العدوتين»(٢٢٣).

حرص زعماء بني مرين منذ الإرهاصات الأولى لتأسيس دولتهم على تجديد رسوم الجهات في الأندلس، ومواصلة مسيرة الكفاح المقدس، الذي أصبح عادة جارية، وسنة متبعة، تغذيها البواعث الدينية والسياسية وكذا المنافسة العصبية، والنزعات القبلية المتنامية، كسباً للمزيد من النفوذ، وتوسيعاً لنطاق القيادة، قال ابن خلدون مسجلاً هذا، ومزيحاً النقاب عن تحرق بعض القيادات المرينية للانتقال إلى الأندلس برسم الجهاد: «... وكان ليعقوب بن عبد الحق أمل في الجهاد وحرص عليه، واعتزم في سلطان أخيه أبي يحيى على الإجازة فمنعه ضنانة به على الاغتراب منه...»(٢٢٤).

(٢٢٢) - ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٨٠.
(٢٢٣) - ابن خلدون، كتاب العبر، ج١٤، ص ٧٦١ - ٧٧٢.
(٢٢٤) - ابن خلدون، كتاب العبر، ج١٤، ص ٧٦٢.

بيد أن الأمير يعقوب بن عبد الحق سرعان ما تصدى لمهمة الجهاد بالأندلس فور اعتلائه سرير السلطنة بعد أخيه الأمير أبي يحيى المذكور، منفذاً طائفة كبيرة من الغزاة، فيهم الأمراء والزعماء من بني أخيه، مبعداً إياهم عن ساحته حسماً للمنافسة، ودفعاً لمغبة الخروج، وإلهائهم بمنصب القيادة والزعامة العسكرية، يقول ابن خلدون أيضاً: «ولم ينشب يعقوب بن عبد الحق أن قام بسلطان المغرب بعد أخيه أبي يحيى وشغل بشأنه، وأهمه شأن بني أخيه إدريس بن عبد الحق، بما كان فيهم من الترشيح والمنافسة لبنيه، واستأذنه عامر بن إدريس منهم في الجهاد بالعدوة، فاغتنمها منه وعقد له من مطوعة زناته على ثلاثة آلاف أو يزيدون... وفصلوا إلى الأندلس سنة إحدى وستين [وستمائة]، فحسنت آثارهم، وكرمت مقاماتهم»(٢٢٥).

ومما يؤكد أن انتقال الغزاة من زناتة إلى الأندلس لم يكن خالصاً لغرض الجهاد فحسب، وأنه لابسته دوافع سياسية ضرورية قول ابن خلدون: «وكان هؤلاء القرابة من أولاد رحُّو بن عبدالله، وإدريس بن عبدالله، وإدريس بن عبد الحق... لما أوجسوا الخيفة من السلطان، واستشعروا النكير منه، لحقوا بالأندلس تورية بالجهاد، وانتباذاً على الشول، فراراً عن محله، وقد كان السلطان أبو يوسف متى أحس بريبة منهم في ذلك، إذا انتقضوا عليه، يشخصهم إلى الأندلس، فاجتمعت منهم عند ابن الأحمر عصابة من أولاد عبد الحق...»(٢٢٦).

ولم يكن بنو مرين في الساحة وحدهم، بل نافسهم عليها سائر أشياخ زناتة ورؤسائهم المنتشرين في كافة ربوع بلاد المغرب التماساً للمجد والسؤدد السياسيين، بما أكسب الأندلس على عهد بني الأحمر مناعة عسكرية لا بأس بها، وقوة سياسية لا ينكر فضلها، يقول ابن خلدون: «ونافسهم أقيال زناتة في مثلها، فاجتمع أبناء الملوك بالمغرب الأوسط فتعاقدوا على الإجازة إلى الجهاد فيمن خف معهم من

(٢٢٥) - ابن خلدون، كتاب العبر، ج١٤، ص ٧٦٢ - ٧٦٣.
(٢٢٦) - ابن خلدون، كتاب العبر، ج١٤، ص ٧٦٥.

قومهم سنة ست وسبعين وستمائة، فامتلأت الأندلس بأقيال زناتة، وأعياص الملك منهم»[٢٢٧].

المطلب الثاني: مشيخة الغزاة وتوازن القوى السياسية:

كانت مشيخة الغزاة، كما لاحظنا، منذ البداية واضحة النشأة بينة الأغراض، معروفة دوافع قيامها، ولكن قد تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد اضطرت الظروف السياسية المستجدة السلطة النصرية إلى استخدام مشيخة الغزاة كقوة سياسية وعسكرية تابعة لبني مرين لصالحها لتحمي نفسها من الأطماع المرينية المحتملة، لضمان استمرارها، وتقوية مركزها في المنطقة، يقول ابن خلدون: «ولما هلك ابن الأحمر (محمد الغالب بالله) وولي ابنه السلطان الفقيه، ووفد على السلطان يعقوب بن عبد الحق صريخاً للمسلمين، فأجاز أول إجازته سنة ثلاث وسبعين (وستمائة) وأوقع بجيوش النصرانية، وقتل الزعيم دنُّنة، واستوى له الغلب على الأندلس، فبدا لابن الأحمر في أمره وخشي مغبته، وتوقع أن يكون شأنه معه شأن يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عباد، وكان بالأندلس من قرابته بنو أشقلولة قد قاسموه في ممالكها... فلما استوت قدم السلطان يعقوب بن عبد الحق بالأندلس وصل هؤلاء الثوار به أيديهم، فخشيهم ابن الأحمر جميعاً على نفسه، وقلب للسلطان أبي يوسف يعقوب ظهر المجن، واستظهر عليه بالأعياص من قرابته»[٢٢٨].

المطلب الثالث: مشيخة الغزاة ومؤهلات الترشيح:

كانت هناك جملة من المؤهلات والصفات التي تراعى في اختيار قادة هذه الخطة، تستشف من النصوص التي أوردها ابن الخطيب سواء عند الترجمة لهم، أو عند الترجمة للملوك الذين تقلدوا لهم هذه الرتبة، والتي لم تكن تخرج في الأعم الأغلب عن:

(٢٢٧) - ابن خلدون، كتاب العبر، ج١٤، ص ٧٦٣.
(٢٢٨) - ابن خلدون، كتاب العبر، ج١٤، ص ٧٦٤ - ٧٦٥.

١ ـ صلة القرابة من سلاطين بني مرين .

٢ ـ الكفاءة العسكرية والبلاء الحسن في ميدان الحروب .

٣ ـ قوة عصبية القبيل الذي ينتمي إليه .

٤ ـ الحزم والرأي والدهاء .

يشهد لهذا كله قول ابن الخطيب على سبيل المثال لا الحصر يصف شيخ الغزاة على عهد السلطان إسماعيل بن فرج بن إسماعيل المذكور آنفاً : «الشيخ البُهمة لباب قومه ، وكبير بيته ، أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الحق . . . »(٢٢٩) .

وقال في شيخ الغزاة على عهد السلطان يوسف بن إسماعيل بن فرج (٧٣٣هـ ـ ٧٥٥هـ) : « . . . الشيخ أبو ثابت عامر بن عثمان بن إدريس بن عبد الحق ، قريع دهره في النكراء والدهاء ، المسلم له في الرتبة ، عتاقة ورأياً وثباتاً . . . »(٢٣٠) .

وقال في آخر وهو آخر من نذكره ، وكان على عهد السلطان محمد الغني بالله إبان دولته الأولى (٧٥٥هـ ـ ٧٦٠هـ) : «أقر على الغزاة شيخهم على عهد أبيه أبا زكريا يحيى بن عمر بن رحو بن عبد الحق مطمح الطرف ، ومرمى الاختيار ، ولباب القوم ، حزماً ودهاء ، وتجربة وإدراكاً ، نسّابة القبيل ، وأصمعي لغتهم ، وكسرى سياستهم . . . »(٢٣١) .

المطلب الرابع : مشيخة الغزاة وجهة التعيين :

رغم أن الغزاة في معظمهم كانوا مغاربة ، فإن صلاحيات تعيين شيوخهم وأمرائهم كانت ترتد في الغالب إلى سلطان مملكة بني نصر ، فهو الذي يتولى أمر الاختيار وفق الشروط المؤهلة التي يراها كما يلاحظ من خلال العديد من النصوص التي جاءت في الإحاطة وغيره ، كما هو بين من خلال النص المذكور ، ويقول ابن خلدون مؤكداً أيضاً هذا مرتباً مشيخة الغزاة كما انتظمها التداول : «وكان ابن

(٢٢٩) - ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج١ ، ص ٣٨١ ، وانظر اللمحة البدرية ، ص ٨٠ .

(٢٣٠) - ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٤ ، ص ٣٢١ ، وانظر اللمحة البدرية ، ص ١٠٥ .

(٢٣١) - ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٢ ، ص ١٦ ، وانظر اللمحة البدرية ، ص ١١٦ .

الأحمر كثيراً ما يعقد لهم على الغزاة المجاهدين من زناتة، لدار الحرب، فعقد أولاً لموسى بن رحو سنة ثلاث وسبعين، ولأخيه عبد الحق بعد انصرافه إلى المغرب، ثم لإبراهيم بن عيسى بعد انصرافهما معا كما قلناه، ثم رجعا فعقد لموسى بن رحو ثانية شياخة، وثبت له قدماً في الرياسة ليحسن له به دفاع السلطان أبي يوسف عنهم، ثم تداولت الإمارة فيهم ما بينهم وبين عمومتهم»[٢٣٢].

وكان شيخ الغزاة يعين بموجب ظهير سلطاني كريم، يتولى صياغته حُذاق البلاغة، وأمراء البيان من كتاب الدولة السامين، تنويهاً بمكانة الخطة وأصحابها من الدولة، ولكي نأخذ فكرة عن الظهير وصياغته، نمثل بواحد نختصره إحماضاً لأنه من نسج يراع صاحبنا لسان الدين بن الخطيب، يقول على لسان سلطانه: «هذا ظهير كريم، منزلته في المظاهر الكريمة منزلة المعتمدية في الظهر الكرام... أمر به الأمير عبدالله محمد ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المؤمنين أبي الوليد بن نصر... لوليه الذي هو عماد سلطانه، وواحد خلصانه، وسيف جهاده، ورأس أولي الدفاع من بلاده، وعضد ملكه، ووسطى سلكه، الشيخ الكذا (هو أبو زكريا يحيى بن عمر بن رحو)... فهو واحد الزمان... وسمو المكان... ومتوا إلى ملك المغرب ببنوة العمومة... فألقى إليه في مهم الأمور بالمقاليد، وألزمه ملازمة الحضور مجلسه السعيد... وأقامه بهذه الجزيرة الأندلسية عماد قومه، فهو فيهم يعسوب الكتيبة، ووسطى العقد الفريد، وفذلكة الحساب... فهو شيخ الغزاة على اختلاف قبائلهم، وتشعب وسائلهم... ومن وقف على الظهير الكريم من الغزاة آساد الكفاح... وأمر أن يعلموا قدر العناية المشرقة، واليد المنطلقة، والحظوة المنطلقة، فتكون أيديهم فيما قلدوا رداً ليده... فقدره فوق الأقدار، وأمره الذي هو نائب أمره... على توالي الأيام، وتعاقب الأعصار»[٢٣٣].

المطلب الخامس: مشيخة الغزاة، الامتيازات والصلاحيات:

من خلال النظر في نصوص الظهائر تبين أن شيخ الغزاة كانت له صلاحيات

(٢٣٢) - ابن خلدون، كتاب العبر، ج١٤، ص ٧٦٦.

(٢٣٣) - ابن الخطيب، ريحانة الكُتّاب ونُجعة المُنتاب، ج٢، ص ٦٤ - ٦٦، وانظر ج٢ من ص ٦٦ إلى ص ٧٣.

عدة، ومهام جمة يضطلع بها، بإذن سلطان المملكة، وتحت إشرافه، وهي وظائف في أغلبها ترجع إلى الشؤون الحربية والعسكرية وما يتعلق بها.

وسأذكر بعض الظهائر التي تكشف عن ذلك ثم نستخلص منها ما يمكن استخلاصه:

١ ـ جاء في أحد الظهائر قول ابن الخطيب على لسان سلطانه «... فقدمه أعلى الله قدمه... شيخ الغزاة بحضرتها العلية، وسائر بلاده النصرية، ترجع القبائل والأشياخ إلى نظره، في السكنات والحركات... فليتول ذلك تولاه الله... مطلقاً عنان الثناء على الغناء، مُعاملاً بصديق الإطراء لذوي الآراء، متعمِّداً الإغضاء هفوات المضاء، معرفاً بالقَبائل والعشائر والفضائل، كلما وفدوا من الآفاق للاستلحاق منها على مظان الاستحقاق... محتاطاً على الأموال التي يُملى بها أكف الجباية، ضروع العباد، واضعاً مال الله حيث وضعه الحق من الورع والاستزادة، سيما في هذه البلاد حتى تعظم المزايا والمزائن، وتتوفر الكتائب والخزائن...»[٢٣٤].

٢ ـ وجاء في آخر قوله: «... فقدمه... شيخ الغزاة المجاهدين... على مدينة مالقة حرسها الله، أخت حضرة ملكه، وثانية الدرة الثمينة من سلكه ودار سلفه، وقرارة مجده... راجعاً إليه نظر القواعد الغربية، رُندة وذكوان، وما إليها، رجوع الاستقلال والاستبداد، والعز الفسيح المجال، البعيد الآماد، يقود جميعها إلى الجهاد...»[٢٣٥].

٣ ـ وجاء في آخر قوله: «... وعقد له الولاية الجهادية التي لا تعدل بولاية... فليتولَّ ذلك تولى مثله... ولينظر فيمن لديه من القبائل الموفورة، والجموع المؤيدة المنصورة، نظراً يريح من العلل، ويبلغ الأمل، ويرعى الهمل، ويحسن القول، وينجح العمل، منبهاً على أهل الغنى والاستحقاق، مسدداً لعوائد

(٢٣٤) - ابن الخطيب، ريحانة الكُتّاب ونُجعة المُنتاب، ج٢، ص ٦٧ - ٦٨.
(٢٣٥) - ابن الخطيب، ريحانة الكُتّاب ونُجعة المُنتاب، ج٢، ص ٧٠.

الأرزاق، معرفاً بالغرباء الواردين من الآفاق . . . مستجيداً للأسلحة والكراع، مبادراً هيئات الصريخ بالإسراع، مستدعياً للمشورة التي يقع الحكم فيها على حصول الإجماع، رفيقاً بمن ضعف عن طول الباع . . . »[٢٣٦].

ويمكن أن نستنبط من نصوص الظهائر المذكورة الدلالات الآتية:

١ ـ أن شيخ الغزاة هو القائد الأعلى لجميع القوى العسكرية، الموزعة على جميع القبائل الزناتية بخاصة، والبربرية بعامة، المقيمة في مملكة غرناطة برسم الجهاد، تتوزعها مشيخات وقيادات متعددة.

٢ ـ أن شيخ الغزاة يكون مقره حضرة غرناطة، ليكون قريباً من السلطان، تيسيراً للملابسة، وتسهيلاً للاتصال، ودفعاً لمغبة المكروه.

٣ ـ أنه يتولى الإشراف المباشر على كافة شؤون القبائل وأشياخها، سواء أثناء الحركة، أو أثناء السكون، بحيث لا يغيب عن نظره شأن من شؤونها، وهذا يوحي بحجم الوزن الذي كانت تحتله هذه القبائل في الأندلس.

٤ ـ أن شياخة الغزاة قد تتقاسمها قيادات متعددة، تتوزعها أقاليم ومدن متنوعة، حسب ما تقتضيه الضرورة السياسية، كما يفهم من النص الثاني حيث فوض لشيخ الغزاة بموجبه الإشراف العسكري على مالقة والقواعد الغربية المجاورة لها الراجعة إليها.

٥ ـ أن شيخ الغزاة قد يبلغ أقصى ما يمكن بلوغه من الامتيازات بشأن هذه الخطة، فيمنح حق الاستقلال والاستبداد في التصرف أمراً ونهياً فيما له التعلق بمهمته العسكرية الجهادية.

٦ ـ أنه ينبغي له أن يطلع السلطان بالأخبار المستجدة بشأن انتقال القبائل والعشائر من أقطار سائر بلاد المغرب، وكذلك يعرفه بأحوالهم المادية، ومراكزهم الاجتماعية، لكي تتخذ في شأنهم الإجراءات اللازمة.

(٢٣٦) - ابن الخطيب، ريحانة الكُتّاب ونُجعة المُنتاب، ج٢، ص ٧٢ - ٧٣.

٧ ـ أنه ينبغي له أن يحتاط في نفقات أموال الجباية، متصرفاً بالعدل في تسيير الميزانية وفق ما يقتضيه الحق، ويعينه الشرع.

ولقد كشف نص لابن خلدون عن مدى ما تمتع به الغزاة من امتيازات مادية وسط الإيالة النصرية، يقول ابن خلدون: «وكانت إمارة الغزاة بالأندلس مستأثرة بأمر السيف والحرب، مقاسمة للسلطان أكثر الجباية في الأعطية والأرزاق، بما كانت الحاجة إليهم في مدافعة العدو ومقارعة ملك الأندلس، فكانوا يفضلون لهم عن استطالتهم عليهم لمكان حاجتهم إلى دفاع العدوين...»[٢٣٧].

٨ ـ أن شيخ الغزاة ترجع إليه أيضاً مهمة اقتناء الظهر والعتاد، إعداداً للقوة.

المطلب السادس: مشيخة الغزاة والاستغناء عنها:

كانت خطة مشيخة الغزاة سلاحاً ذا حدين بالنسبة للنصريين والمرينيين على حد سواء لمن تأمل، لذلك كانت مصدر قلق أقض مضجع حكام كلتا الدولتين على امتداد السنين، فهي من جهة حامية وقاعدة عسكرية مرينية قوية داخل التراب الأندلسي، وهذا يثير المخاوف لدى مسؤولي الإيالة النصرية، وهي من جهة أخرى قيادة عسكرية وسياسية مرينية لها وزنها مقيمة بالأندلس شبيه حالها بحال القيادات السياسية والعسكرية اللاجئة لجوءاً سياسياً في دولة أخرى في زماننا، وهذا يثير مخاوف المسؤولين في الإيالة المرينية.

ولقد أثبت التاريخ تورط كلتا الدولتين في السياسة الداخلية لكل دولة على حدة، مما أثار الشنآن، وأنمى العداء، وجلب الفوضى وعدم الاستقرار، وفوت فرص الانتصار، وخدم مصالح العدو المشترك.

ولعل هذه المسوّغات وغيرها هي التي كانت من وراء محاولة مملكة بني نصر بإيعاز من الوزير المؤرخ صاحبنا لسان الدين بن الخطيب الاستغناء عن هذه الخطة جملة، بإقصاء الأعياص من بني مرين اكتفاء برجال دولته، دفعاً لوسواس الريبة، وطرداً لمخيلة الخيانة، عندما سنحت الفرصة، مكتفياً في ذلك بولده، يقول ابن

(٢٣٧) - ابن خلدون، كتاب العبر، ج١٤، ص ٧٨٥.

خلدون مقرراً هذه الحقيقة: «. . . حتى إذا سكن ريح الطاغية، بما كان من شغله بفتنة أهل دينه منذ منتصف هذه المائة [المائة الثامنة]، وشغل بنو مرين أيضاً بعد مهلك السلطان أبي الحسن، وتناسوا عهد الغلب على أقتالهم وجيرانهم، وتنوسي عهد ذلك أجمع، فاعتزم صاحب الأندلس على محو هذه الخطة على إخلاء الجو له، فتقبض على يحيى بن عمر وعلى بنيه سنة أربع وستين كما ذكرناه، وعقد على الغزاة المجاهدين لابنه ولي عهده الأمير يوسف، ومحا رسم الخطة ببني مرين بالجملة إلى أن توهم فناء الحامية منهم بفناء بيوت العصبية الكبرى، فراجع رأيه في ذلك» (٢٣٨).

والنص يلمع في ختامه إلى أن ما بلغ إليه الجهد في هذه المرحلة التاريخية هو إقصاء الأعياص من بني مرين عن الساحة العسكرية.

أما إلغاء الخطة البتة فسيتم في مرحلة لاحقة، قال ابن خلدون مشيراً إلى تاريخ الاستغناء عن هذه الرتبة: «وأغفل صاحب الأندلس هذه الخطة من دولته، ومحا رسمها من ملكه، وصار أمر الغزاة المجاهدين إليه، ويباشر أحوالهم بنفسه، وعمهم بنظره، وخص القرابة من المرشحين منهم بمزيد تكرمته وعنايته، والأمر على ذلك لهذا العهد، وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة»(٢٣٩).

ولعل حسم داء هذه الخطة من قبل سلطان المملكة النصرية في هذه المرحلة التاريخية، والذي كان متردداً حينما فاتحه في شأنها الوزير ابن الخطيب، فيه ما فيه من ترجح الرأي الأكيد، وحصافة ما ذهب إليه ابن الخطيب في الزمن المبكر، رغم أن هذا نفسه كان وبالاً على ابن الخطيب، إذ أودى بحياته، وقد اختلت الأوضاع، وانقلبت الموازين، بما لم يكن متوقعاً في الحسبان.

ويؤكد أمر الاستغناء عن هذه الخطة بالقرابة نصان لظهيرين كريمين جلبهما ابن الخطيب في كتابه «ريحانة الكتاب» تمثل بواحد منهما مختصراً كالعادة، يقول ابن الخطيب على لسان سلطانه تحت عنوان «واقتضى نظر السلطان أعزه الله أن قدم

(٢٣٨) - ابن خلدون، كتاب العبر، ج١٤، ص ٧٨٥، وانظر ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٣٨.
(٢٣٩) - ابن خلدون، كتاب العبر، ج١٤، ص٧٨٨.

ولده على الجماعة الكبرى من جيش الغزاة بحضرته العلية عند قبضه على يحيى بن عمر، فكتبت في ذلك ظهيراً كريماً نصه: . . . فقدمه على الجماعة الأولى كبرى الكتائب ومقاد النجائب، وأجمة الأبطال، ومزنة الودق الهطَّال، المشتملة من الغزاة على مشيخة آل يعقوب، نسب الملوك الكرام، وأعلام الإسلام، وسائر قبائل بني مرين، ليوث العرين، وغيرهم من أصناف القبائل، وأولى الوسائل، يحوط جماعتهم، ويرفع بتفقده إضاعتهم، ويستخلص لله ولأبيه طاعتهم. . .»[٢٤٠].

هذه هي مشيخة الغزاة كما تقرر أمرها من خلال مظانها التاريخية، ألمعت إلى حقيقتها، ونشأتها وتطورها، ونهايتها.

المطلب السابع: المؤسسة العسكرية، الزي والأسلحة:

أما بشأن الزي العسكري، فقد قدم ابن الخطيب في ذلك وصفاً دقيقاً بيد أنه في الظاهر اقتصر على صفة الجند الأندلسي فقط قديماً وحديثاً، فقال يصف الزي القديم: «وزيهم في القديم شبه زي أقتالهم[٢٤١]؛ البيضات، واتخاذ عراض الأسنة، وبشاعة قرابيس[٢٤٢] السروج، واستركاب حملة الرايات خلفه، كل منهم بصفة تختص بسلاحه، وشهرة يُعرف بها»[٢٤٣]. وقال يصف الزي الحديث على عهده: «ثم عدلوا الآن عن هذا الزي الذي ذكرنا، إلى الجواشن[٢٤٤] المختصرة، والبيضات المرهفات، والسروج العربية، واليَلَبُ[٢٤٥] اللمطية، والأسل[٢٤٦]

(٢٤٠) - ابن الخطيب، ريحانة الكُتّاب ونُجعة المُنتاب، ج٢، ص ٧٦، وانظر ص ٧٧ - ٨٠.

(٢٤١) - يعني بأقتالهم أعداءهم من النصارى.

(٢٤٢) - قرابيس: جمع قَرَبوس وقُرَبوس، ويدعى أيضاً القَرَبوت وهو حنْوُ السرج وللسرج قربوسان، المقدم وفيه العضدان، وهما رِجْلا السرج، والمؤخر وفيه رجلا المؤخرة، ابن منظور، لسان العرب، مادة «قرب»، ج٥، ص ٣٥٧٠.

(٢٤٣) - ابن الخطيب، ج١، ص ١٣٦.

(٢٤٤) - الجواشن: جمع جوشن، وهو الصدر، وقيل ما عَرُض من الصدر، والجوشن أيضا هو اسم الحديد الذي يلبس من السلاح، وهو الدرع كذلك. ابن منظور، لسان العرب، مادة «جشن»، ج١، ص ٦٢٩.

(٢٤٥) - اليَلَبُ: جمع يَلَبَةٌ، وهي الدروع والتَّرسَةُ، وقيل الدرق، وقيل هي البيض، تصنع من جلود الإبل، وتجعل على الرؤوس مكان البيْض، واليلب الفولاذ من الحَديد أيضاً. ابن منظور، لسان العرب، مادة «يلب»، ج٦، ص ٤٩٦٥.

(٢٤٦) - الأسل: نبات له أغصان كثيرة دقاق بلا ورق، والأسل كذلك الرماح على التشبيه به في اعتداله وطوله

العطفية»[٢٤٧].

كما كشف ابن الخطيب في نهاية الحديث عن صنف آخر من الجند، هو الأكثر والأعم ويتمثل في عامة الشعب وأغلب الجمهور، الذي لا يقل كفاءة ولا استعداداً من الصنفين المذكورين، ويمثل جانب التعبئة والإعداد الذي كان عليه الأندلسيون تحسباً لأي مكروه، وقد كانت هواجس الصراع مع العدو لا تفارقهم، يقول متحدثاً عن سلاح هذا الصنف: «وسلاح جمهورهم العصي الطويلة، المثناة بعصي صغار، ذوات عُرى في أواسطها، تُدفع بالأنامل عند قذفها تسمى بالأمداس، وقسي الإفرنجة[٢٤٨] يُحملون على التدريب بها على الأيام»[٢٤٩].

هذا فيما يتعلق بالنصوص التي وردت في مقدمة الإحاطة بصفة مباشرة، أما النصوص التي وردت متناثرة في جميع الإحاطة بصفة غير مباشرة فهي كثيرة ومتنوعة نذكر منها نصاً أو نصين على سبيل المثال لكنهما يجمعان الكلام على معظم ما كان هنالك من الأسلحة وأدوات الحصار:

النص الأول:

يقول ابن الخطيب يصف فتحاً من الفتوح في رسالة من رسائله المؤرخة بسنة ٧٧١هـ، بُعثت مع وفد الحاج إلى بيت الله الحرام لتُتلى على قبر الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم: «... فكان هولاً بعيد الشناعة، وبغتاً كقيام الساعة، أعجل المجانيق عن الركوع والسجود، والسلالم عن مطاولة النجود، والأيدي عن ردم

ودقة أطرافه. والأسل أيضاً النبل، والأسلة شوكة النخل وجمعها أسل. ابن منظور، لسان العرب، مادة «أسل»، ج١، ص ٨٠.

(٢٤٧) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٣٦.

(٢٤٨) - قال ابن هذيل الأندلسي وهو شيخ ابن الخطيب في العلوم العقلية مشيداً بأهمية القوس الإفرنجية واختصاص أهل الأندلس بها، كما يصفها وصفاً دقيقاً قلما نجده في كتاب: ... والقوس الإفرنجية أنسب للراجل لأنها أبلغ وأكثر معونة ولاسيما في الحصار والمراكب البحرية، وشبه ذلك، وهي خاصة بأهل الأندلس بها يصيدون، وعنها يرمون. وفيها يتنافسون، وعليها يعتمدون فرساناً ورجلاناً... وهذا القوس أعني الإفرنجية تتألف من عمود وقضيب وجوزة، ومفتاح... ثم يشرع في تحليتها تحلية مفصلة مع بيان مستفيض لكيفية الاستعمال. ابن هذيل الأندلسي، حلية الفرسان وشعار الشجعان، ص ١٣٣ - ١٤١.

(٢٤٩) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٣٦ - ١٣٧.

الخنادق والأغوار، والأكبش عن مناطحة الأسوار، والنفوط عن إصعاق الفجار، وعمد الحديد ومعاول البأس الشديد عن نقب الأبراج، ونقض الأحجار. . .»[٢٥٠].

النص الثاني:

وقال يصف المدفع الناري على عهده، الذي استخدم في حصار حصن إشكر[٢٥١] سنة ٧٢٤هـ القريب من بسطة على عهد السلطان إسماعيل بن فرج بن إسماعيل (٧١٣هـ ـ ٧٢٥هـ): «ورمى بالآلات العظمى المتخذة بالنفط كرة حديد محماة طاق البرج المنيع من معقله، فاندفعت يتطاير شررها، واستقرت بين محصوريه، فعاثت عياث الصواعق السماوية. . .»[٢٥٢].

كما كشف أحد النصوص الطريفة عن لون الرايات التي كانت ترفعها الجنود أثناء المعارك.

جاء في ثنايا ترجمة محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن الحكيم اللخمي ذي الوزارتين (٦٦٠هـ ـ ٧٠٨هـ). وقد ذكر ابن الخطيب أنموذجاً من كتابته في فتح قيجاطة: «. . . فهزم الله النصارى، وولوا أدبارهم، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فأخلوا بروجهم وأسوارهم، وتسنمها المسلمون، معلنين شعار الإسلام، رافعين من الرايات الحمر كواكب في سماء السعادة تبشر بتيسير كل مرام. . . ورفعت على أبراجها حمر الأعلام، ناطقة عن الإسلام بالتعريف والإعلام. . .»[٢٥٣].

كما لم يفت ابن الخطيب أن يسجل لمعاً تتعلق بالسلاح البحري الذي لم يكن يقل

(٢٥٠) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٥٥٠.

(٢٥١) - إشكر = Huescar: بلدة حصينة تقع بالقرب من مدينة بسطة شمالاً، تابعة لولاية غرناطة، وصفها ابن الخطيب بقوله: «نعم البسيط المديد، والرزق الجديد، والتقى العديد، والصيد والقديد، تركب الجداول فحصها، ويأبى الكمال نقصها، ويلازم ظل الخصب شخصها، مسرح البهائم، ومعدن الرعي الدائم. . .» معيار الاختيار، ص ١١٠.

(٢٥٢) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٣٩٠.

(٢٥٣) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٤٧٠ - ٤٧١.

أهمية عن السلاح البري لإحاطة البحر ببلاد الأندلس، فقال يصف مناقب السلطان محمد الغني بالله في دولته الثانية: «. . . وتجديد أساطيل الإسلام، وإزاحة علل جيوش المرج، وعساكر البحر، فهي لهذا العهد ملس الأديم، شارعة الشبا، منقضة جفاتها إلى مساواة الأعداء، راكبة ظهور المحاسن، قلقة المواقف، قُدُماً إلى الجهاد، قد تعدد إغزاؤها، وجاست البحر سوابحها، وتُعُرفت بركتها، والحمد لله. . .»[٢٥٤].

كما قال يصف أحد قادة الأساطيل البحرية، وهو محمد بن محمد بن أحمد بن شلبطور الهاشمي (ت: سنة ٧٥٥هـ): «. . . درباً على ركوب البحر وقيادة الأساطيل»[٢٥٥].

كما جاء في نص آخر ما يفيد أن القيادة البحرية قد تكون بالنيابة، والأمر يتعلق بالقائد المذكور آنفاً، يقول ابن الخطيب ناب عن القيادة البحرية عن خالد القائد أبي علي الرُّنداحي، وولي أسطول المنكب برهة»[٢٥٦].

والنص فضلاً عمّا ذكر يوحي بالدلالات الآتية:

١ ـ أن قيادة الأسطول كانت ولاية تعقد من قبل السلطان.

٢ ـ أنه كان هناك أساطيل متعددة، قد تتوزع على كافة المواقع البحرية، أو المواقع الاستراتيجية الهامة.

(٢٥٤) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٥٢.
(٢٥٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٣٦٠.
(٢٥٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٣٦٤.

الفصل الثالث
«الإحاطة» والتأريخ للنظم الإدارية

مقدمـــة:

لم يتحدث ابن الخطيب عن النظم الإدارية والمؤسسات السياسية بصورة مباشرة كما هو الشأن بالنسبة للمظاهر الحضارية الأخرى التي عرضنا لها، وإنما وردت إشارات كثيرة متناثرة في تضاعيف الإحاطة برمته، لذلك احتاج منا العمل إلى السبر والاستقصاء لكي نؤلف بين الإشارات المتعددة، ونركب صورة نحاول من خلالها تصور ما كانت عليه الحياة الإدارية في هذه المملكة الصغيرة.

لقد استطعنا من خلال الاستقراء والاستقصاء أن نقف تقريباً على جميع النظم والمؤسسات التي كانت تقوم عليها الإيالة النصرية، من خلال أسماء ومصطلحات متعددة ليست محددة المعاني باعتبار أنها معروفة لدى الناس، لذلك سوف نستعين أحياناً ببعض المصادر التي تطرقت لبعض هذه المؤسسات.

كما استطعنا أن نقف على بعض الإشارات التي أزاحت النقاب عن كثير من الحقائق المتعلقة بهذه النظم، سواء تعلق الأمر بطرق إدارتها، أو وظائفها، أو صلاحيات القائمين عليها.

ألمع ابن الخطيب إلى نظم الدولة النصرية لمعاً واضحة ومتكررة من خلال تراجم ملوكها وسلاطينها حيث كان يقسمها بناء على عناوين فرعية تختلف باختلاف المعطيات والأحداث، لكن الأمر الذي كان ملتزماً به في جميعها إشارته إلى: «وزرائه» و«كتابه» و«قضاته».

وهذه هي المؤسسات الإدارية الكبرى التي كانت تقوم عليها دولة المسلمين في الأندلس على عهد هذه الإيالة الصغيرة، وهي مؤسسات موروثة تتصل بدولة الإسلام على أرض هذه الجزيرة، بل قد تتعداها إلى الأصول التاريخية لدولة الإسلام منذ انطلاقتها الأولى.

وهذه المؤسسات وإن كانت من حيث الأصول اصطلاحات تشترك فيها دول الإسلام قاطبة شرقاً وغرباً على امتداد التاريخ، فإنها من حيث الفروع والدلالات الفرعية لها طابعها الخاص وشاراتها المتميزة دون شك، على الأقل بالنسبة إلى دول الإسلام في المشرق، وإن كانت لا تشبه في كثير من السمات نظيراتها في دول الإسلام في الغرب الإسلامي أيضاً، فما هي حقيقة هذه النظم؟

ويجدر التنبيه على أنه كانت لهذه المؤسسات الكبرى مؤسسات صغرى ترتبط بها وتدور في فلكها، سنعرض لها هي الأخرى عند الانتهاء من عرض المؤسسات الكبرى.

المبحث الأول: «الإحاطة» والتأريخ للنظم السياسية:

المقصد الأول: مؤسسة الملك:

كان النظام السائد في الدولة النصرية آنئذ نظام الملك المتوارث المنحصر في أسرة مالكة واحدة ترتد أصولها إلى زعيم عربي أنصاري لا يجهل فضله وشرفه في تاريخ الإسلام وهو: سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي، أحد الصحابة الكبار(٢٥٧).

لم تتملك هذه الأسرة الأندلس عن طريق الوراثة وإنما حازت عليه بفضل المبادرة التي انفرد بها زعيمها الأول الأمير محمد بن يوسف الغالب بالله (٦٣٥هـ ـ ٦٧١هـ) حيثنما تفاقمت الأوضاع في الأندلس كما هو معروف.

ولقد مكثت هذه الأسرة متقلدة عرش المملكة مدة تزيد على القرنين ونصف لا ينازعها أحد، تتوارث السلطة والسيادة إلى أن انتهى وجودها على الصورة المأسوية المعروفة سنة ٨٧٩هـ.

ولقد حرص الملوك أن يبقى الأمر من حيث الوراثة محصوراً في الأصل

(٢٥٧) - انظر ترجمته على سبيل المثال في المظان الآتية: ابن سعد، طبقات ابن سعد، ج٢ و٣، ص ١٤٢. البخاري، التاريخ الكبير، ج٤، ص٤٤. ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٤، ص١٥٢. ابن الأثير، أسد الغابة، ج٢، ص٣٥٦. ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج٤، ص ١٥٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١، ص ٢٧٠.

والفرع، بيد أنه كانت تقع انقلابات ومؤامرات وسعايات منها ما نجح ومنها ما أخفق، انتقل فيها الأمر من فرع إلى فرع داخل الأصل الواحد، كما نازع الأمر أبناء العمومة، وكانت أحياناً تنتهي بالتصفيات، وأحياناً أخرى بالجلاء أو الفرار، إما إلى بلاد العدوة أو بلاد النصارى.

فتوارث الملك أولاً أبناء محمد الغالب بالله مؤسس ملكهم وراثة سياسية شرعية إلى أن نازع نصر رابع ملوكهم محمداً أخاه ثالث ملوكهم وخلعه سنة ٧٠٨هـ، بيد أنه اضطرب أمره فنازعه ابن ابن عم أبيه الأمير أبو الوليد إسماعيل بن فرج بن الأمير محمد الغالب بالله أول الملوك، فاستقل بالإمارة سنة ٧١٣هـ وامتد ملكه إلى سنة ٧٢٥هـ حيث اغتيل من قبل ابن عمه، الذي لم يظفر هو الآخر بالملك، واستمر الأمر في ولد المغتال محمد إلى عام ٧٣٤هـ، حيث اغتيل هو الآخر، وتولى الأمر بعده أخوه أبو الحجاج يوسف إلى سنة ٧٥٥هـ ليموت هو الآخر مغتالاً، فقدم أكبر أولاده محمد الغني بالله.

وهكذا يدوم في الإمارة إلى سنة ٧٦٠هـ لينقلب عليه أخوه القاصر بسعاية وتدبير من ابن عمه، هذا الذي لم يحكم إلا سنة حيث قتله ابن عمه الذي أوصله إلى الملك لينفرد هو بالأمر إلى سنة ٧٦٣هـ حيث يعود الأمير محمد الغني بالله الذي كان لاجئاً في المغرب بعون من سلطان المغرب وملك قشتالة بعد عقد اتفاق تم بينهما.

وهذا يبين عن عمق التنافس والتدابر الذي كان سائداً في دهاليز القصر وغياهبه.

المطلب الأول: الملك والألقاب:

وكان الحاكم في أغلب الأحيان ينعت بأمير المسلمين على غرار ما كان عليه الحال أيام المرابطين، إذ كانوا لا يرون أنفسهم أهلاً لأن ينعتوا بإمرة المؤمنين، لضعف شوكتهم وضيق رقعتهم، حتى إن مؤسس دولتهم بادر بالمصانعة والموالاة للخلافة العباسية، ضماناً للتمكين، وحيازة للشرعية والمصداقية.

بيد أنه سرعان ما حول وجهته، وعقد وشائج الأخوة والتعاون مع دول المنطقة،

ومع مرور الأيام اقتصرت العلاقات مستحكمة بينها وبين دولة المغرب الأقصى لقوة الشوكة والتاريخ الموحد والمصير المشترك.

على أن هذا التواضع ولزوم القدر الذي عرف لم يمنع بعض ملوك دولة بني نصر مثل سائر دول الإسلام التي قامت شرقاً وغرباً من أن يتخذوا لأنفسهم الألفاظ الملوكية الفخمة، كما يلاحظ من خلال عبارات الإطراء والثناء المبثوثة في الرسائل السلطانية الصادرة عن ديوان الإنشاء لهذه الدولة، وكذلك من خلال اللوحات الرخامية التي كانت تزين بها قبورهم وأضرحتهم والتي سجلها قلم ابن الخطيب كلما ترجم لهم تحت عنوان «وفاته»، مثل الغالب بالله، والمنصور بفضل الله، والغني بالله.

على أن النعوت السامية والصفات العارية التي تجاوزت الحدود جرياً على العادات في ذلك الزمان، كانت وافرة لا حدود لها يتفنن الكتاب في نحتها واشتقاقها بما أوتوا من صنعة بلاغة وسحر بيان، راكبين أجنحة المغالاة، ناسجين على منوال الخيال، صناعة للأبهة وتعظيماً للشأن.

كما تشهد بذلك صدور رسائل الكتاب المهرة، وديباجاتها الصادرة من قصر الحمراء، وكذلك نقوش ألواح الأضرحة كما مرت الإشارة مثل قبر السلطان محمد الغالب بالله الذي جاء عليه: «هذا قبر السلطان الأعلى، عز الإسلام، جمال الأنام، فخر الليالي والأيام، غياث الأمة، غيث الرحمة، قطب الملة، نور الشريعة، حامي السنة، سيف الحق، كافل الخلق، أسد الهيجاء، حمام الإعدام، قوام الأمور، ظاهر الثغور، كاسر الجيوش... أمير المؤمنين... قدوة المتقين... شرف الملوك والسلاطين الغالب بالله المجاهد في سبيل الله أبو عبدالله...»[٢٥٨].

وهي ألقاب فخمة مفخمة لا طائل من ورائها سوى الإطراء الأجوف والثناء المجاني يصدق عليها قول الشاعر:

(٢٥٨) - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ص ١٠٠. وانظر؛ اللمحة البدرية في الدولة النصرية، ص ٤٨.

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد[٢٥٩]

على أن هذا كان له وزنه في ذلك الزمان.

المطلب الثاني: صلاحيات الملك:

ولقد كان الملك إذا اشتد حزمه وقوي مركزه واتسع في الأهلية نطاقه يضطلع بصلاحيات واسعة فيباشر أمور الإيالة على اختلافها بنفسه مطلق اليد، يختار رجال دولته ويوزعهم على المناصب والوظائف الإدارية المختلفة كل حسب مؤهلاته وقدراته، فيقلد الألقاب ويوزع الأوسمة وما إلى ذلك من مهام ونشاطات، نعرض لها من خلال النقاط الآتية:

١ ـ تولية الولاة:

من صلاحيات الملك الأساسية اختيار الولاة الذين هم أمراء المدن الكبيرة ورؤساء القواعد الشهيرة مثل مالقة وقمارش[٢٦٠] ووادي آش وغيرها من المدن وينتمون إلى الأسرة المالكة بالنسب أو المصاهرة، ويطلق على الوالي منهم مصطلح الرئيس، شهد لذلك قول ابن الخطيب وهو يترجم للأمير محمد بن محمد بن محمد ثالث ملوك دولة بني نصر (٦٥٥هـ ـ ٧١٣هـ): «نقم على قريبه الرئيس أبي الحجاج ابن نصر الوالي بمدينة وادي آش أمراً أوجب عزله»[٢٦١].

وبقدر ما كانت ولاية القرابة إشراكاً في الأمر، ودفعاً للإحن وحفظاً للتوازن، كانت أيضاً مثاراً للفتن، ومجلبة للقلاقل الداخلية، والصراع على الأمر داخل الأسرة المالكة، والعصبة الحاكمة، ولقد كانت أبرز فتنة أثارها الرؤساء تلك التي

(٢٥٩) - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج٢، ص١٤٤.

(٢٦٠) - قُمارش = Comares: أحد الحصون الهامة القريبة من غرناطة، وصفها ابن الخطيب بقوله: «مودع الوفر، ومحط السفر، ومزاحم الفرقد والغفر، حيث الماء المعين، والقوت المعين... وبه الأعناب التي راق بها الجناب، والزياتين واللوز، والحرث الذي له التمكين، والمكان المكين...» معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ص٩٢ - ٩٤.

(٢٦١) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٥٥١، اللمحة البدرية، ص ٦٦.

كانت على عهد السلطان محمد بن محمد بن يوسف ثاني ملوكهم (٦٧١هـ ـ ٧٠١هـ)، حيث ثاروا عليه أعظم ثورة كادت تعصف بهذه الدولة كتلك التي أثارها الأصهار من «بني أشقلولة» الذي أعيا داء فتنتهم ثاني ملوكهم[٢٦٢].

ومما يدل على أن المدن كانت تحت إمرة الرؤساء ما جاء في ترجمة أمير المسلمين نصر بن محمد بن محمد رابع ملوكهم (٧٠٨هـ ـ ٧٢٢هـ)، قال وهو يسوق الأحداث التي جرت على عهده: «وما كاد أهل الأندلس يستنشقون ريح العافية حتى نشأ نجم الفتنة، ونشأت ريح الخلاف، واستفسد وزير الدولة ضمائر أهلها... وأظهر الرئيس ابن عم الأب صاحب مالقة أبو سعيد بن إسماعيل صنو الغالب بالله بن نصر الامتساك بما كان بيده، والدعاء لنفسه، وقدم ولده الدائل إلى طلب الملك...»[٢٦٣].

ومما يؤكد ذلك أبلغ تأكيد ما أسفرت عنه المفاوضة بين بني الحكيم الذين انتزوا بقاعدة رندة على عهد ثاني ملوكها فكانت شروط: «منها ألا يلي بلدهم أحد من قرابة السلطان، وأن لا ينزل غاز من المغاربة بدار من دور المدينة، وإسقاط التبعات»[٢٦٤].

إلى غير ذلك من الإشارات كررناها إمعاناً في حشر الأدلة وتكثيف البراهين.

٢ ـ تعيين أرباب الوظائف السامية:

كما يقلد أهل الاختصاص والتمييز الخطط الشرعية المختلفة، فيعين القضاة على مختلف المدن والأمصار والأصقاع ومن يرجع إليهم من العدول والموثقين، وينتخب منهم قاضي الجماعة، وهو رئيس القضاة كما يعين خطباء المساجد الجامعة في أمهات القواعد والمدن، وكذلك أئمة المساجد الجامعة، ويستعمل السفراء إلى دول الجوار، ويختار الوكلاء والقهارمة لإدارة القصر والاضطلاع بالتربية، ويختار

(٢٦٢) - انظر التفاصيل في: الإحاطة، ص ٥٦٤ فما فوق، واللمحة البدرية ص ٥٧، وأعمال الأعلام، ج٢، ص ٢٨٧.

(٢٦٣) - ابن الخطيب، ج٣، ص ٣٣٩ - ٣٤٠، واللمحة البدرية ص ٧٥.

(٢٦٤) - أعمال الأعلام ج٢، ص ٢٩٢.

للحسبة الفقهاء الأقوياء ولمنفذي الأرزاق النزهاء من أهل البراعة في العدد والحساب وولاية الأشراف والأشغال المخزنية، وولاية خطة المواريث، والأعمال السلطانية في كافة النواحي والجهات.

ومن مهامه أيضاً اصطفاء الوزراء الأصفياء، الذين هم رجال الدولة الأول، وزعماء السياسة وعليهم المعول وهم شركاء الأمراء في الأمر والنهي والإثراء بالسر والجهر.

وكذلك الكتاب الذين لا يقلون وزناً عن الوزراء، فهم لسان حال الإيالة، وأقلام ألسنتها، يسجلون المآثر والمفاخر، ويدبجون المراسيم والظهائر، ويقفون على ما تخفي صدور الأمراء وما تنطوي عليه السرائر، وكثيراً ما اتحدت الكتابة والوزارة فتقلدها رجل واحد أثير، إلى غير ذلك من أرباب الوظائف السنية والخطط العلية.

٣ ـ مجالس الملك:

كان للملك مجالس مختلفة يعقدها للنظر في الشؤون المتباينة حسب ما يقتضيه الحال وتستدعيه الطوارئ، وقد أعثر استقراء الإحاطة على المجالس الآتية:

أ ـ مجلس الرقاع:

وهو المجلس الذي ينظر في مضامين الرسائل المختلفة الواردة من الجهات المختلفة سواء داخل المملكة أو خارجها، وقد تكون عبارة عن تقارير تطلع الملك على شؤون المدن والولايات المختلفة، أو رقاعاً تقرر المودة وتذكر بالولاء، أو أخباراً عن تحركات الأعداء والمناوئين إلى غير ذلك.

ب ـ مجلس التهاني:

ويفهم من العنوان أنه مجلس يعقد في مناسبات الأفراح والمسرات، تفد فيه الوفود المختلفة من داخل المملكة، وقد تكون من خارجها، تقدم آيات التهاني بالمكيفات مثل التهاني بالولادات والإعذار، وكذلك التهاني بالانتصارات

والفتوح في المعارك والحروب، وقد كانت المملكة في صراع دائم مع العدو النصراني.

جـ- مجلس الرسل الواردة:

ويفهم منه أيضاً أنه مجلس ينعقد بمناسبة ورود الرسل والسفراء، وقد يكون السفراء قادمين من دول الإسلام المجاورة، أو من دول العدو المتاخمة، وقد يكون الرسل هم سفراء الإيالة عند عودتهم من قضاء سفارتهم إلى الدول المجاورة، إذ يكون لذلك حفاوة خاصة وتنويه متميز لأهميته في أغلب الأحيان، وخاصة إذا كللت السفارة بالنجاح، وختمت المساعي بالنجاح.

د- مجلس المبايعات:

ويفهم من هذا الإصطلاح أيضاً أنه المجلس الذي كان ينعقد للأعيان والولاة والقضاة والفقهاء والكتاب والأدباء والشعراء والأشياخ وكافة رجال الدولة المرموقين، يقدمون من خلاله تهانيهم للأمير المتربع على عرش المملكة ويجددون آيات ولائهم للإيالة النصرية.

هـ- مجلس المواجهة (المظالم):

ونظنه جلسة المظالم حيث يواجه المجلس المتخاصمين، ويقابل المتظلمين بحضور القضاة والشهود والمعنيين ويعاين المحاكمة، ويساهم في الفصل بين المتنازعين، وقد يقطع بالحكم الفصل وهو المعني بالأمر قبل غيره من الحاضرين، وهذا نص يكشف عن بروتوكول الدولة فيما يتعلق بهذا المجلس، ويرتد إلى سلطان هذه الدولة الأول محمد الغالب بالله كما يكشف المدة الزمنية التي كان يخصصها لأمور رعيته، يقول ابن الخطيب: «وكان يعقد للناس مجلساً عاماً، يومين في كل أسبوع فترتفع إليه الظلامات ويشافه طالب الحاجات، وتنشده الشعراء وتدخل إليه الوفود ويشافه أرباب النصائح في مجلس اختص به أهل الحضرة، وقضاة الجماعة، وأولي الرتب النبيهة في الخدمة، بقراءة أحاديث من الصحيحين، ويختم بأعشار من القرآن. ثم ينتقل إلى مجلس خاص ينظر فيه في أموره، فيصرف كل قصد إلى

من يليق به ذلك . . . »[٢٦٥].

٤ ـ إصدار الظهائر :

من صلاحيات الملك أيضاً إصدار الظهائر، وهي قوانين وتشريفات وامتيازات يخص بها أصحاب الوظائف العليا كالوزراء والقضاة والكتاب وغيرهم من ذوي المناصب المختلفة.

وهذا المصطلح ما زال سائداً في المغرب حتى الآن، ويعرف الظهير الشريف بالقانون الذي يصدر عن الملك وهو من أسمى القوانين وأشرفها لشرف مصدره وسمو جهته.

٥ - زيارات التفقد :

كما كان السلطان يعمل رحلات بين الفينة والأخرى ضمن الركاب السلطاني والموكب الملوكي يتفقد من خلالها الأقطار والأمصار، كتلك التي قام بها في الجهات الشرقية، قال ابن الخطيب في ثنايا الترجمة للرحلة خالد بن عيسى بن إبراهيم البلوي : «وجرى ذكره في الرحلة[٢٦٦] التي صدرت عني في صحبة الركاب السلطاني عند تفقد البلاد الشرقية . . . »[٢٦٧].

٦ - قيادة الجيش :

كان من مهام السلطان أيضاً مباشرة الحروب بنفسه وقيادة كراديس الجهاد في ميادين الوغى، وقد ثبت هذا في حق أغلب السلاطين النصريين إن لم نقل جميعهم لحالة القلق والتأهب التي كانت الأندلس عليها لتبدل الأحوال وتنامي شوكة النصارى، وتكالبهم على استرداد القواعد واستنقاذ المواطن. يلاحظ هذا كل من

(٢٦٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٩٥.

(٢٦٦) - يعني بها رسالته المسجعة الطريفة التي دون من خلالها وقائع الرحلة السلطانية التي تفقد بموجبها المناطق الشرقية لمملكة غرناطة، وكان ابن الخطيب أحد المرافقين البارزين، وعنوان هذه الرسالة هو «خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف» وقد حققها د. أحمد مختار العبادي إلى جانب رسالة مفاخرات مالقة وسلا، ورسالة معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحت عنوان «مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس».

(٢٦٧) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٥٠٠ - ٥٠١.

تصفح تراجم الملوك والأمراء النصريين من خلال كتاب الإحاطة.

٧ - ختم الرسائل والظهائر:

كان من صلاحيات الملك والسلطان في هذه المملكة توقيعه بخط يده أو ختم خاتمة على جميع المكتوبات والوثائق والسجلات الصادرة عن الديوان، وهي خصيصة خص بها ملوك هذه الدويلة دون غيرهم، ربما جرياً على عادة قديمة، يقول ابن خلدون في تقرير هذ الحقيقة التاريخية الطريفة: «والسلطان عندهم (أهل الأندلس على عهده) يضع خطه في السجلات كلها، فليس هناك خطه العلامة[٢٦٨] كما لغيرهم من الدول»[٢٦٩].

ولقد كان نص عبارة خطه كما دلت الوثائق التي جلب ابن الخطيب منها العدد الكثير والجم الغفير[٢٧٠] هو: «صح هذا».

٨ ـ صلاحيات الملك واستبداد الوزراء والحجاب:

تخللت مؤسسة الملك فترات زاحمت فيها مناكب الوزراء والحجاب مناكب الملوك والأمراء، فأدى الأمر إلى استبدادهم واستقلالهم بكثير من المهام التي كانت من اختصاص الملوك والأمراء إما استضعافاً وإما تهاوناً من جهتهم، وإما تسليماً عن طيب خاطرهم دون استحواذ من جهة الوزراء مثلما حصل على عهد الأمير محمد بن محمد بن محمد ثالث ملوكهم (٧٠١ هـ - ٧٠٨ هـ) على يد وزيره وكاتب أبيه أبي عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن إبراهيم بن الحكيم اللخمي الذي: «صرف إليه تدبير ملكه، فلم يلبث أن تغلب على أمره وتقلد جميع شؤونه»[٢٧١].

وكذلك الشأن بالنسبة للأمير محمد بن إسماعيل بن فرج (٧٢٥ هـ - ٧٣٣ هـ)

(٢٦٨) - كتابة العلامة هي وضع «الحمد لله والشكر لله» بالقلم الغليظ، مما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم»، انظر: ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ص ٥٧.

(٢٦٩) - ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص ٦٧٤.

(٢٧٠) - انظر على سبيل المثال كتاب ريحانة الكُتّاب ونُجْعَةُ المُنْتاب، وكتاب كُناسة الدُكّان بعد انتقال السكان.

(٢٧١) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٥٤٩، وانظر اللمحة، ص ٦٣.

سادس ملوكهم الذي: «وناله الحجب واشتملت عليه الكفالة إلى أن شب وظهر»[٢٧٢].

وقد كان صغيراً دون الاحتلام، فتكفل بأمره وكيل أبيه محمد بن أحمد بن محمد بن المحروق (توفي سنة ٧٢٧هـ).

وكذلك الشأن بالنسبة للأمير أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج (٧٣٣ هـ - ٧٥٥ هـ) سابع ملوكهم، الذي شمله الحجب والاستبداد لضعفه وصغر سنه في بداية حكمه من قبل الحاجب أبي نعيم رضوان: «فاتصل نظره (رضوان) مستبداً عليه في تنفيذ الأمور وتقديم الولاة والعمال وجواب المخاطبات وتدبير الرعايا وقود الجيوش»[٢٧٣].

وهذا النص بقدر ما يكشف عن بعض صلاحيات الوزير والحاجب المستبد يكشف أيضاً عن مهام السلطان حينما يستقل بالكل وحده.

وكان الوزير إذا استبد حقيقة وتجاوز حده دون أن يحتاط غالباً ما يلقى جزاءه إما قتلاً وإما عزلاً واستبدالاً وإما سجناً واعتقالاً.

وهذا ما سيستفيد منه ابن الخطيب حينما سيتربع على ذروة سنام وزارة الاستبداد دون أن يصيبه مكروه إلى أن استقال فاراً، وسنقف على صلاحيات ووظائف الوزير في مبحث الوزارة، والذي سيكشف أيضاً عن صلاحيات أخرى للسلطان كان ينوب عنه فيها الوزير.

المطلب الثالث: ولاية العهد وصياغة البيعة:

١ - ولاية العهد:

لم يكن بنو نصر بدعاً في هذا، فقد جروا على سنن من تقدمهم من الملوك والأمراء في دول الإسلام شرقاً وغرباً.

(٢٧٢) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٥٣٢ - ٥٣٣، وكذلك اللمحة البدرية، ص ٩٠ - ٩١.
(٢٧٣) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٣١٩ - ٣٢٠، وكذلك اللمحة، ص ١٠٣.

فكان الملك يرشح لولاية العهد ووراثة الأمر من بعده في أغلب الأحيان الولد الأكبر من الذكور مخصوصاً بالرعاية من قبل وكيله وكافله إن كان قاصراً، وقد وردت الإشارة إلى ولاية العهد متكررة تحت عنوان «أولاده» ضمن تراجم الملوك والأمراء النصريين في الإحاطة وغيرها مثل قوله: «محمد ولي العهد»[٢٧٤]، يقصد ابن محمد الغالب بالله[٢٧٥].

وقوله: «ولي عهده أبو عبدالله المتقدم الذكر»[٢٧٦]، وهو محمد بن محمد بن محمد ثالث الملوك (٧٠١ هـ - ٧٠٨ هـ) إلى غير ذلك من الإشارات الواضحة.

وأحياناً كانت تخرق هذه القاعدة، ويكسر هذا الإيقاع بعدم التسليم والتنافس على السيادة فيقع الخلع وينتقل الملك إلى فرع آخر من فروع هذه الأسرة.

وقد حدث هذا على عهد السلطان محمد بن محمد بن محمد أبي عبدالله ثالث الملوك الذي خلع سنة ٧٠٨ هـ ليولى مكانه أخوه نصر بن محمد بن محمد أبي الجيوش رابع الملوك (٧٠٨ هـ - ٧١٣ هـ)، وكذلك ما حصل لهذا الأخير على يد ابن ابن عم ولده أبي الوليد إسماعيل (٧١٣ هـ - ٧٢٥ هـ) الذي ثار ضده فانخلع عن الملك فاراً إلى وادي آش ليستمر الملك في عقب هذا ما شاء أن يستمر.

وكان نص وثيقة البيعة يكتب في الغالب مباشرة عقب وفاة الهالك أو انخلاعه، وبين يدي قعود صاحب الشرعية.

والسلطان الوحيد الذي وردت الإشارات التاريخية الواضحة تقرر أخذه البيعة لولي عهده قبل مماته هو محمد الأول الغالب بالله مؤسس الدولة، قال ابن الخطيب: «وفي حدود اثنتين وستين وستمائة... عقد البيعة لولي عهده واستدعى القبائل للجهاد»[٢٧٧].

---

(٢٧٤) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٢، ص ٩٥، وكذلك اللمحة، ص ٤٤.

(٢٧٥) - هو محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، ثاني الملوك من بني نصر، وهو المؤسس الثاني لهذه الدولة حكم ما بين سنة ٦٧١ هـ وسنة ٧٠١ هـ. انظر الإحاطة، ج٢، ص ٩٢ - ١٠١، واللمحة البدرية ص ٥٠ - ٦٠.

(٢٧٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٥٥٩، وكذلك اللمحة ص ٥٢.

(٢٧٧) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٢، ص ٩٩، وكذلك اللمحة ص ٤٨.

ولعل حرص هذا السلطان على هذا الأمر بهذه الصورة، وإغفاله لدى الملوك من عقبه، أنه عمّر في الملك طويلاً، فدانت له البلاد، وتألفت حوله العباد، وهو يعسوب هذه الإيالة يرجع إليه الفضل في حفظ بيضة الإسلام في هذه الجهة ما شاء الله، ولعله خشي أن يجني ثمار سعيه من ليس لها أهلاً من غير نسله، فبادر بهذا الأمر فهو صاحب الحق الشرعي والسنن المرعي دون مدافع.

وفي ذلك ما فيه قبل ذلك من سد الباب على صهره وبنيه من بني «اشقيلولة «الذي ظاهره على أمره واتفقا على قسمة ما يتصل لهما من الملك»[٢٧٨].

٢ - صياغة البيعة:

يتولى الوزير أو الكاتب أو الوزير الكاتب الخبير بصناعة التوثيق وتدبيج الظهائر السامية في هذا الغرض أمر صياغتها مراعياً عوائد الدولة وتقاليدها في هذا الشأن احتفاء وتنويهاً وتعظيماً وتقديراً لشرف جهة الصدور، إذ كانت تقريباً لكل دولة طرقها وعوائدها في ذلك[٢٧٩].

ولقد استطعنا أن نقف على النموذج من البيعات التي صيغت بقلم ابن الخطيب من خلال كتابه «ريحانة الكتاب» لا نرى مانعاً من الرجوع إليه لمعرفة ديباجاتها، وكنه دلالاتها وناموس قانونها، وثيقة تكشف عن الغاية التي وصلت إليها الإدارة على عهد الدولة النصرية على أيدي رؤساء الأقلام وصناع الكلام من أهل هذا الشان.

قال ابن الخطيب: «ولما توفي السلطان أبو الحجاج رحمه الله وولي بعده ولده رضي الله عنه الأمر من بعده، كان مما صدر عني «البيعة» عليه من أهل الحضرة العلية والإيالة الكريمة النصرية نصاً بعد الفاتحة»[٢٨٠].

ولما كان نص البيعة طويلاً يحتوي على إحدى عشرة صفحة، والمقام لا يتسع، سأحاول إيجازه نافياً عنه فضوله ملخصاً إياه مما علق به من استطراد وإطناب أدى إليه السجع والتماس البديع.

(٢٧٨) - ابن الخطيب، الأعمال، ج٢، ٢٨٧.
(٢٧٩) - انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، وانظر كذلك ابن الخطيب، ريحانة الكتاب.
(٢٨٠) - ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، ج٢، ص ٦١١.

جاء من جملة ما جاء قوله: «أما بعد ما افتتح به من تحميد الله وتمجيده... فإن من المشهور الذي يعضده الوجود ويؤيده... ما عليه هذا الملك النصري الحمى، الأنصاري المنتمى... إن فوخروا بنسب ذكروا سعد بن عبادة ومجده... دارهم الثغر الأقصى ونعمة الدار، وشعارهم لا غالب إلا الله ونعم الشعار... وإن هذا القطر الذي انتهى سبيل الفتح الأول إلى قاصيته... كان من فتحه الأول ما قد علم حسبما سطر ورسم... وحل الإسلام منه دار قرار... وامتدته الأيام حتى تأنس العدو لروعته، وخف عليه ما كان من سرعته، فقدح وأورى، وأعضل داؤه فاستشرى... فلولا أن الله دعم الدين منهم بالعمد الوثيقة... لأجهز النصل واجتث من الدين الأصل، لكنهم انتدبوا إلى إمساك الدين انتداباً، ووصلوا بالإسلام أسباباً، وتناولها منهم صقر قبيل الخزرج... أبو عبدالله محمد بن يوسف بن نصر أمير المسلمين المنتدب لإقامة سنة سيد المرسلين... فأقشعت الظلمة، وتماسكت الأمة، وكف العدو وأقصر... وتوارثوا ملكها ولداً عن أب... إلى أن قام بالأمر وسطى سلكهم... أمير المسلمين أبي سعيد بن نصر، فأحيا... معالم الكتاب والسنة... وأورث الملك الجهادي من ولده خير ملك قبلت منه كف... مولانا أمير المسلمين... أبو الحجاج... فاختار الله له ما عنده وبلغ الأجل... فوقفت إزاء أرباب الشورى التي تصح الإمامة باتفاقها وتنعقد بعقد ميثاقها، من أعلام العلم لقاعدة ملكه غرناطة... وخلص الثقات، ووجوه الطبقات على مبايعة وارث ملكه، بحقه الحائز في ميدان الكمال، وإحراز ما للإمامة من الشروط والخلال... كبير ولده... ووارث ملكه... ووسطى سلكه... مولانا... أمير المسلمين أبو عبدالله... واجتمع منهم طوائف الخاصة والجمهور، ما بين الشريف والمشروف، والرؤساء أولي المنصب المرفوع، وحملة العلم وحملة السيوف، والأمناء ومن لديهم من الألوف، وسائر الكافة أولي البدار بمثلها والخفوف، فعقدوا له البيعة الوثيقة الأساس... على الناس البريء عقدها من الارتياب والالتباس، الحائزة شروط الكمال... على ما بويع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن له من الصحابة والآل، وعلى السمع والطاعة،

وملازمة السنة والجماعة، فأيديهم بالسلم والحرب رد ليده، وطاعتهم إليه خالصة في يومه وغده، وأهواؤهم متفقة حالي الشدة والرخاء، وعهودهم محفوظة على تداول السراء والضراء، أشهدوا عليها الله، وكفى به شهيدا. . . والله عز وجل يقول: «فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجراً عظيماً». . . وكتب الملأ المذكورون أسماءهم بخطوط أيديهم في هذا الكتاب، شاهدة عليهم بما التزموه ديناً ودنيا، وسلكوا منه سبيلاً مبيناً في الثاني والعشرين لشوال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة[٢٨١].

فهي وثيقة هامة تكشف للناظر والباحث كثيراً من الحقائق التاريخية والنظم الإدارية التي كانت راسخة في هذه الدولة التي ورثت كثيراً من المظاهر الحضارية لتراث الإسلام في هذه المنطقة وفي غيرها من المناطق التي عم ربوعها دنيا ودولة.

والنص وإن غلبت عليه عبارات العهود والمواثيق تمكيناً وتثبيتاً، لم يخل من الإشارة إلى الذين كانوا مقدمين لأن تؤخذ منهم البيعة لتصح الشرعية والمصداقية، وهم أهل الرياسة علماً وأدباً وسياسة وجاهاً وثراء وغناء كما تشهد خاتمة النص.

ويدعم ذلك ما جاء في كتاب أعمال الأعلام أيضاً لابن الخطيب عن حديثه على بيعة محمد بن إسماعيل بن فرج بن نصر (٧٢٥ هـ - ٧٣٣ هـ)، الذي كان صبياً دون العاشرة من عمره حيث قال: «فلم يتخلف عليه يومئذ أحد، وبادر إلى بيعته الفقهاء والعلماء والصلحاء والفضلاء وأهل الجهاد، وكواف البلاد»[٢٨٢].

المقصد الثاني: الوزارة والحجابة:

المطلب الأول: الوزارة:

ونبدأ بها لأنها هي الأصل، وإن كانت الحجابة أعلى وأرقى، وهي أهم الوظائف السياسية الهامة والعريقة في تاريخ الأندلس، وصاحبها من حيث المركز

(٢٨١) - ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، ج١، ص١١٦ - ١٢٦.
(٢٨٢) - ابن الخطيب، الأعمال، ج٢، ص ٢٩٥ - ٢٩٦.

والسيادة هو ثاني شخصية سياسية بعد الأمير أو السلطان في هرم السلطة نظراً لما حظي به من امتيازات على مستوى ممارسة الفعل السياسي، قال ابن خلدون: «وهي أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة، فإن الوزارة مأخوذة إما من المؤازرة وهي المعاونة وإما من الوزر وهو الثقل كأنه يحمل مع مفاعله أوزاره وأثقاله»(٢٨٣).

وهي خطة حظيت أيضاً بالتنويه الخاص من قبل ابن الخطيب حينما تصدى لعملية التأريخ من خلال كتابه الإحاطة محط اهتمامنا ودراستنا، حيث وجدناه قد جعل عبارة «ذكر وزراء دولته» أو لفظ «وزراؤه» أو «وزيره» عنصراً بارزاً متكرراً ضمن العناصر المتكررة التي قسم على منوالها تراجم الأمراء والسلاطين على امتداد تاريخ إقليم غرناطة عموماً وتراجم أمراء وملوك مملكة بني نصير بخاصة.

فعدد من خلاله الوزراء الذين تعاقبوا أو اشتركوا في هذا المنصب طيلة فترة حكم الأمير أو الملك المعني، مع إشارات خاطئة أحياناً تكشف عن بعض أحوال هؤلاء الوزراء، وفضلاً عن هذا وجدناه قد ترجم لهؤلاء الوزراء بإفاضة واستقصاء ضمن تراجم الأعلام والأعيان على اختلاف طبقاتهم كما مرت الإشارة.

ولقد دل الاستقراء والنظر تحت هذا العنوان الفرعي المذكور أنه قلما اقتصر ملك أو سلطان على وزير واحد إما بالتعاقب واستنفاد المدة، وإما بالعزل والاستبدال بالجدة، وإما باجتماعهم احتفاء بجلالة هذه الخطة، شهادة بفخامة الملك.

جاء تحت عنوان «وزراؤه» في ترجمة السلطان محمد الغالب بالله أول ملوك هذه الدولة الذين عمروا نسبياً في الحكم: «وزر له جماعة»(٢٨٤)، وبعد أن عدد منهم جملة ختم الكلام بقوله: «. . . وغيرهم ممن تبلغ به الشهرة مبلغاً فيهم»(٢٨٥).

(٢٨٣) - ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص ٢٦٥.

(٢٨٤) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٩٦. وفي اللمحة: «وزر له جماعة من الوزراء الجلة» ص ٤٤.

(٢٨٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٩٦. وفي اللمحة: «واستوزر غيرهم ممن لم تنهض به الشهرة، ولم تنفسح له المدة» ص ٤٥.

وهذا يؤكد أنه إنما قصر الإشارة على النبيه المشهور وأغفل الخامل المغمور.

والملاحظ من خلال الاستقراء أنه كلما بعدنا عن عهدها الأول قلص عدد الوزراء ليستقر في واحد تكون له الريادة والسيادة والخلوص، يختار من يساعده، وينتخب من يعاونه.

ولا نستبعد أن تعديد الوزراء إفراداً لكل واحد منهم بمسؤولية خاصة، كان جرياً على العادة، وترسيخاً للأبهة العريقة، ونظن ذلك كان بقية أثارة من رسوم هذه الخطة على عهد الدولة الأموية بالأندلس، يقول ابن خلدون: «وأما دولة بني أمية بالأندلس فأنفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافاً وأفرد لكل صنف وزيراً، فجعلوا لحسبان المال وزيراً، وللترسيل وزيراً، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم، وينفذون أمر السلطان هناك كلّ فيما جعل له، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم، فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر المراتب، حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها، فأكثرهم يومئذ يسمى «الحاجب»[٢٨٦].

وأمام هذا النص التاريخي المهم لا نملك إلا أن نقرر أن السلطان محمد الأول الغالب بالله، وهو الذي جاء عقب ملوك الطوائف الذين يشكلون شذوذاً تاريخياً مشيناً، أراد أن يرجع بنظم البلاد إلى مظانها الأولى وعوائدها المثلى على عهد أوج السيادة الأموية بالأندلس، لكن يبدو أن سياسة الأمر الواقع ورواسب إدارة عهود الضعف، ومظاهر الاستبداد كانت قد تركت أثرها على تلك الشاكلة تقريباً[٢٨٧].

يؤكد هذا الزعم أن ابن الخطيب في متابعته لتقرير الوزراء وإحصائهم على عهود الملوك الذين تعقبوا على دست هذه الإيالة. باستثناء السلطان الأول لا

(٢٨٦) - ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ٦٧٠.

(٢٨٧) - انظر ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص ٢٧٠ فما فوق، وانظر أيضاً القلقشندي، صبح الأعشى.

يفتأ يشير إلى تعاقب الوزراء بعد انتهاء المدة بأداة «ثم» التي تفيد التعقيب والترتيب(٢٨٨).

المطلب الثاني: الحجابة:

كانت وزارة الواحد المضطلع بأزمة المهم من الوظائف الديوانية والرتب السلطانية، هو الآمر السائد والعمل الشائع في أغلب عهود الإمارة لهذه الإيالة.

وكان يطلق عليه في هذه الحال مصطلح «الحاجب» ولكن على استحياء لما أصبح يحمله من معان مذمومة، وإن كانت بعض عناصر الدلالة الاصطلاحية السياسية ومقوماتها مستحكمة على مستوى الواقع كما سنرى.

والحجابة في دلالتها التاريخية على عهد الدولة الأموية بالأندلس كما يقررها ابن خلدون لقب «لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة، ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم، فكانت في دولتهم رفيعة غاية كما تراه في أخبارهم»(٢٨٩).

كما يشير ابن خلدون مثلما مرت الإشارة إلى نباهة هذه الخطة على عهد الطوائف وتمسكهم بها غاية التمسك «وكانوا يعدونها شرفاً لهم»(٢٩٠).

ولكنه حينما يصل إلى تقرير أمر عهد هذه الدولة التي نحن في صددها يكتفي بالقول: «وأما الوزير فكالوزير إلا أنه قد يجمع له الترسيل»(٢٩١).

بيد أنه وردت إشارات في الإحاطة وغيرها أن هناك من توَّشح بها للقب تزين بزينة تلك الرتب.

نذكر منهم الرجل المخصوص بالحجابة حتى إنه قلما ذكر اسمه دون اقترانه بهذا اللقب لنباهته وتقلبه في سراء رسم الحجابة وضرائه، وتلبس بها مدة ليست بالقصيرة.

(٢٨٨) - انظر تراجم الأمراء والسلاطين في الإحاطة وكذلك اللمحة البدرية.
(٢٨٩) - ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص ٦٧١
(٢٩٠) - ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص ٦٧١.
(٢٩١) - ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص ٦٧٤.

ونعني به الحاجب أبا نعيم رضوان، وقبل الإشادة بذكر من هذه الزاوية نشير إلى عبارة أخرى لها دلالتها في اعتبار هذه الخطة، جاء في حق السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج (٧٢٥ هـ - ٧٣٣ هـ) سادس ملوكهم: «وناله الحجب واشتملت عليه الكفالة إلى أن شب وظهر»[٢٩٢].

والنص يكشف أن مسوغات الحجب كانت ضعف السلطان لصغر سنه.

كما جاء في حق حاجب دولته أبي نعيم رضوان المذكور: «وأقام رسم الوزارة والحجابة والنيابة أبو نعيم رضوان مولى أبيه»[٢٩٣].

كما أشار ابن الخطيب في نص آخر أكثر وضوحاً وبياناً لأمر صاحب خطة الحجابة حينما يصفو وردها ولا يتكدر شربها بالغة أقصى غاياتها، وذلك على عهد السلطان يوسف بن إسماعيل بن فرج سابع ملكهم (٧٣٣ هـ - ٧٥٥ هـ)، يقول ابن الخطيب أيضاً، والقول في حق الحاجب رضوان «خاصة دولتهم» منوهاً بما كان يقوم به دون السلطان: «فاتصل نظره مستبداً عليه في تنفيذ الأمور وتقديم الولاة والعمال وجواب المخاطبات وتدبير الرعايا وقود الجيوش»[٢٩٤].

كل هذ النصوص تتضافر لتؤكد خلاف ما ذكره ابن خلدون، ولعل ابن خلدون معذور في ذلك لأنه لم يكن رسماً إدارياً رسمياً حرصت الدولة على المحافظة عليه وإنما كان يتبدى على مسرح الأحداث إذا توفرت ظروف سياسية مخصوصة، ثم إن هذا لم يكن مطرداً شأنه في الدولة التي كان فيها خطة معتبرة، وإنما ارتبط ببعض الرجال المرموقين فقط في ظروف سياسية اضطرارية.

المطلب الثالث: المؤهلات المرشحة للوزارة:

بعد المتابعة والاستقراء لاحظت أن أهم المؤهلات، والصفات التي رشحت أغلب الوزراء على امتداد تاريخ هذه المملكة ترتد إلى القيادة والسيادة القائمة إما

(٢٩٢) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٥٣٢ - ٥٣٣. وانظر اللمحة ص ٩٠ - ٩١.
(٢٩٣) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٥٣٧، وانظر اللمحة البدرية ص ٩٤.
(٢٩٤) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٣١٩ - ٣٢٠، وانظر اللمحة البدرية ص ١٠٣.

على زعامة السياسة، وهو الأعم الأغلب حتى لقد ورد في تحليتهم لفظ «القائد» قرابة ثماني مرات، وهو لفظ يدل على غلبة الصفات السياسية والعسكرية، أو شرف البيت وأصالته وقد يرتد إلى الريادة السياسية أيضاً، أو إرث هذه الوظيفة عن الآباء والأجداد، أو التميز بالغنى والثراء الفاحش، ونادراً ما يوصف الوزير بصفات العلماء المبرزين اللهم إلا في القليل النادر، هذا إجمال يأتي تفصيله، ومشكل يأتي تفسيره من خلال استعراض أحوال أصحاب هذه الخطة على امتداد تاريخ هذه الإيالة لنقف على صفاتهم ومؤهلاتهم.

١ - صفة القيادة العسكرية:

واجتناباً للتطويل نذكر أقوال ابن الخطيب لوضوحها، قال: «ومنهم القائد الرئيس أبو عبدالله محمد بن محمد بن الرميمي، ولأبيه الظهور بمدينة المرية»[٢٩٥].

وقوله: «. . . منهم الوزير أبو مروان عبدالملك بن يوسف بن صناديد زعيم قاعدة جيان وهو الذي أمكنه (يقصد محمد الغالب بالله) من ناصيتها»[٢٩٦]، وكانا على عهد السلطان محمد بن يوسف الغالب بالله.

وقوله في آخر: «. . . وكان خبّاً داهية أعلم الناس بأخبار الروم وسيرهم وآثارهم»[٢٩٧]، وهو الوزير محمد بن علي بن عبدالله بن الحاج، وكان على عهد السلطان نصر بن محمد بن محمد أبي الجيوش (٧٠٨هـ - ٧٢٢هـ).

وقوله في آخر: «وبيت هؤلاءالقواد شهير، ومكانتهم من الملوك النصريين مكينة»[٢٩٨]، وهذا الوزير القائد أبو عبدالله محمد بن أبي الفتح نصير بن إبراهيم الفهري، وزر للسلطان إسماعيل بن فرج بن إسماعيل (٧١٣ هـ - ٧٢٥ هـ).

وقوله في آخر: «رجل جهوري حازم مؤثر للغلظة على الشفقة»[٢٩٩]، ويعني به

(٢٩٥) - ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٥، وانظر الإحاطة، ج٢، ص ٩٦.
(٢٩٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٩٦، وانظر اللمحة البدرية ص ٤٤.
(٢٩٧) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٣٣٥، وانظر اللمحة البدرية ص ٧١.
(٢٩٨) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٣٨٠، وانظر اللمحة البدرية ص ٧٩.
(٢٩٩) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٢٣٠، وانظر اللمحة البدرية ص ١٠٣.

الوزير القائد أبو الحسن علي بن مول وزر للسلطان يوسف بن إسماعيل بن فرج (٧٣٣ هـ - ٧٥٥ هـ) وهو ابن عمة أبيه أبي الوليد.

٢ - الشرف والأصالة والوجاهة:

مثل قوله: «ومنهم علي بن إبراهيم الشيباني من وجوه حضرته، وذوي النسب من الفضلاء أولي الدماثة والوقار»[٣٠٠]، وزر للسلطان محمد الأول الغالب بالله (٦٢٩ هـ - ٦٧١ هـ).

وقوله في آخر: «وبيته معدود في بيوتات الأشراف»[٣٠١]، وهو الوزير أبو السلطان عزيز بن علي بن عبدالمنعم الداني، كان وزير السلطان محمد بن محمد بن يوسف بن نصر (٦٧١ هـ - ٧٠١ هـ).

وقوله في آخر: «وبيت بني مول بقرطبة بيت له ذكر وأصالة»[٣٠٢]، ويعني به الوزير القائد أبا بكر عتيق بن محمد بن المول، وكان أحد وزراء السلطان نصر بن محمد بن محمد أبي الجيوش.

وقوله في آخر: «من أعيان الحضرة وذوي النباهة»[٣٠٣]، ويعني به الوزير علي بن مسعود المحاربي، وزيراً للسلطان إسماعيل بن فرج بن إسماعيل (٧١٣ هـ - ٧٢٥ هـ).

وقوله في آخر: «من وجوه الدولة، وصدور من يمت بوصله»[٣٠٤]، وهو الوزير القائد محمد بن أبي بكر بن يحيى بن مول المعروف بالقيجاطي، وزيراً للسلطان محمد بن إسماعيل بن فرج (٧٢٥ هـ - ٧٣٣ هـ).

وهذا الصنف من الوزراء لا يخلو من الصفات القيادية والعسكرية أيضاً كما دلت القرائن.

---

(٣٠٠) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٩٦، وانظر اللمحة البدرية ص ٤٤.
(٣٠١) - ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٥٢، وانظر الإحاطة، ج١، ص٥٥٩.
(٣٠٢) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٣٣٥، وانظر اللمحة البدرية ص ٧٠ - ٧١.
(٣٠٣) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٣٨٠، وانظر اللمحة البدرية ص ٧٩.
(٣٠٤) ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٥٣٧، وانظر اللمحة البدرية، ص ٩٤.

٣ - المال والثراء :

كان لأهل المال الدثر، والغناء الثر، في هذه الدولة قرب وحظوة، قلدتهم ذرا الوزارة، يدل على هذا قول ابن الخطيب في أحد وزراء السلطان محمد الأول وهو : «أبو يحيى بن الكاتب من أهل حضرته وأرباب النعم»(٣٠٥).

وقال في آخر : «كبير الأكرة [المزارعين] ونبيه الدهاقين، من منتجعي المدر بحضرته، أبو إسحاق بن عبدالبر، لمخيلة طمع نشأت لمقيمي الدولة فيما بيده»(٣٠٦)، وهو الوزير إبراهيم بن عبدالبر، وزيراً للسلطان يوسف بن إسماعيل بن فرج (٧٣٣ هـ - ٧٥٥ هـ).

وقوله في آخر : «القائد المخصوص بالحظوة، النبيه النشأة، الكثير الترف»(٣٠٧)، ويقصد به الوزير محمد بن إبراهيم بن أبي الفتح الفهري، وقد وزر للسلطان إسماعيل بن يوسف بن فرج (٧٦٠ هـ - ٦٧١ هـ).

٤ - العلم والأدب :

قليلون هم أولئك الوزراء الذين كانوا على درجة كبيرة من التضلع في العلوم الشرعية إلى درجة التقدم والتفرد، من فقه وأصول وقرآن وعلومه وحديث وفنونه اللهم إلا في القليل النادر، لأن هذه العلوم كانت تؤهل للمناصب الدينية والخطط الشرعية كما سنرى، مثل الإمامة والخطابة والتدريس والقضاء والفتيا والحسبة والعدالة والتوثيق وغير ذلك، وإن لم يكن الوزراء خلواً من الإلمام بجميع المعارف والفنون التي يقتضيها الأدب؛ لأنها من الأدوات الضرورية في هذه الوظيفة.

والوزير الوحيد الذي وصف بصفة علمية ترتد إلى علم هو من أشرف العلوم وسط العلوم الشرعية، هو الوزير أبو عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن إبراهيم بن الحكيم الرندي الذي وصفه بقوله : «الوزير الصدر الحاج المحدث»(٣٠٨)، وكان

(٣٠٥) - اللمحة البدرية، ص ٤٥، وانظر ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢.
(٣٠٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٥٥٩، وانظر اللمحة البدرية، ص ٥٢.
(٣٠٧) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٣١٩، وانظر اللمحة البدرية ص ١٠٣.
(٣٠٨) - ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٢٧، وانظر الإحاطة ج١، ص ٤٠٢.

علـى عهـد السلطان محمـد بـن محمـد بن محمـد بن يوسف بـن نصـر (٧٠١ هـ - ٧٠٨ هـ).

ولعل أبرز ملكة تنافس فيها الوزراء، محصت معادنهم، وفاوتت بين مراكزهم، ومازت منهم فرسان البلاغة، وفحول البيان، هي ملكة الأدب، وقد كان معظم الوزراء أمراء هذا الشأن، وجياد الركض في هذا الميدان، ويأتي تاجاً على مفرقهم، وذروة لسناهم، إمام النظم والنثر، وخاتمة الأدباء في العصر، دونما إفك ولا أشر، صاحبنا لسان الدين بن الخطيب.

وهذه المؤهلات والصفات، وإن تفرقت في أكثر من واحد قد تجتمع كلها أو بعضها في واحد، فيحوز قصب السبق، ويكون درة القصر، وياقوتة النحر، كما هو الشأن في رأينا بالنسبة إلى ابن الخطيب.

المطلب الرابع: نهاية الوزارة: صورها وأسبابها:

يلاحظ المتتبع لمسيرة الوزراء في وزاراتهم صوراً متباينة لإبعادهم عن السلطة، ويهمنا أن نتعرف ذلك لنقف على الأسباب، ونعلم مدى قوة مركزه أو ضعفه، وكذا مركز صاحب القرار، أو من يقف وراءه في إبعاده، وكذلك نتعرف وجهاً من وجوه السياسية الداخلية للدولة.

إن الحقيقة الأولى التي يقف عليها الناظر بعد الاستقراء، أن صاحب القرار في الحالات العادية، عندما لا يكون هناك انقلاب هو السلطان نفسه، وهذا لا يمنع أحياناً أن يكون هناك تأثير من جهات أخرى لها نفوذها داخل القصر بالإشارة، وإليك صوراً من صور انقضاء مددهم في هذه الخطة.

١ - استنفاد المدة:

ويكون طوعاً دون تكدير ولا تنغيص، وهذه حالة نادرة، وتكون عندما يسود الاستقرار من جهة، أو يكون الوزير على قدر من العبقرية والنزاهة والاعتدال، وكذلك الضلوع في العلم والأدب من جهة ثانية، وفي هذه الحال أيضاً قد يبقى في الوزارة رغم تعاقب أكثر من سلطان كما هو الشأن بالنسبة إلى الوزير أبي سلطان

عزيز بن علي بن عبدالمنعم الداني، الذي وزر للسلطان محمد الأول حيث يقول فيه ابن الخطيب: «واتصلت أيامه إلى أيام مستوزره [وهو السلطان المذكور] ثم صدراً من أيام ولي عهده»(٣٠٩).

كذلك الشأن بالنسبة للوزير الأديب أبي الحسن بن الجياب أحد شيوخ بن الخطيب الأثراء، وكان أحد وزراء السلطان يوسف بن إسماعيل بن فرج، يقول ابن الخطيب في حقه: «وأقام لرسم الوزارة بكاتبه شيخنا نسيج وحده أبا الحسن بن الجياب. . . وهلك رحمه الله فأجرى لي الرسم»(٣١٠).

٢ - العزل لأسباب أخلاقية:

وهذا الأمر وردت الإشارة إليه في حق أحد الوزراء، ويبدو من خلال الإشارة أنه كان سيء الخلق، غليظ الطبع لا يرفق، شقي الناس به فكان ذلك شافعاً لهم عند السلطان لعزله، وهو الوزير القائد أبو الحسن بن علي بن مول بن يحيى بن مول، وزر للسلطان يوسف بن إسماعيل بن فرج، يقول ابن الخطيب في حقه: «رجل جهوري حازم، مؤثر للغظة على الشفقة، لم ينشب أن كفَّ كفُّ استبداده، فالتاثت حاله، ولزمته شكاية سبكت فاستنقدته»(٣١١).

وقريب من هذا وزير آخر لاشك أنه لم تتوفر فيه المؤهلات المعتبرة باستثناء ما كان عليه من ثراء عريض.

والمرء يدرك مفسدة الثراء الذي لا يزينه العلم والخلق، وما يجلبه من بطر واستكبار، والأمر يتعلق بإبراهيم بن عبدالبر أحد وزراء السلطان يوسف بن إسماعيل بن فرج، قال ابن الخطيب في حقه: «. . . وأنف الخاصة والنبهاء رياسته فطلبوا من السلطان إعاضته فعدل عنه. . .»(٣١٢)، والنص يكشف أيضاً عن الجهة المسؤولة عن عزله.

(٣٠٩) - ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٦٣، وانظر الإحاطة، ج١، ص ٥٤٨ - ٥٤٩.
(٣١٠) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٣٢٠، وانظر اللمحة البدرية، ص ١٠٤.
(٣١١) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٣٢٠، وانظر اللمحة البدرية، ص ١٠٤.
(٣١٢) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٣١٩، وانظر اللمحة البدرية، ص ١٠٣.

٣ - العزل والاعتقال بسبب الاستبداد:

كان استئثار الوزير بكثير من وظائف السلطان، تجاوزاً للحد أو استضعافاً، أو عن رضا من السلطان أحياناً، كثيراً ما يثير الأحقاد، ويعرض الوزير لمغبة العزل، مثلما حدث للوزير الحاجب أبي النعيم رضوان على عهد السلطان يوسف بن إسماعيل بن فرج الذي قال ابن الخطيب في شأنه: «فاتصل نظره مستبداً عليه في تنفيذ الأمور، وتقديم الولاة، والعمال وجواب المخاطبات، وتدبير الرعايا، وقود الجيوش، ثم نكبه، وأحاط به مكروه مجهول السبب..»[٣١٣].

٤ - الصرف والعزل بسبب الخشية:

وهذا الأمر يكون بسبب تنامي جهتي نفوذ، لا يصفو لهما الحال إلا بإبعاد جهة نفوذ واحدة، ويكون البقاء في ذلك للأقوى أو الأذكى أو الأسبق في التأثير في السلطان.

أما الخشية المذكورة فقد تكون حقيقة أو مجرد توجس، وهذا ما حدث بالنسبة إلى الوزير القائد أبي بكر عتيق بن محمد بن المول وزير السلطان نصر بن محمد بن محمد بن يوسف، يقول ابن الخطيب في شأنه: «فقام بأمره، واضطلع بأعباء سلطانه إلى أن كان من تغلب أهل الدولة عليه وإخافة سلطانه منه ما أوجب صرفه إلى المغرب في غرض الرسالة، وأشير عليه في طريقه بإقامته بالمغرب، فكان صرفاً حسناً»[٣١٤].

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الوزير القائد محمد بن أبي بكر بن يحيى بن مول الذي وزر للسلطان محمد بن إسماعيل، «صرف إلى العدوة»[٣١٥]، هو الآخر.

٥ - العزل بتهمة الخيانة العظمى:

ولقد صادفنا لها صورة، وكانت بشعة تثير الاشمئزاز لأنها تخلو من الرحمة،

(٣١٣) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٣١٩ - ٣٢٠، اللمحة البدرية، ص ١٠٣.
(٣١٤) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٣٣٥، اللمحة البدرية، ص ٧١.
(٣١٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٥٣٧، اللمحة البدرية، ص ٩٤.

ويتعلق الأمر بأحد وزراء السلطان إسماعيل بن يوسف وهو محمد بن إبراهيم بن أبي الفتح الفهري الذي أعملت ضده الحيلة كما يفهم واضحاً من كلام ابن الخطيب وقد أثنى عليه[٣١٦]، قال ابن الخطيب: «فلما تم عليه التدبير قام المتولي بعده برسم الوزارة أياماً من شهر رمضان واتهمه واحتج عليه بكتب في مخاطبة سلطان المغرب تبرأ منها فلم يقبل عذره، ولا أقال عثرته، وتقبض عليه وعلى ابن عمه وثلاثة من ولدهما فبعثوا على ظهر إلى ساحل المنكب فأغرقوا به جميعاً»[٣١٧].

٦ - العزل بتهمة الولاء لسلطان اغتصب حقه:

وهذه الصورة حدثت لمؤرخنا الوزير لسان الدين بن الخطيب في أثناء وزارته الأولى عقب الانقلاب الذي جرى على السلطان محمد الغني بالله كما مرت الإشارة في الفصل الأول.

يقول ابن الخطيب مقرراً حقيقة أمره: «فرابهم محلي منه [يقصد السلطان محمد الغني بالله الذي جرت عليه حادثة الانقلاب] وقالوا إنما كان الكدح المعتمد والخطر المرتكب لأن يجعل الملك ثانية في يد هذا الرجل [يقصد السلطان الصبي المستضعف الذي أقامه الانقلابيون واجهة] يأخذ منا ثأر دولته ويقضي حسيفة سلطانه [محمد الغني بالله] فقرروا له... أنني أحطب في حبله وأعمل الحيلة في جبره، وتقبض علي وانتهب قليل ما يعلم لي وكثيره، وتافهه وخطيره، وأعمل التدبير في الإراحة مني، والاحتيال في تسبيب هلاكي»[٣١٨].

ولقد تولى استنقاذ ابن الخطيب من هذه الورطة سلطان المغرب أبو سالم إبراهيم (٧٦٠ هـ - ٧٦٢ هـ) نفسه كما هو معروف.

٧ - العزل لدواعي التشبه بالنصارى:

وحصل هذا على عهد السلطان نصر بن محمد بن محمد رابع ملوك بني نصر

(٣١٦) - انظر اللمحة البدرية، ص ١٣٧.
(٣١٧) - اللمحة البدرية، ص ١٢٧، وانظر الإحاطة، ج١، ص ٤٠٣.
(٣١٨) - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج٢، ص ٣١١.

في حق وزيره أبي عبد الله محمد بن علي بن عبدالله المعروف بابن الحاج وكان أحد أبناء مدجني إشبيلية[٣١٩]، وكان طرْفًا في المعرفة بأحوال الروم وألسنتهم[٣٢٠].

أما عن السبب الموجب لعزله كما قدمت فيقول عنه ابن الخطيب: «نقم الناس عليه إيثاره لمقالات الروم، وانحطاطه في مهوى لهم والتشبه بهم في الأكل والحديث، وكثير من الأحوال والهيئات والاستحسان وتطريز المجالس بأمثالهم وحكمهم سمة وسمت منه عقلاً لنشأته بين ظهرانيهم»[٣٢١].

ورغم تمسك السلطان به، أصرت العامة على إبعاده، وإيصال الأذى إليه، ولم يستنقذه منهم إلا فراره إلى بلاد العدوة، موفورة الحظ، سعيداً بنجاته.

٨ - الاستقالة:

وهي استعفاء الوزير نفسه من مسؤوليات الوزارة بمحض إرادته لأسباب شخصية، ولم يكن من السهل قبولها خاصة إذا تضافرت دواعي الريبة والإنكار.

وهذه الصورة حدثت أيضاً لمؤرخنا الوزير لسان الدين بن الخطيب، الذي تقدم بطلب الإقالة مراراً، فرفضت لأسباب ليس هنا مجال ذكرها، فلما أعياه الطلب، وضايقه المطال أعمل التفكير، فهداه التدبير إلى إيثار الفرار إلى بر العدوة، فكان اختياره بالصفة التي تمت، سابقة لا نظير لها، لذلك كانت العاقبة وخيمة، والنهاية بشعة.

٩ - الاستغناء:

ونعني به الاستغناء عن الوزارة جملة ليضطلع السلطان بجميع مهامه كاملة بما في ذلك ما كان ينوب عنه الوزير فيه. وحدث هذا مرة على عهد السلطان محمد

(٣١٩) - إشبيلية = Sevilla: من أعظم وأشهر المدن الأندلسية، اتخذها بنو عباد قاعدة لملكهم، وهي قريبة من البحر، يطل عليها جبل الشرف الكثير الشجر والزيتون وسائر الفواكه، وتقع أيضاً على شاطئ النهر العظيم «الوادي الكبير» الذي تسير فيه المراكب محملة بأنواع مواد التجر، وينسب إليها العديد من الأعلام. انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ١٩٥، وكذلك الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج٢، ص ٥٤١.

(٣٢٠) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ١٤٠ - ١٤١. اللمحة البدرية، ص ٧١.

(٣٢١) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ١٤٠.

الغني بالله في بداية سلطنته الثانية اعتباراً وإيثاراً للحزم، إلا أن الأمر لم يدم طويلاً.

وقد تكون دواعي هذا عدم الثقة، أو عدم وجود رجل ذي كفاءة عالية يسد الفراغ السياسي الذي أحدث التدبير على الدولة، قال ابن الخطيب مشيراً إلى هذا الاستغناء: «اقتضى حزمه إغفال هذا الرسم جملة مع ضرورته في السياسة، وعظم الدخول حذراً من انبعاث المكروه له من قبله»(٣٢٢).

المطلب الخامس: الاشتراك في الوزارة:

من مظاهر نظم الإدارة المتعلقة بخطة الوزارة في هذه الإيالة، إشراك وزيرين اثنين يتقاسمان أعباء المسؤولية.

ولما كانت العوائد مستقرة والتقاليد مستحكمة في أن يضطلع بهذا الكلّ رجل واحد دفعاً للتنافس المعيق، والشغب المعنت، غالباً ما كانت ترجح كفة الواحد منهما كما حصل على عهد السلطان إسماعيل بن فرج (٧١٣ هـ - ٧٢٥ هـ)، يقول ابن الخطيب: «وزر له أول أمره القائد البهمة أبو عبدالله محمد بن أبي الفتح الفهري. . . أشرك معه في الوزارة الفقيه الوزير أبا الحسن علي بن مسعود المحاربي من أعيان الحضرة، وذوي النباهة، فجاذب رفيقه حبل الخطة، ونازعه لباس الحظوة، حتى ذهب باسمها ومسماها، وهلك القائد أبو عبدالله بن أبي الفتح، فخلص له شربها»(٣٢٣).

وكما حدث زمن وزارة لسان الدين بن الخطيب، الذي كان يتقاسم المنصب مع شيخه الحاجب أبي النعيم رضوان مدة ملك السلطان محمد الغني بالله، حيث يقول عن نفسه: «. . . واختصصت بفوت المدة بالسلطان، فكنت المنفرد بسره دونه [دون الحاجب رضوان]، ومفضى همه، وشفاء نفسه. . .»(٣٢٤).

(٣٢٢) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ١٣٠، وانظر: اللمحة البدرية ص: ١٠٣.
(٣٢٣) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٣٨١. واللمحة البدرية، ص ٧٩.
(٣٢٤) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ١٥ - ١٦. واللمحة البدرية، ص ١١٥ - ١١٦.

وأحياناً لا يكون الاشتراك مدعاة للتنافس إذ يسلم الواحد للآخر فلا يؤثر شنآن ولا شقاق، بيد أنه يفهم من خلال النص أن في ذلك نوعاً من المضايقة، كما يفهم من النص الذي سأذكره، ويتعلق بوزارة أبي النعيم رضوان زمن السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج، يقول ابن الخطيب: «وأقام رسم الوزارة والحجابة والنيابة أبو النعيم مولى أبيه إلى آخر مدته بعد أن التأث أمره لديه، وزاحمه بأحد المماليك المسمى بعصام»(٣٢٥).

وأحياناً يكون الإشراك من اختيارات الوزير المتقدم نفسه حينما تكثر مهامه، فلا يقوى على إدارتها بمفرده، فينظر فيمن يساعده بالإشراك في هذه الوظيفة، وغالباً ما يكون من طلبته الذين خبر أحوالهم، وجرب طباعهم، ووقف على مؤهلاتهم كما فعل الحاجب أبو نعيم رضوان، إبان سلطنة الغني بالله الأولى، حيث انتخب ابن الخطيب وقدمه للوزارة مشاركاً في الخطة، قال ابن الخطيب: «وأفردني (الحاجب رضوان) بالمزية، وعاملني بما يرتد عنه جسر أطرف الموالاة والصحبة، ووفى الكيل الذي لا يقتضيه السن والقربة من الإشراك في الرتبة.. والاختصاص باسم الوزارة على المشهر والغيبة...»(٣٢٦).

وكذلك الشأن بالنسبة إلى ابن الخطيب نفسه حينما ترقى إلى رتبة الحجابة والوزارة والكتابة اختار رجلاً يعينه على تحمل المسؤولية، قال ابن الخطيب: «... فاخترت للكل والبدلة... الفقيه أبا محمد بن عطية... فكان يتولى ما يكتب بنظري»(٣٢٧).

وأحياناً يكون هذا الإشراك منزلة بين الوزارة والكتابة، يستعين الوزير بكاتب من كتاب الدولة في المخاطبات والمراسلات، ويكون ذلك في نفس الوقت تدريباً وترشيحاً للوزارة عند نهاية وزارة مقدمة.

(٣٢٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٥٣٧. واللمحة البدرية، ص ٩٤.
(٣٢٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ١٥ - ١٦.
(٣٢٧) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٧١. واللمحة البدرية، ص ١١٦.

المطلب السادس: الوزارة المزدوجة:

ونعني به اصطلاح ذي الوزارتين الذي كثيراً ما أطلق على وزراء أندلسيين خاصة، لأنه اصطلاح سياسي نشأ في الأندلس دون مدافع لم تشاركها فيه دولة من الدول. يذكر ابن خلدون وهو يتتبع التطور السياسي والتاريخي لخطة الوزارة، أن هذا الاصطلاح ظهر زمن دول الطوائف الذين كانوا يبالغون في الاحتفاء بالمصطلحات الملوكية الفخمة مثل الحاجب «وذي الوزارتين يعنون به السيف والقلم... على جمعه لخطتي السيف والقلم»[٣٢٨].

ووزارة السيف تعني القيادة، وتتضمن الشروط والمعاني والصلاحيات التي عرضناها من خلال ما تقدم، أما وزارة القلم فتعني الكتابة، وديوان الإنشاء وهي أيضاً من الوظائف الخطيرة القدر كما سنرى عندما نتطرق لخطة الكتابة.

وقلما اجتمعت هاتان الخطتان في يد رجل واحد، ومن جمعتا له كان من الأفذاذ دون منازع.

ولم تكن دواعي اجتماعهما اعتباطية ارتجالية، وإنما كانت هناك مقاييس صارمة ومبررات وجيهة، ترتد إلى اعتبار المؤهلات الموجبة، وتقدير الكفاءات المغربة في فني السياسة والأدب، من أصالة وذكاء وحنكة، وسيادة، وقيادة من جهة، وإلمام بجميع الفنون من آداب وعلوم ومعارف متنوعة، مما أنتجته الحلوم من جهة ثانية.

واجتماع أكثر من خطة في يد شخصية واحدة، ظاهرة بارزة في النظم الإدارية كما سنرى.

وسبب هذا في ظننا راجع إلى صلة القربى بين هذه الوظائف، واجتماع كفاءات متعددة في شخصية واحدة، وهذا يؤكد روح الفردانية التي كانت سائدة، والتي كانت غالباً ما تؤدي إلى التفرد والاستبداد المؤدي بدوره إلى الاختلال أحياناً بسبب التحاسد والتنافر.

(٣٢٨) - ابن خلدون، ج٢، ٦٧١ - ٦٧٢.

ومن النصوص التي تشير إلى هذه المسألة على سبيل المثال لا الحصر قول ابن الخطيب في حق الوزير محمد بن عبدالرحمن بن إبراهيم اللخمي، الذي وزر للسلطان الثاني من ملوك بني نصر: «وجمع له بين الكتابة والوزارة ولقبه بذي الوزارتين...»[٣٢٩].

وكذلك الشأن بالنسبة إلى صاحبنا لسان الدين بن الخطيب الذي اجتمعت في يده وزارتا السيف والقلم وحظي بلقب ذي الوزارتين، فكان ألصق به عند الناس من غيره، حتى ليظن الذي لا علم له بهذا الاصطلاح أنه لقب مخصوص به لا ينازعه فيه أحد.

المطلب السابع: صلاحيات الوزير:

اضطلع الوزير على عهد هذه الدولة بمهام عدة، وصلاحيات متنوعة، دلت على شفوف العلائق، وخلوص الوشائج التي قد تكون بين الوزير والسلطان.

فالوزير هو ترجمان السلطان، ولسان حاله في كل أوان، وهو أداة تنفيذ سياسته عند الإيراد والإصدار، والوسيط بينه وبين كافة أرباب الوظائف، في جهاز إدارة المملكة، وكذا بينه وبين الخاصة والعامة، من كافة الرعية.

ولقد تفاوتت هذه الصلاحيات حسب الأزمنة والظروف، وحسب الوزراء والملوك، وتبلغ غاياتها حينما يتسنم صاحبها ذروة الوزارة والقيادة والكتابة والحجابة، وهي الرتب التي إذا اجتمعت في يد رجل واحد أيضاً، وسمت وزارته بوزارة الاستبداد، حتى وإن تحرى النزاهة والعدالة ما استطاع، فما صلاحيات الوزير المختلفة كما نستشفها من «إحاطة» ابن الخطيب؟.

قبل أن أسترسل في عرض صلاحيات الوزير بناء على ما جاء في المعطيات التاريخية الخطيبية، لابد من التنبيه على أمر منهجي، وهو أن مجمل الصلاحيات جاءت في ثنايا أخبار ابن الخطيب الوزارية، الذي استطرد وأفاض في هذه الأمور، لأنها تتعلق بوصف حاله، وبيان مجده وسؤدده، فوجد العون من نفسه، فأطلق

(٣٢٩) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ٤٤٧.

العنان ليراعه، فأحفنا بتفاصيل غضت عن حطيطة فخره واعتداده بنفسه، يقول ابن الخطيب متحدثاً عن نفسه في معرض الترجمة للسلطان محمد الخامس الغني بالله: «قمت لأول الأمر بين يديه بالوظيفة التي أسندها إلي أبوه المولى المقدس رحمه الله من الوقوف على رأسه، والإمساك في التهاني والمبايعة بيده، والكتابة والإنشاء، والعرض والجواب، والخلعة والمجالسة، جامعاً بين خدمة القلم، ولقب الوزارة، معزز الخطط برسم القيادة، مخصوصاً بالنيابة عنه في الغيبة على كل ما اشتمل عليه سور القلعة والحضرة، مطلق أمور الإيالة. . . فنقلني من جلسة المواجهة إلى صف الوزارة»(٣٣٠).

وقال في نص آخر يشير فيه أيضاً إلى صلاحياته وامتيازاته وزيراً وكاتباً: «. . . واستعملني في السفارة إلى الملوك، واستنابني بدار ملكه، ورمى إلي بخاتمه وسيفه، وائتمنني على صوان ذخيرته، وبيت ماله، وسجوف حرمه، ومعقل امتناعه، ومن فصول منشوره: «وأطلقنا يده على كل ما جعل الله لنا النظر فيه»(٣٣١).

ولقد دل النصان على الامتيازات والمهام الآتية:

١ - رئاسة بروتوكول مجلسي البيعة والتهاني:

وقد سبق الحديث عن هذين المجلسين عند الحديث عن صلاحيات السلطان، والذي يهمنا في هذا الصدد، الوقوف على دور الوزير في هذين المجلسين، وكذلك المراسيم والآداب التي تقتضيها أبهة الملك، وفخامة السلطنة، وقد دل النص في هذا المجال على الحقائق التالية:

أ - وقوف الوزير على رأس السلطان.

ب - كون السلطان جالساً على سرير الملك.

ج - إمساك الوزير بيده.

(٣٣٠) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ١٧ - ١٨.

(٣٣١) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٤٤٣.

٢ - كتابة الدولة ورئاسة الديوان :

وهذه الرئاسة تكون حينما يكون الوزير كاتباً، حيث يرجع إليه أمر الإحاطة بما يدور في الديوان، ومتابعة كتابات الكتاب على اختلاف مقاصدهم وأغراضهم بناء على ما يملى عليهم من قبل السلطان أو الوزير الكاتب نفسه، وتتلخص وظيفة الديوان في مهمتين أساسيتين هما :

أ - الكتابة والإنشاء :

وقد عرفنا أن أغراض الكتابة متنوعة بتنوع الشؤون والقضايا التي تهتم بها الدولة، كصياغة الظهائر المتعلقة بالمناصب، وصياغة عقود الاتفاقيات التي تعقدها الدولة مع دول الجوار في السلم والحرب، وصياغة الرسائل الدبلوماسية المختلفة الموجهة إلى الدول الصغيرة، إلى غير ذلك من الأغراض[٣٣٢].

ب - العرض والجواب :

ومعنى العرض فيما أظن هو قراءة الرسائل والمخاطبات الواردة على الدولة من الجهات المختلفة سواء من داخل المملكة أو من خارجها.

أما الجواب فهو الجواب عن هذه المكاتبات والمخاطبات فور وصولها بما يقتضيه المقام والظرف والغرض، والفرق بين الكتابة والإنشاء وبين العرض والجواب كالفرق بين المبادرة لغير أسباب وبين القبول والإيجاب.

٣ - الخلعة ومجالسة السلطان :

والخلعة هي اللباس، والمجالسة هي مشاركة السلطان في جلوسه، وهذه ليست صلاحيات بقدر ما هي امتيازات وتشريفات، لكن إذا تصورنا أن السلطان وسط الحاشية والوفود، له جلوس مخصوص، وإلى جانبه الوزير في مجلس مخصوص قريب في الأبهة من مجلسه، أدركنا مغزى تنويه ابن الخطيب بهذين الأمرين بهذه الصورة، فالوزير في هذا الحال يقوم مقام السلطان في العرض والبت.

(٣٣٢) - انظر ابن الخطيب. ريحانة الكتاب.

والخلعة مصطلح قديم، واصطلاح ملوكي عريق، يدل على الإيثار والحظوة والتكريم، ويتمثل في خلع السلطان على الوزير الخلع النبيهة احتفاء به وتنويهاً بفضله.

٤ - القيادة العسكرية:

وتعني قيادة الجيش وإدارة العسكر، بعرضه وتفقد شؤونه وقت السلم ووقت الحرب، كما تعني القيادة أيضاً حكم جهة من الجهات أو ولاية من الولايات كما يشهد لذلك نص جاء في كتاب «اللمحة البدرية»، قال ابن الخطيب يتحدث عن أفضال السلطان محمد الغني بالله عليه، وكذا صلاحياته كوزير: «... وعزز الخطة بالقيادة بعمالة أرجبة[٣٣٣] ولاية الرؤساء من قرابته مسوغ الإقطاع الجم من مستخلصه تولى الله جزاءه وزكاء فضله»[٣٣٤].

وسيتضح مدلول القيادة أكثر عند الحديث عن النيابة.

وأما فيما يتعلق بالقيادة العسكرية فهناك نص ورد في كتاب «أعمال الأعلام» يفصل ما جاء في النصين المذكورين آنفاً، يقول ابن الخطيب في معرض حديثه عما كان يجول بخاطره في وزارته الثانية، وقد استبد به وسواسه وأحاط به شغبه، وألح عليه الشوق إلى الرحيل عن الأندلس: «وفي كل آونة وساعة، وأثناء كل تفرد وخلوة.. أخاطب نفسي: فأقول لها: يا مشؤومة، أما تشعرين بما نزل بك، حملت هذا الكل على ضعفك، وأوسعت هذا الشغب في فكرك [ثم يعرض ما كان يسخط ومن جملته]: ... وتسخطين الجيش باختباره وعرضه ومنع المدفوع إليه في غير حقه... وتعادين طلاب الولايات... وتعادين الملوك المجاورة بالتوقف في أغراضهم التي يصعب قضاؤها، ويضر بالدولة إمضاؤها...»[٣٣٥].

٥ - النيابة عن السلطان:

(٣٣٣) - أرجبة = Orgiva بلدة تقع جنوب شرقي غرناطة.
(٣٣٤) - ابن الخطيب. اللمحة البدرية، ص ١١٧.
(٣٣٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٣١٥.

وتعني نيابة السلطان عند غيبته، إما برسم الجهاد أو برسم التفقد، أو برسم الاستجمام. وفي هذه الحال يضطلع الوزير بجميع مسؤوليات السلطان علاوة على تبعة الأمانة العظمى وتتمثل في:

أ - إدارة القصر. والمحافظة على متاعه.

ب - تقليد الخاتم والسيف، والخاتم هو آلة العلامة، وأداة الختم على المكتوبات، والسيف هو عنوان القيادة وشارة السيادة.

ت - الأمانة على صوان الذخيرة:

وهي خزانة السلاح وإرث الدولة في المعدات الحربية وغيرها.

ث - الأمانة على بيت المال:

وبيت المال مصطلح عريق، ونسبه في دولة الإسلام عتيق، إذ هو الخزانة العامة لأموال المسلمين على اختلافها، تجنى من مواردها الشرعية المختلفة، وتصرف في مصاريفها المبينة، وائتمان الوزير على المال قمة الثقة في صحة العقد وخلوص النية، وكذلك قمة الاختيار والامتحان لخلة الأمانة.

ج - الأمانة على سجوف الحرم:

السجوف أو الأسجاف جمع السّجف والسّجف هي الأستار والحجب[٣٣٦]، ومعناها في النص المذكور الحفاظ على حرمة الحريم السلطاني في القصر، فلا تكشف له عورة ولا يهتك له ستر، وهذه أمانة لا تقل ثقلاً عن الأمانة على بيت المال لما في ذلك من فتنة وتمحيص للنفوس، وهذا لا يتم إلا إذا أصبح الوزير عضواً حقيقياً في الأسرة المالكة.

ج - الأمانة على معقل الامتناع:

وفي هذه العبارة ما فيها من معان جامعة لكل ما مرّ من تفاصيل، فالسلطان قد جعل قصره بمن فيه وما فيه تحت تصرف الوزير النائب، وهو معقل امتناعه، وأجمة

(٣٣٦) - ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص ١٩٤٤ - ١٩٤٥.

رعيه، وعرين إقامته، ومثوى عصمته، إذا داهمته الخطوب، وأهمته الكروب، وهذه غاية الثقة، ونهاية المبرّة والرّكون.

ومن النصوص التي تكشف عن مطلق الحرية في التصرف في أثناء النيابة عن السلطان في غيبته ما يذكره ابن الخطيب في معرض حديثه عن الأمير القشتالي دون بدرو Don Pedro الذي قتله المسلمون في إحدى المعارك الظافرة، ثم جعلوه في تابوت من الخشب، ونصب بسور المنازل من الحمراء يسار الداخل بباب يعقوب من أبوابها إذاعة للشهرة وتثبيتاً لتخليد الفخر(٣٣٧).

يقول ابن الخطيب متحدثاً عن نفسه وقد اقتضى نظره وهو نائب عن السلطان أن يجدد هذا الفخر، ويرمم هذا الأثر: «ومن الغريب أنني في هذه الأيام بعد خمسين سنة تماماً [٧٦٩ هـ]، تفقدت ذلك المكان في بعض ما أباشره أيام نيابتي عن السلطان بدار ملكه على عادتي، فألفيته [التابوت] قد علا على كوم من الحجارة، رجم الصبيان إياه، فظهر لي تجديد الإشادة به والاستفتاح بوقوع مثله...»(٣٣٨).

ولقد أكد هذا الأمر نص لابن فضل الله العمري في مسالكه، يقول: «وقد كانت لهم وقيعة في الإفرنج سنة تسع وأربعين وسبعمائة على مرج غرناطة قتل للإفرنج أكثر من ستين ألفاً وملكان وهما: بطره وجوان عمه، وبطره الآن معلق جسده في تابوت على أبواب الحمراء، وافتديت جيفة جوان بأموال عظيمة وحاز المسلمون غنيمة من أموالهم قَلَّما يذكر مثلها في تاريخ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم»(٣٣٩).

٦ - السفارة إلى الدول:

والسفارة تعني انتقال الوزير بنفسه إلى الدول المجاورة بقصد خلق روابط التعاون وحسن الجوار، أو تجديد العهود والمواثيق، أو عقد المعاهدات والاتفاقيات

(٣٣٧) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٣٨٩.
(٣٣٨) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٣٩٠.
(٣٣٩) - ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: د مصطفى أبو ضيف، ص ١٥٩.

في كافة المجالات، وكانت الأمور التي تطغى على هذه السفارات، إما طلب العون والإمدادات وتمتين روابط الأخوة الإسلامية من جهة، وهذا يتم مع دول الإسلام وإما عقد اتفاقيات السلم والهدنة وحسن الجوار من جهة ثانية، وهذا يتم مع الدول المسيحية المجاورة.

ولقد سجل التاريخ لابن الخطيب سفارتين مهمتين: أولاهما: تلك التي قام بها على عهد السلطان أبي الحجاج يوسف (٧٣٣ هـ - ٧٥٥ هـ)، حيث بعثه إلى سلطان المغرب آنذاك أبي عنان فارس (٧٤٩ هـ - ٧٥٩ هـ)، عقب وفاة والده أبي الحسن علي (٧٣٢ هـ - ٧٤٩ هـ)، ولم يشر ابن الخطيب إلى غرض هذه السفارة، لكن ابن خلدون جلّى عن غرضها حينما ترجم له في كتابه العبر، يقول ابن خلدون: «وسفر عنه إلى السلطان أبي عنان ملك بني مرين بالعدوة معزياً بأبيه السلطان أبي الحسن، فجلى في أغراض سفارته»(٣٤٠).

وثانيها تلك التي كانت على عهد السلطان محمد الغني بالله سنة ٧٥٥ هـ إلى سلطان المغرب أبي عنان، وكان غرضها الاستظهار وطلب العون، يصف ابن خلدون هذه السفارة أيضاً بقوله: «ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيراً إلى السلطان أبي عنان مستمدين منه على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفهم، فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه، تقدم الوفد الذي معه من وزراء الأندلس وفقهائها واستأذنه في إنشاء شعر قدمه بين يدي نجواه، فأذن له، وأنشد وهو قائم... فاهتز السلطان لهذه الأبيات، وأذن له في الجلوس وقال له قبل أن يجلس: «ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم»(٣٤١).

٧ - صلاحية الاستبداد:

وتعني استئثار الوزير بإدارة كافة شؤون المملكة، سواء تعلق الأمر بالوزارة أو الكتابة أو الحجابة، وقد يتعدى ذلك إلى الاستئثار بكثير من صلاحيات الملك،

(٣٤٠) - ابن خلدون، العبر، ج١٣، ص ٦٩٠، وانظر المقري، نفح الطيب ج٥، ص ٩٨.
(٣٤١) - ابن خلدون، العبر، ج١٣، ص ٦٩٠ - ٦٩١، وانظر المقري، نفح الطيب، ج٥، ص ٩٨ ٠ ٩٩.

مطلق اليد، حتى إنه لتختفي أحياناً شخصية السلطان، فلا تظهر إلاّ شخصية الوزير المستبد.

والاستبداد من الناحية الاصطلاحية لا يعني الظلم والجور، وإنما يعني تجاوز حدود الاختصاص المعهود، والصلاحيات المعروفة، كما لا يعني أن هذا التجاوز يكون بغير إرادة السلطان، وإنما يكون هذا باختياره، كما تكون شخصية الوزير قوية تنطوي على مؤهلات نادرة وكفاءات عالية.

هذا ولم يخل الأمر من وجود وزير الاستبداد الذي سعى إلى الاستبداد بغير إرادة السلطان، فتجاوز الحدود، فذاق وبال أمره.

وتجدر الملاحظة كما مرت الإشارة أن الوزير المستبد سواء الذي يتجاوز الحد ولم يتحر العدل، أو الذي حسن تدبيره بتحري النزاهة والنصفة، نادراً ما تسالمه الأقدار وينجو من الأغدار.

ولقد وجد في مملكة غرناطة عدة وزراء مستبدين سبقت الإشارة إلى بعض منهم.

ولما كان صاحبنا ابن الخطيب، أحد الوزراء الذين استأثروا بالاستبداد، سأقصر الإشارة على بيان مظاهر الاستبداد من خلال ترجمته:

مظاهر الاستبداد:

أ - صدور الظهير السلطاني بتخويل الوزير إطلاق اليد على ما للسلطان مطلق التصرف فيه، قال ابن الخطيب منوهاً بفحوى نص ظهير سلطانه: «ومن فصول منشوره: «وأطلقنا يده على كل ما جعل الله لنا النظر فيه»[٣٤٢].

وقوله: «وأصدر لي هذا الظهير ثاني يوم ولايته: «هذا ظهير كريم صفي شربه»[٣٤٣].

(٣٤٢) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٤٤٣.
(٣٤٣) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٧ - ١٨

وقال ابن الخطيب في معرض الحديث عن خواطره وهواجسه التي رجحت لديه أسباب الانتقال، ودواعي الفرار، بما يكشف عن مطلق التصرف، وقد ألمعت إلى شيء منه آنفاً: «وفي كل آونة... أخاطب نفسي...: يا مشؤومة.. حملت هذا الكل على ضعفك... وتعرضت لأن تسخطي الطالب الممنوع بخيبته، وتُسْخطي المعطى بما يرى أنك قد منعته من الزيادة في عطيته، وتسخطي الأجنبي بالقبول عَلى عدوه والميل إلى ضده، وبالإعراض عن صديقه، وتسخطي الجاني بإنفاذ العقوبة في جنايته، والمجني عليه بالتقصير عن غرضه الذي يقتضيه شفاء نفسه، وتسخطي الجيش باختباره وعرضه، ومنع المدفوع إليه في غير حقه، وتسخطي الرعية باستقصاء الجباية، وأخذها للإعداد لعدوها في الشدة، من تحصين ثلمة، وإعداد عدة، واختزان ماء أو قوت لشدة، وتعادين طلاب الولايات إذ محا منها ربع عددهم، وأنت مضطرة إلى مطل وعدة وارتقاب مداولة، وتعادين الأهل والقرابة والولد بمنع الأيدي والعدل في الشهوات، وسد أبواب الشفاعات، وتعادين خاصة السلطان بالانفراد به دونهم، وتعادين الملوك المجاورة بالتوقف في أغراضهم التي يصعب قضاؤها، ويضر بالدولة إمضاؤها وتعادين ولد السلطان بعدله في الشهوات، والقيام دونه دون كثير من الأغراض، ومخالفة امرئ يحظيه بحسب الهوى من الخدام، وتقريعه في باب إفساد الأموال، إذ لا تعطيه بسبب الدولة عليه والتربية له...»[٣٤٤].

ب - صلاحيات متصلة:

يقول ابن الخطيب مشيراً إلى صلاحيات وزارة الاستبداد من خلال الحديث عن وزارة الحاجب أبي النعيم رضوان: «فاتصل نظره مستبداً عليه في تنفيذ الأمور، وتقديم الولاة والعمال، وجواب المخاطبات، وتدبير الرعايا، وقود الجيوش»[٣٤٥].

جـ - الانفراد بالسر:

وكان يطلق اصطلاح «كاتب السر» على كل من ترقى إلى غاية ينفرد فيها

(٣٤٤) - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج٢، ص ٣١٥ - ٣١٦.
(٣٤٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٣١٩ - ٣٢٠.

بالسلطان فلا يطلع غيرهما على ما يدور بينهما من أمور، وهذه غاية ما بعدها غاية في الشفوف والخلوص.

قال ابن الخطيب متحدثاً عن نفسه: «واختصصت بفوت المدة بالسلطان، فكنت المنفرد بسره...»[٣٤٦]. وقال أيضاً: «... وقصر المشورة على نصحي»[٣٤٧]، وقال أيضاً: «... فقلدني السلطان كتابة سره»[٣٤٨].

د - تحكيم رأيه في اختياره:

وهذا التعبير في غاية البلاغة والدقة، استخدمه ابن الخطيب في التعبير عن تحكمه في مقاليد أمور الإيالة جملة وتفصيلاً، حيث أصبح السلطان مسلوب الاختيار، أسير عقله لما يمليه عليه ابن الخطيب من آراء وأفكار، يقول ابن الخطيب: «ثم رمى إلي بعد ذلك بمقاليد رأيه، وحكم عقلي في اختيار عقله»[٣٤٩].

ويبلغ التعبير عن الاستبداد أقصاه ومنتهاه حينما يقول ابن الخطيب وهو يقدم لبعض من المختارات من الرسائل والأشعار التي كان يخاطبه بها الكثير من أعلام عصره، مشيداً بفضله وعلو شأنه: «وأما ما رفع إلي من الموضوعات العلمية، أو الوسائل الأدبية، والرسائل الإخوانية، لما أقامني الملك صنماً يعبد، وجبلاً إليه يستند، صادرة عن الأعلام وحملة الأقلام، ورؤساء النثار والنظام، فجمّ يضيق عنه الإحصاء، ويعجز عن ضم نشره الاستقصاء»[٣٥٠].

المقصد الثالث: الكتابة:

مقدمة:

وهي من الوظائف المُهمَّة التي احتفل برسمها القصر الغرناطي على عهد الدولة

(٣٤٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٥ - ١٦.
(٣٤٧) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ٤٤٣.
(٣٤٨) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٤٤٣، والمقري، نفح الطيب، ج٥، ص ٧٦.
(٣٤٩) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٣٤.
(٣٥٠) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤٥٧، وانظر المقري، نفح الطيب، ج٢، ص ٧٦.

النصرية، إذ لم تكن أقل أهمية عن الوزارة وأحياناً تداحلت الكتابة مع الوزارة كما رأينا حينما يصير الكاتب وزيراً والوزير كاتباً.

وقبل أن أتصدى لعرض ما يمكن عرضه حول هذه الخطة، لابد من التنبيه على ملاحظة منهجية، وهي أننا في حديثنا عن الوزارة، قد ألممنا بكثير من مظاهر هذه الخطة، للتداخل الحاصل أحياناً بين الوزارة والكتابة كما أسلفت.

والكتابة كما يفهم من النصوص التاريخية المختلفة ما يصدر عن كتاب الدولة المختارين من قبل السلطان أو الوزير للاضطلاع بمهمة التدوين والصياغة لما تبرمه الدولة من توقيعات في شؤونها المختلفة.

المطلب الأول: الكتابة، المكانة والمحل:

أما الكتابة كما يقرر حدها القلقشندي ويحدد مقوماتها، وهو المتخصص في هذا الشأن أكثر من غيره، على الأقل فيما طبع من تراث في هذا الباب، فهي: إحدى الصنائع فلابد فيها من الأمور الأربعة، فمادتها الألفاظ التي تخيلها الكتاب في أوهامه، وتصور من ضمّ بعضها إلى بعض صورة باطنة في نفسه بالقوة، والخط الذي يخطه القلم، ويقيد به تلك الصور... وغرضها الذي ينقطع الفعل عنده تقليد الألفاظ بالرسوم الخطية... وغايتها الشيء المستثمر منها»[٣٥١].

وهي وظيفة في زعم ابن خلدون ليست ضرورية للدولة، وإنما دعا إليها التوسع في المناصب تفخيماً للسلطان وأبهة للملك، يقول: «هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأساً، كما في الدول العربية في البداوة التي لا يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع، وإنما أكد الحاجة إليها في الدول الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد»[٣٥٢].

ويسمى الكتاب الذي يجتمع فيه الكتاب لمباشرة مهام الكتابة «ديواناً» ويطلق عليه في أغلب الأحيان تمييزاً له من سائر الدوواين الأخرى المركبات الإضافية

(٣٥١) - القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ٦٤.
(٣٥٢) - ابن الخلدون، العبر، ج٢، ص ٦٨٠.

الآتية: «ديوان الإنشاء»، «ديوان الرسائل»و «ديوان الرسائل والإنشاء»، «ديوان الكتاب».

والديوان قد يضم مجموعة من الكتاب حسب الضرورة والظروف السياسية، جاء في ترجمة محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدوسي قول ابن الخطيب: «وترشح للكتب بالدار السلطانية مع الجماعة ممن هو في نظمه»(٣٥٣)، وعندئذ لابد لهم من رئيس يتقدمهم، ويكون الوسيط بينهم وبين السلطان أو الوزير، ويسمى «رئيس الكتاب»، وأحياناً «صاحب القلم الأعلى» وأحياناً أخرى «كاتب السر» أو «صاحب الكتابة العليا» أو «كاتب الدولة»، وهو الذي يكون في الغالب مرشحاً للوزارة أو الكتابة والوزارة معاً.

المطلب الثاني: مؤهلات الكاتب:

أما ما ينبغي أن يكون عليه الكاتب من مواصفات ومؤهلات فيجملها ابن خلدون في الفقرة الآتية: «واعلم أن صاحب هذه الخطة لابد له أن يخيّر من أرفع طبقات الناس، وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم، وعارضة البلاغة، فإنه معرض للنظر في أصول العلم، لما يعرض في مجالس الملوك، ومقاصد أحكامهم، من أمثال ذلك، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب، والتخلق بالفضائل، مع ما يضطر إليه في الترسيل، وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها»(٣٥٤).

أما ابن الخطيب في إحاطته وإن لم يحدد لنا خطة الكتابة في عبارة عامة جامعة مانعة فإنه فصّل ما يتعلق بهذه الوظيفة من خلال ما عرضه من أخبار وأحوال ونصوص تتعلق بأصحاب هذه الخطة، وما تفتقت عنه أذهانهم من درر، وجادت به أقلامهم من تحف فنية وبلاغية وعلمية، وأدبية وإخبارية بديعة تشهد بنباهة هذه الخطة، وشرف هذه الوظيفة، تم ذلك من خلال طريقتين:

(٣٥٣) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٢٥٥.
(٣٥٤) - ابن خلدون، ج٢، ص ٦٨١.

الأولى: حينما ترجم للملوك والأمراء والسلاطين من بني الأحمر حيث جعل عنوان «كتّابه» عنصراً مطرداً في جميع التراجم أحصى من خلاله كتاب الدولة على عهد كل سلطان على حدة، كما رتب أسماءهم بحسب الولاية.

الثانية: حينما ترجم للأعلام الذين تقلدوا هذه الخطة، معرباً عن أحوالهم وصفاتهم، ومؤهلاتهم والعلوم التي تقدموا فيها، وكذلك الرتب السياسية التي رتبوا فيها، فأعطى تصوراً مفيداً عن هذه الخطة، وكشف النقاب عن رسومها وعوائدها بما لا شيء فوقه.

١- الضلوع في الأدب:

وإن كانت الوزارة من حيث المؤهلات والكفاءات تتطلب الضلوع في القيادة والسياسة بالدرجة الأولى، إلى جانب صفات أخرى ذكرناها في موضعها كالعلم والجاه والثراء، فإن كتابة الدولة تتطلب التقدم بالدرجة الأولى في امتلاك ناصية الأدب، والتفنن في مذاهب الكلام، والخبرة بمسالك البلاغة، وشعاب الفصاحة، لأن الكاتب هو عنوان الدولة، وما يصدر عنه من إنشاء هو المحك، به تعلو الدولة بين الدول إذا اتصفت اليراعة بالبراعة، وتسفل إذا انحطت عن هذه المرتبة.

وإن كان البروز في الأدب شرطاً ضرورياً فهذا لا يعني خلو الكاتب من المعارف والعلوم الأخرى المختلفة، علماً بأن الأدب في جوهره يعني اتساع نطاق المشاركة، والضرب بالسهم من كل طرف، ولقد وجدنا معظم الكتاب كانوا علماء أفذاذاً، ولا أدل على هذا من صاحبنا لسان الدين بن الخطيب، الذي كان آية من آيات الله في النظم والمعارف والأدب كما قال ابن خلدون، حجة، سواء القريحة في النظام والنِّثار.

ب- الإلمام بالمعارف:

ولقد دل الاستقراء والنظر في الصفات البارزة التي حلى بها ابن الخطيب كتاب الدولة على امتداد تاريخ هذه الدولة أن معظمها يرتد إلى العلوم الشرعية والأدب والخط مثل قوله محلياً علي بن محمد بن علي بن هيضم الرعيني (٦٦٦هـ)، وكان

أحد كتاب السلطان محمد الأول: «وكان محدثاً عارفاً بالرواية متعدد المشيخة، فاضلا ديناً، مشاركاً في كثير من المعارف، حسن الخط، جيد الكتابة» (٣٥٥).

وقوله في محمد بن عبدالرحمن بن إبراهيم بن الحكيم اللخمي الرندي (٦٦٠هـ - ٧٠٨هـ) وهو أيضاً أحد كتاب محمد الأول: «كاتباً بليغاً شاعراً حسن الخط، يكتب خطوطاً على أنواع كلها جميلة الانطباع، خطيباً فصيح القلم... يقوم على المسائل الفقهية... رفع راية الحديث والتحديث، نفّق بضاعة الطلب، وأحيا معالم الأدب...» (٣٥٦).

وقد قال في شيخه ووارث خطته أبي الحسن علي بن الجياب (٦٧٣ هـ - ٧٤٩هـ) الذي خدم كاتباً للدولة النصرية نحواً من خمسين سنة أو ما ينيف عنها: «شيخ طلبة الأندلس، رواية وتحقيقاً، ومشاركة في كثير من العلوم، قائماً على العربية واللغة، إماماً في الفرائض والحساب، عارفاً بالقراءات والحديث، متبحراً في الأدب والتاريخ، مشاركاً في علم التصوف...» (٣٥٧).

جلبت هذه النصوص على تفرقها لأنها تلخص ما كانت تتطلب هذه الخطة من كفاءة علمية بارعة.

وإذا كان الوزراء عادة ما تنتهي حياتهم بالعزل، وسوء العاقبة، فإن الكتاب على خلاف ذلك غالباً يسالمهم الدهر لعدم تورطهم بما يتورط فيه الوزير عادة، اللهم إلا الكتّاب الذين ارتقوا إلى صف الوزارة، وكم وجد من كاتب خدم في ديوان الكتابة مدة لا يثنيه عن منصبه تبدل الملوك وتعاقب السلاطين، إلا إذا اتهم في دينه بما يخدش حرمة الخطة، كما ورد في شأن أبي القاسم محمد بن عابد الأنصاري (ت: ٧٦٢ هـ)، وكان أحد كتاب السلطان محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، ثاني ملوك الدولة النصرية حيث قال ابن الخطيب في حقه: «.. أحد الشيوخ وبقية الصدور والأدباء، أقام كاتباً عنه مدة إلى أن أبرمه انحطاطاً في هوى نفسه، وإيثاره

(٣٥٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص١٦٣.
(٣٥٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص٤٤٥ - ٤٤٦.
(٣٥٧) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص١٢٥ - ١٢٦.

المعاقرة، حتى لزعموا أنه قاء يوماً بين يديه، فأخره عن رتبته، وأقامه في عدد كتابه، وتحت رفده» (٣٥٨).

كما يلاحظ أنه كان ينخرط في سلك ديوان الإنشاء أكثر من واحد من عائلة واحدة، إما اجتماعاً في زمان واحد، وإما توارثاً على تعاقب الأزمان.

وكان في معظم الأحيان رئيس الكتاب هو الذي ينتقي كتاب الديوان لخبرته، وإذا ارتقى إلى الوزارة رشح من يخلفه في رئاسة الكتابة.

كما وجد في كتاب الدولة النصرية من كتب في ديوان كتابة الإنشاء للدولة المرينية في بر العدوة. وكان من صلاحيات الكاتب أن يستعمل في السفارة إلى الدول المجاورة، وكان من صلاحياته أحياناً أن ينوب عن الوزير في إنفاذه أمره، يقول ابن الخطيب: «. . . ثم استخدمت في الكتابة والعرض أخريات أيامه كاتب الدولة الأندلسية الفقيه الكاتب أبا محمد بن عبد الحق بن أبي القاسم بن عطية، فحمدت منابه لحمل الكلّ والصبر على عبء الخدمة» (٣٥٩)، وقال عنه أيضاً: «. . . فكان يتولى ما يكتب بنظري، راجعاً لحكمي، متردداً لبالي» (٣٦٠).

هذه هي مجمل الوظائف السياسية الأساسية كما دلّ عليها الاستقراء لما تفرق في «الإحاطة» هنا وهناك، لمنا شعثها ونظمنا متناثرها، وفق ما هدانا إليه النظر، كما يجدر التنبيه على أننا وقفنا أيضاً على وظائف أخرى تنخرط في سلك الوظائف السياسية المذكورة، نعرض لها فيما يأتي من الصفحات.

المقصد الرابع: وظائف سياسية تابعة:

مقدمة:

من خلال استقرائنا لكتاب الإحاطة ونحن نستجمع شتات الإشارات التي

(٣٥٨) - ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٥٣.
(٣٥٩) - ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١١٦.
(٣٦٠) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٧ - ١٨.

تكشف عن عناصر ومكونات النظم الإدارية التي كانت تقوم عليها الدولة النصرية على ذلك العهد، لفت انتباهنا بعض اللمع التي قد لا تروي غلة، ولا تعين على إعطاء تصور جامع لامع، رغم ذلك رأينا أن لا نبخسها حقها، فعرجنا عليها تعريجاً لطيفاً، يكافئ ما تحصل حولها من معطيات، وأول هذه المصطلحات التي صادفناها:

المطلب الأول: القهرمة [وكالة الملك]:

والقهرمة بهذه الصيغة التي قلما نجدها في مصادر التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية على امتداده، مصدر القهرمان والقُهْرُمان والقُرهمان، والجمع قهارمة، ومؤنثها قهرمانة، وهو مصطلح فارسي دخيل معرّب، وقيل يوناني[٣٦١].

من معانيه: المسيطر الحفيظ على من تحت يديه: والقهرمان من أمناء الملك والخاصة، ومن معانيه أيضاً: الخازن والوكيل الحافظ لما تحت يديه والقائم بأمور الرجل[٣٦٢].

ويستشف من هذه العبارات والمعاني الصلاحيات الأساسية الآتية:

١ - الوكالة: وهي أيضاً الكفالة، وأركانها المتوكل والوكيل، والشيء الموكول فيه، وتعني حق تصرف الوكيل في طلب حقوق المتوكل المادية والأدبية وأدائها حسب ما يجري عليه الاتفاق أو الإذن، قال ابن حزم الأندلسي مجملاً الحديث عنها: «الوكالة جائزة في القيام على الأموال وطلب الحقوق وإعطائها، وأخذ القصاص في النفس فما دونها وتبليغ الأنكاح والبيع والشراء والإجارة والاستئجار، كل ذلك من الحاضر والغائب سواء، ومن المريض والصحيح سواء، وطلب الحق كله واجب بغير توكل إلا أن يبرئ صاحب الحق من حقه»[٣٦٣].

٢ - الأمانة: وهي ضد الخيانة وهي من أجلّ صفات الاستقامة والعدالة، تتطلب

(٣٦١) - طوبيا العيسي، تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية، ص ٥٩٠.
(٣٦٢) - ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص ٣٧٦٤.
(٣٦٣) - ابن حزم، المحلى، ج٨، ص ٢٤٤.

صدقاً وحزماً وشهامة نفس.

٣ - الثقة: ومن معانيها أيضاً العدالة والنزاهة، وهي صفة لا تقل أهمية عن الصفة السابقة، لأنها صفة تجعل صاحبها محل ثقة موكله، والثقة تعظم قيمتها حسب قيمة المتوكل والشيء الموكول فيه، والوكالة عن السلطان والملك هي أرقى أنواع الوكالات لشرف محلها.

ولقد كان للقهارمة ذكوراً وإناثاً نظراً لمراكزهم في القصور أدوار سياسية خطيرة على امتداد التاريخ أثرت كثيراً في مجريات الأحداث[٣٦٤].

هذه هي القهرمة من حيث الحد والنوع والأركان والشرعية، أما من حيث الوجه الذي نحن بصدده فلم نجد كما ألمحت سوى إشارتين لطيفتين بيد أنهما توحيان بنفس المضامين التي ذكرت.

أما بخصوص إشارات ابن الخطيب في هذا الموضوع، فهي لا تعدو أن تكون لمعاً فقط، بيد أنها توحي تقريباً بالمضامين نفسها التي ذكرت، مما يدل على أن المصطلح من حيث الدلالة لا خصوصية فيه كبيرة، سوى من حيث الصور الجزئية التفصيلية، والعبرة بالأصل لا بالفرع.

قال ابن الخطيب في معرض الترجمة لأبي إسحاق إبراهيم بن فرج بن عبدالبر الخولاني المعروف بابن الحرة (٦٧٥ هـ - ٧٥٧ هـ): «ولي أبوه القهرمة لثاني الملوك من بني نصر»[٣٦٥]، وهذا يعني أنها كانت ولاية يتولاها صاحبها من قبل السلطان. وقال أيضاً في نص آخر قصير، وهو يترجم لمحمد بن أحمد بن محمد الأشعري (كان حياً سنة ٧٢٧هـ): «. . . الوكيل بالدار السلطانية، القهرمان بها»[٣٦٦].

وللمزيد من إلقاء الضوء على هذه الوظيفة وأحوال من ترشح لممارسة شؤونها لا بأس من جلب ما ذكر ابن الخطيب في شأن هذا القهرمان، وسنتصرف فيه بالحذف والاختصار.

(٣٦٤) - المحسن التنوخي، نشوار المحاضرة، ج٤، ص ١٧٧ فما فوق.
(٣٦٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٣٢٢.
(٣٦٦) - ابن الخطيب، الإحاطة ج٢، ص ١٣٦.

وصف ابن الخطيب الوكيل بأنه من أهل العفاف والتصاون، «جانحاً للخير، محباً في أهل الإصلاح، مغضوض الطرف عن الحرم، عفيفاً عن الدماء مستمسكاً بالعدالة من أهل الخصوصية»[٣٦٧].

أما عن ترقيته الوظيفية إلى أن أصبح قهرماناً، فقال: «ترقى إلى الكتابة مرؤوساً مع الجملة وعند الإيقاع بالوزير ابن الحكيم[٣٦٨]، تعين لحصر ما استرفع من منتهب ماله، وتحصل بالدار السلطانية من أثاثه وخرثيه (الخُرث: أثاث البيت)، فحزم واضطلع لما كان داعيه ترقيه إلى الوكالة، فساعده الوقت، وطلع له جاه كبير، وتملك أموالاً عريضة، وأرضاً واسعة، فجمع الدنيا بحزمه ومثابرته على تنمية داخله»[٣٦٩].

لم تقف الترقية عند هذا الحد وقد قوي مركزه وزكا ماله، فرنا إلى التحليق في سماء الوزارة على عهد سادس ملوك الدولة النصرية، بإيعاز من شيخ الغزاة على عهده عثمان بن أبي العلاء: «فاستولى وحجب السلطان.. ومنع من الدخول إليه»[٣٧٠].

أما عن مصيره فكان مثل مصير من اقتحم شوكاً ولم يشمر، وتسور هولاً ولم يتدبر، فمات البائس ميتة شنيعة، قال ابن الخطيب: «... فهجم عليه... فتيان من أحداث المماليك المستبقين مع محجوبه، فتناولاه سطّا بالخناجر، ورمى بنفسه من صهريج الدار، ومازالا يتعاورانه من كل جانب حتى فارق الحياة رحمه الله تعالى»[٣٧١].

وهذا لا يعني أن كل من تولى الوكالة لقي الجزاء نفسه، وإنما هذا جزاء كل من حشر نفسه فيما لا تحمد عقباه مستسلماً لهواه، أما الذين عرفوا قدرهم فلزموا

(٣٦٧) - ابن الخطيب، الإحاطة ج٢، ص ١٣٦.
(٣٦٨) - سبق الحديث عنه في مبحث الوزارة.
(٣٦٩) - ابن الخطيب، الإحاطة ج٢، ص ١٣٦.
(٣٧٠) - ابن الخطيب، الإحاطة ج٢، ص ١٣٧.
(٣٧١) - ابن الخطيب، الإحاطة ج٢، ص ١٣٧.

أماكنهم، فقد كانوا جنود الخفاء كالأتقياء الأخفياء، حتى لقد ذهل التاريخ عن ذكرهم، فلم يعرج على أخبارهم، اللهم إلا في القليل النادر.

وينبغي التنبيه على أن من بواعث ظهور الوكيل على مسرح الأحداث بشكل لافت للتأريخ، وفاة الملك وتركه ولي العهد دون سن التأهيل للاضطلاع بمقاليد الملك، إذ كان الوكيل هو الكفيل في أغلب الأحيان والمسؤول عن التربية والإعداد، والقيام على البيعة، والاضطلاع بأعباء الملك إلى أن يشب الأمير عن الطوق ويستقل بأمره.

المطلب الثاني: ولاية الأشغال:

وتسمى أيضاً الأشغال السلطانية، وكذلك الأعمال السلطانية، ولقد صادفنا ترددها كثيراً في الإحاطة من خلال تراجم رجال الإحاطة، وخاصة أولئك الذين نظم سلكهم تحت عنوان «العمال الأثراء».

وباستثناء هذه الإشارات أو ما ضمنّه من حلى وأوصاف المترجم لهم، التي هي أمور عامة، لا يوجد ما يعرّف هذه الوظيفة، ومهام أصحابها، ولكن بالتنقيب في ثنايا مقدمة ابن خلدون ما بين عبارة وإشارة، استطعنا أن نظفر بما أعان على تجلية الصورة.

جاء في فصل «في مراتب الملك والسلطان وألقابها»، تحت عنوان «ديوان الأعمال والجبايات» قول ابن خلدون وهو يتابع التطور التاريخي لهذه الخطة، شأنه في جميع الأمور العمرانية، قوله وقد تطرق لحال هذه الخطة على عهد الدولة الموحدية، معرفاً اسم صاحبها: «وكان يعرف بصاحب الأشغال»[٣٧٢].

كما أشار إلى حقيقة تاريخية غاية في الأهمية تتعلق أيضاً بهذه الخطة، لكن هذه المرة في علاقتها بالأندلس والأندلسيين، قال ابن خلدون متحدثاً عن هذه الخطة في دولة بني حفص بإفريقية، وهي الوريثة الشرعية لدولة الموحدين: «ولما استبد بنو حفص بإفريقية، وكان شأن الجالية من الأندلس، فقدم عليهم أهل البيوتات وفيهم

(٣٧٢) - ابن خلدون، العبر، ج٢، ص ٦٧٨.

من كان يستعمل ذلك في الأندلس . . . مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة . . . فاستكفوا بهم في ذلك، وجعلوا لهم النظر في الأشغال كما كان لهم بالأندلس»[٣٧٣].

أما وقد عرفنا مفتاح السر لهذا المصطلح، فما هو موقعه ودلالته إلى جانب كافة النظم السياسية والخطط السلطانية؟.

في الإجابة عن هذا نستنجد بابن خلدون مرة أخرى، وهو المعول في هذا المقصد، يقول: «اعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك، وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج، وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقرير أرزاقهم، وصرف أعطياتهم في إباناتها، والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومة تلك الأعمال وقهارمة الدولة، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج، مبني على جزء كبير من الحساب، لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال، ويسمى ذلك الكتاب بالديوان، وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها»[٣٧٤].

إنه نص جامع مانع لكل ما يتعلق بهذه الخطة كما يبدو.

وإذ قد عرفنا حدها وضرورتها في النظم التي يقوم عليها بنيان الإدارة في الدول من خلال معطيات ابن خلدون، فهل تتفق المعطيات النادرة التي جاءت عرضاً في الإحاطة مع ذلك؟ ذلك ما نبينه:

هناك نص واحد لكنه في غاية الطرافة والجودة يفصل ما أجمل من كلام ابن خلدون، كشف عن صفات أحد أصحاب الأشغال، وهي صفات إما مكتسبة وجدت في الشخص قبل ممارسة المهنة، فرشحته لهذه الخطة، وإما هي صفات ترسخت في الذات بعد طول الملابسة والمزاولة لهذا الرسم، وسواء أكان الأمر الأول أم الثاني فإن الوظيفة حتماً تحتاج إلى مثل تلك الخصال، يقول ابن الخطيب

(٣٧٣) - ابن خلدون، العبر، ج٢، ص ٦٧٨.
(٣٧٤) - ابن خلدون، العبر، ج ٢، ص ٦٧٥.

في حق هذا الرجل، ويدعى محمد بن أحمد بن المتأهل العبدري (ت: ٧٤٣ هـ): «كان رجلاً شديد الأُدمة، أعين كثّ اللحية، طرفاً في الأمانة، شديد الاسترابة بجليسه، مخيناً لرفيقه، سيء الظن بصديقه، قليل المداخلة، كثير الانقباض، مختصر الملبس والمطعم، عظيم المحافظة على النقير والقطمير، مستوعباً للحصر والتقييد. . . لا يقبل هوادة، ولا يلابس رشوة، كثير الالتفات، متفقداً للآلة، متمماً للعمل. . تليت على العمال به سورة الغاشية، ولي الأشغال السلطانية، فذعرت الجباة لولايته. . . وولي الأشغال السلطانية، فضمّ النشر، وأوصد باب الحيلة، وبتّ أسباب الضياع، وترصد ليلاً وأصيب بجراحة أخطأته. ثم عاجلته الوفاة، فنفس عن أقتاله المنخنق»[٣٧٥].

والنص جلبناه رغم طوله لأنه يحتوي على حقائق مهمة نذكر بعضاً في الأفكار الآتية:

١ - أن صاحبها ينبغي أن يكون على درجة عالية من الأمانة والصرامة والدراية بالحساب «مستوعباً للحصر والتقييد».

٢ - أنها ولاية نبيهة يتولى السلطان اختيار صاحبها.

٣ - أنه هو الرئيس الذي يرجع إليه أمر الجباة.

٤ - أن صاحبها يكون عرضة للرشوة أو هدفاً للقتلة.

وجميع هذه الأمور التي ذكرها ابن الخطيب تتفق جملة وتفصيلاً مع ما ذكره ابن خلدون دون تمحل أو إعسار.

المطلب الثالث: ولاية المستخلص [ولاية الإشراف]:

هذه أيضاً من الوظائف التي تكرر ذكرها أكثر من مرة، وتدل القرائن من خلال السياقات التي ورد فيها مصطلح «مستخلص» وأحياناً «مختص»[٣٧٦]، أنها ممتلكات السلطان التي حازها بالطرق المختلفة، منها الإرائة ومنها الاقتناء، وغنائم

(٣٧٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٢١٧ - ٢١٨.
(٣٧٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٢٠٩.

الجهاد، ومنها أيضاً مصادرة أموال المشبوهين من ذوي اليسار من الأمراء والوزراء والأعيان(٣٧٧).

ولقدتأكد من خلال القسم الأول من الإحاطة أنها أموال طائلة، وإقطاعات واسعة، قال ابن الخطيب وهو يتحدث عن المجال الطبيعي لمدينة غرناطة: «ويحف بسور المدينة البساتين العريضة المستخلصة»(٣٧٨).

وقال أيضاً متحدثاً عما حاز سهلها من منى وجنات: «يختص منها بمستخلص السلطان ما يناهز ثلاثين منية، ويحيط بها ويتصل بأذيالها من العقار الثمين لا يعرف الجمام، ولا يفارق الريع، ما ينتهي المرجع [المردود] العملي منه إلى نحو خمسة وعشرين ديناراً من الذهب لعهدنا هذا، وفيه من مستخلص السلطان ما تضيق عنه بيوت الأموال ذرعاً وغبطة وانتظاماً، يرجع إلى دور ناجمة، وبروج سامية وبيادر فسيحة، وقصاب للحمائم والدواجن مائلة، منها في حمى البلدة وطوق سورها من مستخلص السلطان، ما ينيف على العشرين، بها الجمل [الجماعة] الضخمة من الرجال والفحول الفارهة من الحيوان للإثارة وعلاج الفلاحة، وفي كثير منها الحصون والأرحاء والمساجد»(٣٧٩).

أيضاً، جلبنا هذا النص رغم طوله، لأنه أوفى نص كشف عن معنى المستخلص كما كشف عن سعة الممتلكات السلطانية.

كنا في مستهل حديثنا عن «المستخلص» قد أشرنا الى بعض أوجه حيازة السلطان له، فذكرنا أنه يكون إما بالإرث المتداول كابراً عن كابر، وإما عن جد وإما عن طريق الغنيمة، وإما عن طريق الاقتناء، وإما عن طريق المصادرة.

وإذا كانت الأوجه الأولى واضحة لا تحتاج إلى دليل، فإن الحيازة عن طريق المصادرة تحتاج إلى بيان وإيضاح.

(٣٧٧) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٣٣٣.
(٣٧٨) - ابن الخطيب، اللمحة، ص ٢٤.
(٣٧٩) - ابن الخطيب، اللمحة، ص ٢٤.

لقد كشف ابن خلدون في مقدمته في «فصل في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة» عن هذه الظاهرة بما لا شيء فوقه فليراجع بتفاصيله هناك، بيد أنه لا بأس من ذكر نص شاهد، قال ابن خلدون وهو يتعرض لصيرورة الثروة والجباية في الدولة في النشأة إلى النهاية، ويبين كيف تتحول نظرة السلطان عند هرم الدولة إلى أموال الناس وممتلكاتهم، فيرى نفسه «أحق بتلك الأموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم فيصطلمها [يستأصلها] وينتزعها منهم لنفسه شيئاً فشيئاً وواحداً بعد واحد على نسبة رتبهم، وتنكر الدولة لهم»(٣٨٠).

ولنا في ابن الخطيب نفسه شاهد وعبرة في هذا الأمر عندما حصل الانقلاب على سلطانه محمد الغني بالله سنة ٧٦٠ هـ، حيث استؤصلت ممتلكاته واستخلصت أمواله، قال يصف حاله عقب نكبته: «وقبض علي... واعتقلت بحال ترفيه، بعد أن كسبت المنازل والدور، واستكثر من الحرس، وختم على الأغلاق... فاستأصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذات النظائر ولا ربات الأمثال، في تبحر الغلّة، وفراهة الحيوان، وغبطة العقار، ونظافة الآلات، ورفعة الثياب، ووفور الكتب، إلى الآنية والخرثي والفرش، والماعون، والزجاج، والمحكم، والطيب، والذخيرة، والمضارب، والأقبية، واكتسحت السائمة، وثيران الحرث، وظهر الحمولة، وقوام الفلاحة وأزواد الخيل، فأخذ الجميع البيع، وتناهبتها الأسواق، وصاحبها البخس، ورزاها الخونة، وشمل الخاصة والأقاربة الطلب، واستخلصت القرى والجنات...»(٣٨١).

وكانت مستخلصات السلطان كثيرة ومتنوعة كما رأينا قبل، وله تقريباً في كل ولاية أو مدينة مستخلصات جمة، وكان يختار لها الرجال الأكفاء الخبراء في الفلاحة والزراعة والاقتصاد لإدارتها، وتنمية ثرواتها، وكانت هذه الوظيفة تسمى «ولاية الإشراف»، ومما يؤكد هذا قول ابن الخطيب في ترجمة محمد بن الحسن بن حامد الغافقي (ت: ٥٨٨ هـ): «ولي الإشراف في غير ما موضع، قلت: وآثاره في

(٣٨٠) - ابن خلدون، العبر، ج٢، ص ٧٣٨.
(٣٨١) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٤٤٣.

الأملاك المنسوبة إليه التي من جملة المستخلص السلطاني بغرناطة وغيرها مما يدل على قدم»[٣٨٢]، وقوله في حق محمد بن محمد بن عبدالله بن إبراهيم المدعو بابن الحاج: «تولى خطة الإشراف بلوشة وأندرش ومالقة، وولي النظر في مختص المرية»[٣٨٣].

ومما يشهد على أنها وظيفة اقتصادية سلطانية نبيهة، وأن صاحب الإشراف فيها له في ذلك مطلق الصلاحية في المباشرة بالإيراد والإصدار قول ابن الخطيب لما تلا قول ابن الصيرفي المؤرخ المرابطي المشهور: «ولما ولي الوزير أبو علي بن هدية «المستخلص» وباشر جلائل الأمور، ودقائقها بنفسه، حمى المناصفين، ورفع المؤن والكلف عنهم، ووسع سليف [المقدم] البذر عليهم، وآثرهم بالنصفة بالتزام حصة بيت المال. . .»[٣٨٤].

والنص فضلاً عمّا ذكرت يكشف عن الحقائق الآتية:

١ - إمكانية مباشرة الأمور، ويمكن أن ينوب عنه العمال والخدمة.

٢ - إمكانية العمل بالشركة مع المزارعين والفلاحين، فيكون السلطان من خلال المستخلص طرفاً في الشركة، حسب ما يتفق عليه الأطراف، كأن يقدم متولي «المستخلص» البذور والطرف الآخر، أو الأطراف الأخرى الجهد والعمل.

٣ - أن يكون توزيع المنتج مناصفة.

٤ - أن يكون لبيت المال حق في النتاج بعد حصاده وجني ثماره.

كما نفهم من أحد النصوص الهامة أنه كانت أحياناً تثور منازعات بسبب الإضرار الذي كان يسببه وكلاء المستخلص السلطاني، فترفع القضية إلى القضاء حينما يسود العدل والإنصاف.

ذكر هذا ابن الخطيب في معرض الحديث عن آيات النصفة والاعتدال التي أصبح

(٣٨٢) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٢٠٧.
(٣٨٣) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٢٠٩.
(٣٨٤) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٤٢٩.

عليها السلطان محمد الغني بالله عقب المحنة والرجوع إلى دولته ثانية، يقول ابن الخطيب معدداً فضائل سلطانه: «ومما يرجع إلى عوائد الرفق، ومرافق العدل من مأزق في جهاد النفس، ووقوف وكيل الدولة، مع من يجاور «مستخلص» السلطان من العامرين [المزارعين] ومماولي الفلاحة، وقد ادعوا أضراراً يجره الحوار بين يدي القاضي بالحضرة حتى بعد منقطع الحق على ما يخص السلطان من الأصول التي جرّها الميراث الكريم عن السلف»(٣٨٥).

والنص يكشف أيضاً عن الحقائق الآتية:

١ - تقاضي السلطان والدولة كطرف إلى جانب المواطنين كطرف ثان أمام القضاء الأعلى، إلا أن هذا لم يكن شائعاً اللهم إلا في أزمة النصفة النادرة.

٢ - أن ممتلكات المزارعين والفلاحين كانت تجاور أحياناً ممتلكات الدولة أو السلطان.

٣ - وجود شيء من الحرية في التعبير عن الحق المهضوم، حتى ولو كان الظالم هو السلطان أو الدولة.

٤ - بت القضاء الأعلى بشهادة السلطان بما يشبه النقض والإبرام، ومراجعة الأحكام الصادرة وإصدار أحكام مستجدة.

كما يفهم من نص آخر أنه بالإمكان الاستفادة من ريع المستخلص»، في ترميم المنشآت واستحداث الجنات، وغرس المغروسات، قال ابن الخطيب في حق هذا المذكور آنفاً: «. . . ورام ريع [فضل أو عائد] المستخلص، وزاد في حماماته [جامع غرناطة]، ورمّ حوانيته، واستحدث منيحة سماها المستحدثة، غرس قضبان الجوز في مواضع المياه»(٣٨٦).

كما يفهم أيضاً من استقراء النصوص أن السلطان أحياناً كان يقطع من «المستخلص» للوزراء مبالغة في العطاء خالصاً لهم يتصرفون فيه كيف يشاؤون،

(٣٨٥) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٤٩.
(٣٨٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٤٢٩ - ٤٣٠.

يدل على هذا قول ابن الخطيب وهو يتحدث عن نفسه، وما تجدد له على يد سلطانه من وظائف ورتب: «مسوغ الإقطاع الجمّ من مستخلصه [السلطان محمد الغني بالله] تولى الله جزاءه وكافأ فضله»(٣٨٧)، ويؤكد هذا أيضاً نص الظهير الشريف الذي أورده ابن الخطيب والمؤرخ بسنة ٧٦٣ هـ وهو تاريخ عودته إلى وزارته الثانية، يرد السلطان الجديد بموجبه الأموال المصادرة، ويوحي نص الظهير أن معظم هذه الأملاك كانت من مستخلص السلطان من ذلك: «... سوّغ إليه.. تسويغاً شرعياً... وتبرأ من حق يتعلق به، أو شبهة تتطرق بسببه، فليتصرف أعزه الله في ذلك بما شاء من أنواع التصرفات... من غير حجر ولا تعقب لما لديه... كتبنا خط يدنا شاهداً بإمضائه، وسجلنا الحكم باستقلاله واقتضائه، فليعلم ذلك من يقف عليه... صحّ هذا» (٣٨٨).

ويقوي هذا أيضاً استسهال ابن الخطيب النزوح والفرار بتلك الصورة إذ لم يكن عنده ما يشده إلى الوطن من ممتلكات خاصة يتصرف فيها باستقلالية تامة، يعزّ عليه فراقها، بل حتى عياله وأولاده كانوا في حكم الموالي والخدم. يستشف ذلك من قوله في رسالة الوداع التي خصّ بها سلطانه بين يدي فراره يقول: «وأنا قد رحلت فلا أوصيكم بمال، فهو عندي أهون متروك، ولا بولد فهم رجالكم وخدامكم، وممن يحرص مثلكم على الاستكثار منهم، ولا بعيال فهي من مربيات بيتكم وخواص داركم»(٣٨٩)، وقال أيضاً في وصيته لأولاده بين يدي نزوحه «... ومن رزق منكم مالاً بهذا الوطن القلق المهاد، الذي لا يصلح لغير الجهاد فلا يستهلكه أجمع في العقار، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار، وساعياً لنفسه إن تغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار، ومعوقاً عن الانتقال»(٣٩٠).

المطلب الرابع: تعليم ولد السلطان:

ويفهم من نص أن أبناء السلطان كان لهم تعليم خاص بهم، يُتَّخَذُ لهم المعلمون

(٣٨٧) - ابن الخطيب، اللمحة، ص ١١٦.
(٣٨٨) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٤٥٠ - ٤٥٢.
(٣٨٩) - ابن خلدون، التعريف، ص ١٦١.
(٣٩٠) - المقري، نفح الطيب، ج٧، ص ٤٠٤، وأزهار الرياض، ج١، ص ٢٣٤.

والمربون والمؤدبون، فلا يختلطون بعامة الناس، وربما شاركهم في ذلك أبناء الوزراء والأمراء والكتاب وسائر الحاشية السلطانية على عادة الملوك والسلاطين على امتداد التاريخ الإسلامي، صوناً وحجباً، حتى إذا باشروا مهامهم أعانهم ذلك على حفظ هيبتهم التي هي شرط من شروط سيادتهم ونفاذ أمرهم.

قال ابن الخطيب في أحد المترجم لهم، وهو محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد الخولاني المعروف بالشريشي (ولد سنة ٧١٨ هـ)، وكان من تلاميذه: «... وترقى إلى هذا العهد بإشارتي إلى التي لا فوقها من تعليم ولد السلطان والرياسة القرآنية بباب الإمارة، والإمامة بالمسجد الجامع من القلعة...»(٣٩١).

والنص يكشف عن الحقائق الآتية:

١ - أن الوزير قد يرشح معلمي الدار السلطانية.

٢ - أنها رتبة من الرتب المراعاة.

٣ - أن صاحب هذه الوظيفة قد يجمع بين وظائف أخرى تعليمية وتربوية داخل القصر السلطاني مثل:

أ - الرئاسة القرآنية بباب الإمارة، وقد تعني رئاسة جماعة المقرئين، ومعلمي القرآن الكريم.

ب - الإمامة بالمسجد الجامع بالقلعة، وهي قلعة الحمراء المحاذية للقصر السلطاني.

هذا وقد ورد أيضاً في رسالة وداع ابن الخطيب لسلطانه ما يشي بأن ابن الخطيب نفسه كان ممن تولى أيضاً مهمة التعليم والتربية، ولسنا ندري أكان بموجب الرسم المذكور آنفاً أم هي الإشارة والإشراف والإدارة والاختيار؟ يقول مستشيراً في سلطانه دواعي الأنفة والإغضاء عن العيوب إذا تنوسيت الحسنات وحشرت الذنوب: «... وإن لم يعط مولاي أمري حقه من العدل، وجلبت الذنوب

(٣٩١) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ١٦٨.

وحشرت بعدي العيوب، فحياؤه وتناصفه ينكر ذلك، ويستحضر الحسنات من التربية والتعليم . . . »[٣٩٢].

المطلب الخامس: ولاية تنفيذ الأرزاق:

هذه أيضاً من الولايات التي لم ترد إلا لماماً، لا تعدو الإشارة أو الاثنتين، لكن لما كان مثل هذا الاصطلاح معروفاً في النظم الإدارية في تاريخ الدول الإسلامية شرقاً وغرباً لم يلتبس علينا أمره، ولا غمّ علينا سره، فالأرزاق تعني الأجور والمرتبات التي تؤديها خزينة الدولة لموظفيها في مختلف المواقع، كل حسب مركزه ورتبته، يقدرها أهل الاختصاص حسبما يقتضيه النظر، وخاصة إحصاء الجنود المرتزقة بأسمائهم، وصرف أعطياتهم في أوقاتها حتى لا يختل أمر الجهاد. قال ابن الخطيب في حق محمد بن أحمد بن إبراهيم بن محمد التلمساني (٦٧٩ هـ - ٧٦٤ هـ)، وكان من الذين تولوا منصب تنفيذ الأرزاق: « . . . ولّي الحسبة بغرناطة، ثم قلّد تنفيذ الأرزاق، وهي الخطة الشرعية والولاية المجدية، فاتصلت بها ولايته»[٣٩٣]، والنص ينطق بالدلالات الآتية:

١ - أن متولي الحسبة هو المرشح قبل غيره لولاية تنفيذ الأرزاق لمرانه ودربته على مباشرة الحساب.

٢ - أنها من الخطط الشرعية الهامة، لأنها تتعلق بالمال، والمال أخطر وديعة تعلق بها حق مراعى، وأنيط بها واجب شرعي.

المطلب السادس: الأشغال المخزنية والشهادة المخزنية:

ورد هذان المركبان الإضافيان المختلفان المشتركان في لفظ «المخزنية» في بعض التراجم بما يفيد أنهما وظيفتان متلازمتان تتمم الواحدة منهما الأخرى، وأظن أن الأشغال المخزنية أصل والشهادة المخزنية فرع.

ولفظ «المخزن» من المصطلحات التي مازالت متداولة إلى الآن في المغرب،

(٣٩٣) - ابن خلدون، التعريف، ص ١٦١.

(٣٩٣) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٢٠٠.

وتعني من حيث العموم الدولة، وكل ما له علاقة بها ينسب للمخزن سواء تعلق الأمر بالجانب العسكري أو الجانب المالي والاقتصادي للدولة، أو الجانب الإداري، وإن كانت دلالتها التاريخية أعمق وأوسع من الآن.

ولقد ذهب الدكتور حسين مؤنس إلى أنه «مصطلح مغربي خالص، وأصله مخزن المال، أي خزانة الدولة أي بيت المال»(٣٩٤). ولقد تابع الدكتور حسين مؤنس أيضاً هذا الاصطلاح متتبعاً دلالاته المختلفة عبر العصور السياسية المتعاقبة، وكذلك الألفاظ والمصطلحات الأخرى التي علقت به، فذهب إلى أنه في أوائل عهد الموحدين أطلق ليراد به مخازن الدولة التي تحفظ فيها أموالها وعروضها الثمينة، وخاصة السلاح، كما أطلق بعد ذلك ليراد به القوة العسكرية من الفرسان الذين تستعملهم الدولة في جباية الضرائب والمغانم، وعني به القوة العسكرية التي تقدمها بعض القبائل بدلاً من ضرائب المال، ثم أصبح «المخزن» يطلق على الحكومة أو الدولة بصفة عامة، وكما نشأ في العصور المتأخرة مصطلح جديد يضاده ويحدد في ذات الوقت معناه وهو مصطلح «السيبة» ويعني الأراضي الوطنية الخارجة عن طاعة السلطان.

أما عبارة الأشغال المخزنية فتعني الأعمال المالية الخاصة بالدولة أو خزانة الدولة، كما وجد مصطلح المغارم المخزنية ويعني المكوس، وهي الضرائب غير الشرعية، كما وجد مصطلح «الوظائف المخزنية» وتعني الضرائب المستخلصة للدولة، كما وجد مصطلح «الأتعاب المخزنية» وهم الفرسان الذين يتقاضون رزقاً من خزانة الدولة، إلى غير ذلك من المعاني الفرعية الأخرى(٣٥٩).

وبعد أن عرفنا معاني اصطلاح «المخزن» والسياقات الاصطلاحية الأخرى التي ذكرنا، ما السياقات التي ذكرت فيها هذه المصطلحات التي جعلناها عنصراً مستقلاً؟.

(٣٩٤) - حسين مؤنس، تاريخ المغرب والحضارة من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الأوربي، ج٣، ص ١٩٣.
(٣٩٥) - المرجع السابق نفسه، ص ٨١ - ٨٢.

الحقيقة إنها سياقات لا تسمن ولا تغني من جوع، فضلاً عن أن هذه الاصطلاحات لم تتردد إلا نزراً، كما يلاحظ أنها اصطلاحات تعلقت بتاريخ يعود إلى منتصف أواخر القرن الثامن الهجري، وهذا يؤكد أنها مصطلحات وافدة من المغرب، مع ما نعلمه من التاريخ المشترك بينه وبين الأندلس، وخاصة ابتداء من العهد المرابطي. قال ابن الخطيب في حق محمد بن محمد بن شعبة الغساني (ت: ٧٦٤ هـ): «. . . قطع عمره في الأشغال المخزنية»[٣٩٦]، وقال أيضاً في حق محمد بن إبراهيم الخولاني الشريشي (ولد سنة ٧١٨ هـ) وهو أحد تلاميذ ابن الخطيب، يرجع إليه الفضل في تبييض الإحاطة في أخبار غرناطة بإيعاز من ابن الخطيب لأمانته وحسن خطه: «. . . وتصرف في الشهادة المخزنية برهة، ثم نزع عنها انقياداً لداعي النزاهة»[٣٩٧]، وقال في محمد بن أحمد بن إبراهيم بن الزبير (ت: ٧٦٥هـ): «وهو الآن قد نال منه الكبر يزجي بمالقة متعللاً بوقف من بعض الخدم المخزنية»[٣٩٨]، ويفهم من هذه النصوص المعاني الآتية:

١ ـ أن الأشغال المخزنية هي غير الشهادة المخزنية.

٢ ـ أنهما وظيفتان ليستا محترمتين نبيهتين، ففي النص الأول ذكر «قطع عمره» بما يفيد التحقير والتصغير، وفي الثانية ذكر أن متوليها سرعان ما نزع يده منها أنفة وترفعاً وتنزيهاً للنفس.

٣ ـ أنه قد تكون الأشغال المخزنية يطبع عليها مباشرة الأعمال، والشهادة المخزنية يطبعها التوثيق والتسجيل شأن عمل العدول والموثقين.

المطلب السابع: طبيب الدار السلطانية:

الطب من الصناعات المعاشية الأساسية التي تنشأ في العمران، وكان المسلمون يولونها اهتماماً خاصاً في مشارق الأرض ومغاربها، وقد كان لأطباء الأندلس حظ وافر من حيث الإسهام في تطوير العلوم الطبية، إلى درجة تشهد لهم بالتقدم والتقدير.

(٣٩٦) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٢٢٣.
(٣٩٧) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ١٦٧.
(٣٩٨) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ١٥٦.

قسم ابن خلدون أمهات الصنائع إلى ضرورية وشريفة، وعَدَّ الطب من الصناعات الشريفة بوجه عام، كالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب، كما عدّها صناعة «ضرورية في المدن والأمصار لما عرف من فائدتها، فإن ثمرتها حفظ الصحة للأصحاء ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم»(٣٩٩).

وما كان لنا لنعرض لهذا المطلب في هذا الموقع من الدراسة لولا تكرر إشارات خطيبية في إحاطته تؤكد أن الحكام كانوا حريصين على أن يجعلوا للطب والأطباء مكاناً خاصاً في قصورهم حتى إنه ليوحي بما يشبه هيئة للأطباء يرأسها الحاذق في الصناعة منهم.

ومن النصوص التي تؤكد أن القصر النصري ضمّ أكثر من طبيب في وقت واحد برسم الخدمة قول ابن الخطيب، وهو يترجم لمحمد بن عبد العزيز بن سالم القيسي (ت: ٧٦٧هـ)، وقد نعته بطبيب الدار السلطانية: «حسن المشاركة في الطب... ذاكراً لصناعة الطب أخذها عن إمام وقته أبي جعفر الكرني(٤٠٠)، وانتصب للعلاج، ثم انتقل إلى الخدمة بصناعته بالباب السلطاني... ومن شعره يخاطب السلطان على ألسنة أصحابنا الأطباء الذين جمعتهم الخدمة ببابه يومئذ»(٤٠١).

وقال في آخر ويدعى محمد بن علي بن عبدالله اللخمي الشقوري (ولد سنة: ٧٢٧هـ): «نشأ سابغ رداء العفة، كثيف جلباب الصيانة، متصدراً للعلاج في زمن المراهقة... واستدعاه السلطان لعلاج نفسه، فاغتبط به، وشد اليد عليه، وظهر له فضله، وهو لهذا العهد ببابه قائم على الصنعة»(٤٠٢).

ومما يدل على أن القصر السلطاني كان يضم أيضاً أطباء من يهود لضلوعهم في

(٣٩٩)- ابن خلدون، المقدمة، ج٣، ص ٩٥٧.

(٤٠٠)- وصفه ابن الخطيب في ترجمته بقوله: «شيخ الأطباء بغرناطة على عهده، وطبيب الدار السلطانية»، كان حياً سنة ٦٩٠هـ.

(٤٠١)- ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص٣، ص ١٧١-١٧٢.

(٤٠٢)- ابن الخطيب، الإحاطة ج٣، ص١٧٨.

الصنعة وكثير من الصنائع الأخرى بما يكشف عن الحرية والتسامح الذي عرف به أهل الأندلس في هذا الأمر، قول ابن الخطيب في معرض الحديث عن شيوخ محمد بن علي بن سودة المري الذي كان معاصراً لابن الخطيب: «قرأ الطب والتعديل على الحبر طبيب الدار السلطانية، فارس ذينك الفنين، إبراهيم بن زرْزار اليهودي»[٤٠٣].

ولقد كان ابن الخطيب نفسه أحد الأطباء الكبار في زمانه له في ذلك مصنفات جليلة ما زالت مخطوطة مثل «عمل من طب لمن حب» و«الوصول لحفظ الصحة في الفصول»، وأرجوزة طويلة في العلاج إلى غير ذلك، وكثيراً ما كان يشير على الأطباء بالنصيحة كما ثبت في مقدمات أعماله الطبية المخطوطة.

ومما يؤكد أن تعاطي الطب والتقدم فيه من دواعي استقطاب القصر للخدمة ما ذكره ابن الخطيب في ترجمة والده عبدالله بن سعيد وقد ذاكره في بدايات إنتاجه العلمي قوله: «تكلمت يوماً بين يديه في مسائل في الطب، وأنشدته أبياتاً من شعري، وقرأت عليه رقاعاً من إنشائي، فسرّ وتهللّ وعبّر عما أمّل، وما برح أن ارتجل بقوله رحمه الله:

الطب والشعر والكتابة *** سماتنا في بني النجابة
هنّ ثلاث مبلّغات *** مراتباً بعضها الحجابة[٤٠٤]

وأختم هذه النقطة بمشهد من مشاهد التطبيب السلطاني، وقد أحاط به أطباء المملكة يعاينون ضرّه، ويدفعون داءه بما أوتوا من علم وخبرة، ويوحي النص بدلالات أعمق من هذا لمن تدبره، قال ابن الخطيب في معرض الترجمة لمحمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عيشون اللخمي (ت: ٧٢٢هـ): «حدثني بعض شيوخنا وقد جرى ذكر عجائب الرّوق وإصابته السلطان، واستدعاء الأطباء ليلاً، ومنهم ابن عيشون هذا، وقد حضروا قدام السلطان، وقد اختلط نساء القصر معهم لمكان الشدّة، وشرع الأطباء في تركيب دواء مذكور في المشارة،

(٤٠٣)- ابن الخطيب، الإحاطة ج٣، ص ١٦٩.
(٤٠٤)- ابن الخطيب، الإحاطة ج٣، ص ٣٩٠.

فجعل يبكي مع النساء ويقول: اغسلوا المهاريس جداً، يكررها رافعاً صوته، فلما أفاق بعد ذلك، وذكر الأطباء قالت له حظاياه: لم يكن في الأطباء أشد احتياطاً عليك في شغل المهاريس لما يتوقع فيها، ولا أكثر بكاء من ذلك الشيخ المسن: ابن عيشون، فكان أعظم الأطباء جائزة»(٤٠٥).

المبحث الثاني: الوظائف الشرعية والخطط الدينية:

مقدمة:

ونقصد بها تلك الوظائف التي تنطلق في أصولها ومبادئها إلى الشرع، وترتد أحكامها وقوانينها إلى الدين، كما يغلب على متعاطيها التقدم في علوم الشرع بحسب التدرج في هذه الوظائف من حيث الأصل والفرع.

قال ابن خلدون محدداً الوظائف الشرعية وعلاقتها بالحكم الإسلامية: «اعلم أن الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى التي هي الخلافة فكأنها الإمام الكبير والأصل الجامع، وهذه كلها متفرعة عنها داخلة فيها لعموم نظر الخلافة وتصرفها في سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية، وتنفيذ أحكام المشرع فيها على العموم»(٤٠٦).

المقصد الأول: القضاء:

يأتي القضاء باعتباره مؤسسة إدارية تنفيذية جزائية متعلقة بمعاملات الناس داخل مجتمع مدني في إطار سياسي في ذروة هرم النظام الإداري والتشريعي للدولة الإسلامية، لارتباطه بأسمى غايات الإسلام وشريعته، وهي تحقيق العدالة ودفع الظلم عن الناس إذ الناس في الإخلال بهذا الأمر متهافتون متهالكون لتوفر الدّواعي، وتضافر الموجبات.

(٤٠٥)- عبد السلام شقور، ما لم ينشر من الإحاطة، ص ٨.
(٤٠٦)- ابن خلدون، العبر، ج٢، ص ٦٢٠.

والقضاء أيضاً هو من أقرب النظم إلى مؤسسة الخلافة، يقول ابن خلدون: «وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي، وقطعاً للتنازع، إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة، فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجاً في عمومها»(٤٠٧).

وقال القاضي أبو الحسن النباهي الغرناطي الأندلسي أحد قضاة مملكة بني الأحمر المعاصرين لابن الخطيب: «خطة القضاء في نفسها عند الكافة من أسنى الخطط، فإن الله تعالى قد رفع درجة الحكام، وجعل إليهم تصريف أمور الأنام، يحكمون في الدماء والأبضاع والأموال والحلال والحرام، وتلك خطة الأنبياء ومن بعدهم من الخلفاء، فلا شرف في الدنيا بعد الخلافة أشرف من القضاء»(٤٠٨).

ولقد وضع العلماء شروطاً معينة فيمن يترشح لهذه الخطة، كذلك تحدثوا عن الصلاحيات، وكذلك المجالات القضائية التي يمكن للقاضي أن يبت فيها في مصادر القضاء، وكذلك كتب الأحكام السلطانية.

ففي الشروط اعتبروا: الإسلام والعقل والذكورية والحرية، والبلوغ والعدالة والعلم، وسلامة الحواس، التفرد دفعاً للاختلاف والتنازع لاختلاف الأغراض وتعذر الاتفاق(٤٠٩).

أما الخطط الفرعية الأخرى التي تتفرع عن القضاء، وللقضاة واسع النظر في حكم الاختصاص، حسب الظروف، والأنظمة السياسية فهي: قضاء القضاء أو قضاء الجماعة، والشرطة والمظالم، والرد والمدينة والحسبة.

ويشتمل نظر القاضي إذا كان مطلق الولاية على الأحكام الآتية:

١ ـ فض النزاع بين المتنازعين. ٢ ـ استيفاء الحقوق لطالبها، إما بالإقرار وإما بالبينة. ٣ ـ إلزام الولاية للسفهاء والمجانين والحجر على المفلس. ٤ ـ النظر في

(٤٠٧) ـ المصدر السابق نفسه، ج٢، ص ٦٢٧.
(٤٠٨) ـ القاضي النباهي، المرقبة العليا، ص ٢.
(٤٠٩) ـ المصدر السابق نفسه، ص٢، والفراء، الأحكام السلطانية، ص٦.

الأحباس والأوقاف. ٥ ـ تنفيذ الوصايا وفق شروط الوصية والاتفاق مع الشريعة. ٦ ـ تزويج الأيامي إذا عدم الأولياء. ٧ ـ إقامة الحدود. ٨ ـ النظر في المصالح العامة، من كف للاعتداء في الطرقات والأبنية. ٩ ـ النظر في أمر الشهود، وتفقد الأمناء. ١٠ ـ التسوية في الحكم، وعدم اتباع الهوى بالتشيع لأحد الأطراف لداع من الدواعي غير المعتبرة شرعاً[٤١٠].

ولقد تطور القضاء عبر التاريخ الإسلامي تطوراً ملحوظاً في مشارق الأرض ومغاربها، فكان في صدر الإسلام ملتحماً بالخلافة يباشره الخليفة بنفسه، وأول من دفعه إلى غيره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما بدأت الخلافة والسياسة العامة تتشعب.

كما كان الخلفاء الأول يفوضون للقاضي النظر في المظالم، وهي من أجل الخطط وأخطرها لحاجتها إلى السطوة والعدل، وهي خطة أوسع من نظر القاضي في الخلافة العباسية يقود الجهاد.

وبمرور الأزمان بدأ القضاء إلى جانب خطة الشرطة، وهما الوظيفتان المعتبرتان من الناحية الشرعية، يفقدان المصداقية، ويضعف أمرهما لتدخل السلطان في أمرهما.

قال ابن خلدون مشيراً إلى الضعف الذي أصاب القضاء وما اندرج تحته من خطط: «وصارت هذه الخطط في الدول الملوكية من بعد الخلفاء مختصة بهذا الصنف من المستضعفين في أهل الأمصار، ونزل أهلها عن مراتب العز لفقد الأهلية... وصار اعتبارهم في الدولة من أجل قيامها بالملة وأخذها بأحكام الشريعة المتقدمون بها، ولم يكن إيثارهم في الدولة حينئذ إكراماً لذواتهم، وإنما هو لما يتلمح من التجمل بمكانهم في مجلس الملك لتعظيم الرتب الشرعية، ولم يكن لهم فيها من الحل والعقد شيء وإن حضروه فحضور رسمي لا حقيقة وراءه، إذ

(٤١٠) ـ الفراء، الأحكام السلطانية ص٦٥ ـ ٦٦. النباهي، المرقبة العليا، ص٥ ـ ٦. ابن خلدون، العبر، ج٢، ص ٦٣١.

حقيقة الحل والعقد إنما هي لأهل القدرة عليه، فمن لا قدرة عليه فلا حل ولا عقد لديه، اللهم إلا أخذ الأحكام الشرعية عنهم وتلقي الفتاوى منهم فتعم»[٤١١].

وبعد أن عرفنا القضاء وشروطه وأحكامه وتاريخه في الملة الإسلامية، ما حقيقته وأوضاعه في هذه الدولة الأندلسية؟

لم يكن القضاء في هذه الدولة من حيث الجوهر يختلف عن القضاء في الولايات والسلطنات الإسلامية كافة، اللهم إلا في بعض المصطلحات، وكذلك الوظائف المختلفة التي كان القاضي يضطلع بها.

وإذا كان هناك من مفارقة جوهرية، فهو سيادة مذهب فقهي واحد هو مذهب الإمام مالك، وكذلك عدم وجود العقائد الإسلامية المختلفة التي وجدت في المشرق.

المقصد الثاني: قضاء الجماعة:

من المصطلحات القضائية التي نصادفها كثيراً في تاريخ التراث الأندلسي «قاضي الجماعة».

ولعل النص التاريخي الأول الذي حقق في هذا الاصطلاح ما ذكره القاضي أبو الحسن النباهي، وقد كان قاضي الجماعة بمملكة غرناطة: «وإضافة لفظ القضاء إلى الجماعة، جرى التزامه بالأندلس منذ سنتين إلى هذا العهد، والظاهر أن المراد بالجماعة جماعة القضاة، إذ كانت ولايتهم قبل اليوم غالباً من قبل القاضي بالحضرة السلطانية كائناً من كان، فبقي الرسم كذلك، وأما قاضي الخلافة بالبلاد المشرقية فيدعي بـ: «قاضي القضاة»[٤١٢].

ويفهم من هذا النص المعاني الآتية:

١ ـ أن قاضي الجماعة مصطلح أندلسي بحت.

(٤١١) ـ ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص٦٣٣ ـ ٦٣٤.
(٤١٢) ـ النباهي، المرقبة العليا، ص٢١.

٢ ـ أنه مصطلح قديم لا يرتبط بالدولة النصرية فقط .

٣ ـ أنه كانت هناك جماعة من القضاة يرأسهم قاض واحد، قد يكونون في جهة واحدة، وقد يكونون في جهات متعددة .

٤ ـ أن قاضي الجماعة هو الذي كان صاحب القرار في تعيين القضاة في المملكة .

٥ ـ أن مقره بالعاصمة قريباً من الحضرة السلطانية للحاجة إليه من الناحية السياسية والقضائية .

٦ ـ أنه لم يعد لقاضي الجماعة بالأندلس على عهد صاحب النص الحق في اختيار القضاة وتعيينهم .

وبناء على هذا النص يكون كلام ابن خلدون الذي سقناه آنفاً موضوعياً إلى حد كبير كما يشهد لذلك النصوص المختلفة التي زخرت بها الإحاطة .

ومن هذا المنطلق يكون مصطلح «قاضي الجماعة» قد أفرغ من معناه الشرعي التاريخي، ليصبح شارة ولقباً يعطي لقاضي الجماعة امتيازات معنوية ترفعه درجة عن القاضي، وتبقي عليه في الحضرة قريباً من السلطان .

المطلب الأول: قاضي الجماعة؛ التعيين والصلاحيات :

يرقى القاضي إلى قاضي الجماعة بموجب ظهير سلطاني سام، وتدل النصوص المختلفة على أن قاضي الجماعة لا ينال هذا المنصب إلا إذا مارس القضاء مدة طويلة، وتنقل به في عدة مدن، وثبتت كفاءته، وأنه لا يترقى إليها إلا إذا مر بولاية القضاء في الحضرة العلية غرناطة .

يشهد لهذا قول ابن الخطيب في حق أحمد بن محمد بن أحمد بن هشام القرشي الغرناطي المعروف بابن فركون (٦٤٩هـ ـ ٧٢٩هـ) : « . . . ترشح بذاته، وباهر أدواته، إلى قضاء المدن النبيهة، والأقطار الشهيرة، كرندة ومالقة وغيرها، ثم ولي قضاء الجماعة»(٤١٣) .

(٤١٣) ـ ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٥٤ .

وكان القاضي إذا ولي قضاء الجماعة غالباً ما يرسم خطيباً للجمعة لأحد المساجد الجامعة النبيهة، أو مسجد الحضرة الأعظم، وقد يرشح أيضاً للإمامة. ولعل فيما سأورده مختصراً من كلام ابن الخطيب ما يفسر هذا الذي ذكر مجملاً، قال: «ومن إملائي ظهير قاضي الجماعة أبي الحسن بن الحسن: هذا ظهير كريم... أمر به... الأمير... ولما كان له الحسب الذي شهدت به ورقات الدواوين... محمد ابن... أبي الحجاج... لقاضي حضرته وخطيب حمرائه السنية، قاضي الجماعة، ومصرف الأحكام الشرعية المطاعة الشيخ الكذا... فخطبته الخطط العلية... واستعملته دولته... فكان معدوداً من عدول قضاتها... فلما زان الله خلافته بالتمحيص... كان ممن صحب ركابه... وسلك في مظاهرته أوضح الطرق... حتى استقل ملكه فوق سريره... وكان الجليس الغرب المحل والحظي المشاور في العقد والحل، والرسول المؤتمن على الأسرار، والأمين على الوظائف الكبار... وخطيب منبره العالي الجهات، وقارئ الحديث لديه في المجتمعات، ثم رأى أيده الله أن يشرك رعيته في نفعه... وقدمه... قاضياً للأمور الشرعية... بالحضرة العلية... فليتول ذلك عادلاً في الحكم بنور العلم... مجتهداً في الفصل بأمضى حسام، مراقباً لله عز وجل في النقض والإبرام، وأوصاه بالمشورة التي تقدح زناد التوفيق، والتثبت حتى يتبلج قياس التحقيق بآراء مشيخة أهل التوثيق، عادلاً إلى سعة الأقوال عن الضيق، سائراً من مشهور المذهب إلى أهدى طريق... وأمره أيده الله، أن ينظر في الأحباس على اختلافها والأوقاف على شتى أصنافها، واليتامى التي أسدلت كفالة القضاة على ضعافها... فعلى من يقف عليه أن يعرف هذا الإجلال، صائناً منصبه عن الإخلال... وكتب في الثالث من شهر الله المحرم، فاتح عام أربعة وستين وسبعمائة»(٤١٤).

وهناك ظهير آخر للمذكور بولاية خطبة الجامع الأعظم من غرناطة، من إملاء ابن الخطيب أيضاً مما جاء فيه قوله على لسان السلطان محمد الغني بالله: «... هذا الظهير الكريم... قدمه خطيباً بالجامع الأعظم من حضرته مضافاً ذلك إلى

(٤١٤)- ابن الخطيب، ريحانة الكُتّاب، ج٢، ص٨٠-٨٣.

ولايته . . . مرافقاً لمن بالجامع الأعظم . . . من علية الخطباء وكبار العلماء وخيار النبهاء والصلحاء، فليتداول ذلك في جمعاته مظهراً أثر بركاته وحسناته . . . »[٤١٥].

ويمكن أن نستخلص من هذين الظهيرين المعاني الآتية :

١ ـ أن الملك أو السلطان هو الذي يعين رسمياً قاضي الجماعة .

٢ ـ اعتبار الحسب والأصالة والعراقة في الاضطلاع بهذا الرسم، فقد ثبت أن عدة من الآباء والأجداد لهذا القاضي تقلدوا هذا المنصب عبر تاريخ الأندلس .

٣ ـ أن الدولة كانت لها دواوين محفوظة، وأرشيف مسجل، فيه إحصاء وتدوين لجميع أصحاب الخطط على امتداد التاريخ .

٤ ـ اعتبار الولاء والوفاء للملك أثناء محنته في الاختيار .

٥ ـ يؤكد النص أن القاضي قبل توليته كان ملابساً للسلطان، منخرطاً في أموره، مما يؤكد تورط القضاء في عدم الحياد . كما يستشف سعي القاضي إلى الوظيفة .

٦ ـ أنه على قاضي الجماعة أن يستعين بالشيوخ أهل التوثيق بالتشاور والتذاكر .

٧ ـ توجيه السلطان لأهل القضاء برسم الاتجاه العام الذي ينبغي أن ينهجه القضاء وهو التيسير وعدم التضييق، واتباع مشهور المذهب .

٨ ـ أن لقاضي الجماعة صلاحية النظر في الأحباس والأوقاف على اختلافها .

٩ ـ أن ينظر في قضايا الذي تكفل القضاء به .

١٠ ـ إلزام من وقف على الظهير بأن يعرف حقه .

أما بالنسبة إلى النص الثاني فيمكن أن نستنتج ما يلي :

١ ـ أن تعيين الخطباء أيضاً أمر يتولاه السلطان خاصة بالنسبة إلى المدن الكبيرة والمساجد الشهيرة، تنويهاً بفضلها، وحرصاً على كسب ولاء أصحابها، تنبيهاً على خطورتها في جمع الكلمة وتفريقها، وهذا أمر سياسي هام .

(٤١٥) ـ المصدر السابق نفسه، ج٢، ص ٨٣ ـ ٨٤ .

٢ ـ أن قاضي القضاة يعين خطيباً في الجامع الأعظم من الحضرة.

٣ ـ أن الجامع الأعظم يضم مجموعة من الخطباء الآخرين من أهل العلم، يتداولون المنبر في الجمع، على رسم قد عرفوه، وعادةً قد ألفوها.

ولقد كان للقضاة زي مخصوص يزينهم، يخلعه السلطان عليهم تنويهاً وتشريفاً، كما كانت الدولة تخصهم بجراية مقدرة.

قال أبو الحسن النباهي متحدثاً عن أبي عبدالله محمد بن عياش أحد قضاة الجماعة على عهد أبي الحجاج يوسف الأول، وقد دعي إلى القضاء، فاستعفى: «. . . فلم يقبل كسوة ولا أخذ جراية. . . فأعفاه، وارتحل عند ذلك بقية يومه إلى بلده، وتقدم للخطبة والصلاة بالجامع منه، وتولى ذلك إلى وفاته ولم يأخذ عليه مرتباً مدة حياته»(٤١٦).

كما كان قاضي الجماعة أيضاً يرافق وفد الدولة من وزراء وكتاب وقضاة حسب أهمية الغرض وشرف الوجهة المقصودة.

هذا عن قاضي الجماعة، فماذا عن القاضي العادي؟

المطلب الثاني: القاضي: المؤهلات والصلاحيات:

١ ـ المؤهلات:

لم يكن القاضي في كثير من أحواله يختلف عن قاضي الجماعة، فإذا كان قاضي الجماعة لا يتصدر لهذا المنصب إلا إذا تمرس في القضاء وتولاه في مناطق مختلفة، فإن القاضي لا يصبح قاضياً إلا إذا تولى مناصب مختلفة دون القضاء مندرجة فيه، فهذا على سبيل المثال القاضي أبو جعفر أحمد بن عبد الحق بن محمد الجذلي المالقي (٦٩٨هـ ـ ٧٦٥هـ) يقول فيه ابن الخطيب: «. . . إمام في الوثيقة. . . وتصرف في القضاء [والتصرف في القضاء غير القضاء] ببلش وغيرها من غربي بلده، فحسنت سيرته، واشتهرت طريقته، وحمدت نزاهته، ثم ولي خطة القضاء بمالقة»(٤١٧).

(٤١٦) ـ النباهي، المرقبة العليا، ص ٢١.

(٤١٧) ـ ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٨٠ ـ ١٨١.

وهذا محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن سعيد الأشعري (٦٦٤هـ-٧٤١هـ): «. . . تقدم للشياخة ببلده مالقة، ناظراً في أمور العقد والحل، ومصالح الكافة، ثم ولي القضاء»(٤١٨).

وهذا القاضي أبو بكر بن محمد بن فتح الإشبيلي الملقب بالأشبرون: «تولى له [محمد بن محمد بن يوسف ثاني الملوك (٦٣٣هـ-٧٠١هـ)] خطة القضاء. . . تولى قبل خطة السوق (الحسبة). . . فجمع له أمر الشرطة وخطة السوق، ثم ولي القضاء»(٤١٩).

كما قد تؤهله السفارة لخطة القضاء، مثلما هو الشأن بالنسبة إلى إبراهيم بن عبدالله بن محمد بن قاسم النمري المعروف بابن الحاج (٧١٣هـ- وكان حياً سنة ٧٦٨هـ) الذي: «استعمل في السفارة إلى الملوك وولي القضاء في الأحكام الشرعية بالإقليم بقرب الحضرة»(٤٢٠).

٢ - الصلاحيات:

هذا وقد يتولى القاضي إلى جانب منصب القضاء مناصب أخرى مثل محمد بن فتح بن علي الأنصاري (ت: ٦٩٨هـ) الذي: «. . . ولي القضاء بمالقة وبسطة، ثم ولي الحسبة بغرناطة، ثم جمعت له إليها الشرطة»(٤٢١).

وكان القاضي غالباً ما يضاف إليه عند توليه القضاء رسما الإمامة والخطابة بمسجد من مساجد المملكة، كما يدل على ذلك ما جاء في ترجمة أحمد بن محمد بن علي المعروف بابن برطال (٦٨٩هـ- ٧٥٠هـ)، قال ابن الخطيب: «تقدم قاضياً بغرناطة، بعد ولاية القضاء ببلده. . . وقام بالرسم المضاف إلى ذلك، وهو الإمامة بالمسجد الأعظم منها، والخطابة بجامع قلعتها الحمراء»(٤٢٢).

(٤١٨)- ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ١٧٦.
(٤١٩)- ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٥٦٠.
(٤٢٠)- ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٣٤٥.
(٤٢١)- ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ١٣٨.
(٤٢٢)- ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٧٢.

كما كان القاضي أحياناً يترشح لقيادة البعثة السفارية إلى ملوك الدول المجاورة، كما وجد أحياناً أن القاضي قد ينتظم أول الأمر في سلك الكتاب ثم يرقى إلى القضاء، كما وقع لمحمد بن أحمد الحسيني (٦٩٧هـ-٧٦٠هـ)، قال ابن الخطيب: «. . . ونظم في قلادة كتاب الإنشاء. . . إلى أن قلد الكتابة والقضاء والخطابة بالحاضرة، بعد ولاية غيرها، التي أعقبها ولاية مالقة. . . فاضطلع بالأحكام. . . واستعمل في السفارة للعدو، ناجح السعي، ميمون النقيبة»[٤٢٣].

كما دلت بعض النصوص أيضاً أنه كان هناك ما يشبه التخصصات في القضاء، بحيث كان القاضي أحياناً يتولى النظر في مجال شرعي واحد، وأحكام شرعية تتعلق بجانب واحد من جوانب أحكام المعاملات المتنوعة، مثل النظر في المناكح، والنظر في الدماء، إلى جانب وظيفة أخرى تكميلية، إلى غير ذلك، فقد جاء في ترجمة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي (٦٢٧هـ-٧٠٨هـ)، قول ابن الخطيب: «ولي القضاء في المناكح والخطبة»[٤٢٤]، وجاء أيضاً في حق عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم بن فرج الخزرجي، وإن كان من قضاة القرن السادس، قول ابن الخطيب: «. . . فكان إليه النظر في الدماء فما دونها»[٤٢٥].

هذا وكان القضاة في أغلب الأحيان مستقرين في خططهم حتى وفاتهم، لا يؤثر فيها تعاقب السلاطين، وكانوا لا يعزلون إلا في القليل النادر، وفي الأغلب لا تذكر الأسباب، وأحياناً كان القاضي يستعفي فيعفى وكان أحياناً يتعاقب على القضاء من عائلة واحدة أكثر من واحد، كما دلت بعض الإشارات أيضاً أن القضاء أيضاً كان يستعين بالقضاء النيابي، عندما يغيب القاضي المعتمد، إما لأسباب شخصية أو سياسية، ويكون ذلك في الوقت نفسه تدريباً للقاضي النائب، يؤكد هذا ما جاء في حق أحمد بن عبد النور بن أحمد المالقي (٦٣٠هـ-٧٠٢هـ)، قال ابن الخطيب: «وناب عن بعض القضاة وقتاً»[٤٢٦].

(٤٢٣)-ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ١٨٢-١٨٣.
(٤٢٤)-ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٨٩.
(٤٢٥)-ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٥٤١-٥٤٢.
(٤٢٦)-ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٩٧.

المطلب الثالث: الوَزَعَة أو أعوان القاضي:

وأخيراً نشير إلى ظاهرة طريفة وإن لم ترد فيها نصوص كثيرة بيد أن العودة إلى معاجم اللغة أعان على تسليط الضوء عليها، ثم إن السياق الذي وردت فيه لم يدع المعنى ملتبساً، ونعني بها أن القضاة بات من لوازم خطتهم وأدوات وظيفتهم اتخاذ «الوزعة» ضماناً لتنفيذ أحكامهم وعونا على نفاذ أمرهم وصون هيبتهم.

ولقد أكد النظر في معاجم اللغة، أن الاصطلاح عريق، وبالانتساب إلى القضاء الإسلامي حقيق، جاء في لسان العرب قوله: «وفي حديث الحسن لما ولي القضاء قال: لابد للناس من وزعة، أي أعوان يكفونهم عن التعدي، والشر والفساد»(٤٢٧).

وقال في موضع آخر: «وفي الحديث: من يزع السلطان أكثر ممن يزع القرآن؛ معناه أن من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان أكثر ممن تكفه مخافة القرآن والله تعالى، فمن يكفه السلطان عن المعاصي أكثر ممن يكفه القرآن بالأمر والنهي والإنذار»(٤٢٨).

ومما جاء في الإحاطة في هذا الشأن ما ورد في ثنايا ترجمة القاضي أحمد بن محمد بن أحمد بن قعنب الأزدي (٦٧٠هـ ـ ٧٣٢هـ)، قال ابن الخطيب في حقه: «كان من شيوخ كتاب الشروط معرفة بالمسائل، واضطلاعاً بالأحكام، انفرد بصحة الوثيقة... وربما قال لبعض الوزعة من قادته بمجلسه، وقد توقفوا به في بعض الطريق، توقعاً لسكون غضب قاضيهم: ابعثوا بعضهم إلى هذا المحروم، لنرى ما عزم عليه...»(٤٢٩).

والنص يكشف عن المعاني الآتية:

١ ـ أن الوزعة والأعوان كانوا مجموعة.

(٤٢٧) ـ ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص ٤٨٢٥.
(٤٢٨) ـ المصدر السابق نفسه، ج٦، ص ٤٨٢٥.
(٤٢٩) ـ ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

٢ ـ أنهم كانوا قادة له، يمشون بين يديه أثناء المهمة.

٣ ـ أنه ليس كل الوزعة كانوا يخرجون معه.

٤ ـ أن هيبة القاضي كانت تشمل حتى الوزعة الذين كانوا أكثر الناس ملابسة له.

٥ ـ أن القاضي في ذلك الزمن قد يتحرك للقضية على مستوى الواقع رفقة بأعوانه.

٦ ـ كما يفهم أيضاً أن الوزعة كانوا في مقام الحرس الذي يحول دون أن يصاب القاضي بأذى، إذ وظيفته مجلبة لا محالة للأعداء.

المقصد الثالث: الإمامة والخطابة:

من الخطط التي تردد ذكرها كثيراً؛ الإمامة والخطابة، وإن كانتا من الناحية الدينية أشرف من القضاء. وكان الأولى بنا تقديمها على القضاء لفضلهما كما يفعل عادة من يتصدى لمثل هذا مراعياً الترتيب حسب الفضل، وقد فعل ابن خلدون نفسه هذا، بيد أن وضوحهما، وقلة النصوص التي يمكن أن تشكل موضوعاً مستقلاً يفرد بالدراسة تشفع في الإعراض.

وأهم ما يمكن ملاحظته بالنسبة إلى هذه الخطة أو هاتين الخطتين نذكره من خلال النقاط الآتية:

١ ـ كانت الإمامة والخطابة تولى من قبل السلطان كسائر الوظائف الخطيرة التي عرضناها، وهذا يشهد بفضلها وخطورتها، لحاجة السلطان والأمة إليها.

٢ ـ أن الإمامة والخطابة كان يشترك فيها القضاة والفقهاء والعلماء، يتداولونها حسب المعهود، وقد رأينا هذا في ظهير تولية أبي الحسن النباهي قضاء الجماعة.

٣ ـ أن الإمامة والخطابة ليس شرطاً فيهما أن يكون صاحبهما قاضياً، مثلما جاء في حق محمد بن أحمد بن حسين بن يحيى بن صفوان المعروف بابن صفوان (ت: ٧٤٩هـ): «وولي الخطابة بالمسجد الجامع من الربض الشرقي»[٤٣٠].

(٤٣٠) ـ ابن الخطيب، الإحاطة، ج٣، ص ٢٣٧، وانظر أيضاً: ص ١٩٢ وص ١٣٦ وص ١٠٤ من الجزء نفسه.

٤ ـ دلت النصوص أن الخطابة كان شأنها أخطر من الإمامة، والسبب بيّن لأن الخطابة تعتمد على البيان والتأثير والتوجيه، وهذا قد يجلب المشاكل والمتاعب لذوي السلطان، والخطيب في وقت واحد، كما جاء في حق محمد بن أحمد بن محمد بن علي الغساني (٦٧٣هـ ـ ٧٤٩هـ)، قال ابن الخطيب: «وخطب بمسجد مالقة الأعظم، ثم أخر عن الخطبة لمشاحنة وقعت بينه وبين بعض الولاة، أثمرت في إحنته»(٤٣١).

٥ ـ كما قد يقوم الخطيب بوظائف إلى جانب الخطابة مثل التدريس، والكتابة، والسفارة، مثلما جاء في حق محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدّوسي، قال ابن الخطيب: «وكتب بالدار السلطانية... وولي الخطبة العلية مع الاستمساك بالكتابة»(٤٣٢)، وكذلك ما جاء في حق محمد بن إدريس بن مالك القضاعي المعروف بالقللوسي (ت: ٧٠٧هـ): «وولي الخطابة ببلده مدة، وقعد للتدريس به، وأثال عليه الناس، وأخذوا عنه»(٤٣٣).

المقصد الرابع: الحسبة والشرطة:

الحسبة أيضاً من الخطط التي تندرج في سلك القضاء، كما ألمعت آنفاً، وهي أيضاً من الخطط الاقتصادية الهامة التي تحمي التجارة والمستهلك بالدرجة الأولى من أن تقع تحت أي نوع من أنواع الغش والاحتيال.

أما مجالها فهو السوق، لذلك سميت في الأندلس أحياناً بخطة السوق، والقيِّم عليها يسمى صاحب السوق، قال القاضي النباهي: «وصاحب السوق كان يعرف بصاحب الحسبة لأن أكثر نظره إنما كان يجري في الأسواق من غش، وخديعة، وتفقد مكيال وميزان وشبه ذلك»(٤٣٤).

(٤٣١) ـ ابن الخطيب، الإحاطة ج٣، ص ٦٧.
(٤٣٢) ـ ابن الخطيب، الإحاطة ج٢، ص ٢٥٣.
(٤٣٣) ـ ابن الخطيب، الإحاطة ج٣، ص٧٦، وانظر أيضاً ج١، ص ٣٧٤.
(٤٣٤) ـ النباهي، المرقبة العليا، ص٥.

أما عن أهميتها وسطوتها فقد قال ابن خلدون: «أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلاً له، فيتعين فرضه عليه، ويتخذ الأعوان على ذلك، ويبحث عن المنكرات، ويعزر ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة»(٤٣٥).

ويقول ابن خلدون منبهاً على علاقتها بالقضاء والقاضي: «وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها، فتدفع على صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء»(٤٣٦).

ولقد كانت هذه الخطة في عهودها الذهبية من جملة ولايات القضاء حيث كان للقاضي الصلاحية في اختيار أصحابها، بيد أنها في العصور المتأخرة، لما اتسع نفوذ السلطان وتقلص ظل الخلافة الشرعية، أصبحت من جملة نظر السلطان يولي أصحابها بنفسه(٤٣٧).

وقال القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء (ت: ٤٥٨هـ) مبيناً فضلها وعلاقتها بخطة المظالم أنبه خطط القضاء والسياسة: «واعلم أن الحسبة واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم»(٤٣٨).

ولقد ميّز العلماء بين نوعين من أنواع الحسبة من جهة الوجوب العيني ومن جهة الوجوب الكفائي: الحسبة الواجبة، وحسبة التطوع، والفرق بينهما من جهة الولاية من قبل السلطان وعدمها(٤٣٩).

أما بالنسبة إلى هذه الخطة في الإحاطة فقد جاءت الإشارات إليها وإلى أصحابها نادرة جداً، وقلما يرد الحديث عنها بصفة مستقلة، وإنما يرد في ثنايا الحديث عن

(٤٣٥)- ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص٦٣٦.
(٤٣٦)- ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص ٦٣٦.
(٤٣٧)- ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص٦٣٦ - ٦٣٧.
(٤٣٨)- الفراء، الأحكام السلطانية، ص٢٨٠.
(٤٣٩)- الفراء، الأحكام السلطانية، ص٢٨٤.

خطط أخرى، مما دل على أن هذه الوظيفة قلما اختصت بصاحبها متفرداً في القيام بأمورها، وإنما كانت هناك وظيفة أخرى إلى جانب هذه الوظيفة.

أما الوظيفة التي كانت غالباً ما تنضاف إلى الحسبة، فهي الشرطة، فما الشرطة؟

يسمى صاحبها في الأندلس صاحب المدينة، قال ابن خلدون: «وهي وظيفة مرؤوسة لحاجب السيف في الدولة، وحكمه نافذ في صاحبها في بعض الأحيان»(٤٤٠).

أمّا عن تاريخ نشوئها فيذهب ابن خلدون أيضاً أنها وضعت على عهد الدولة العباسية، وخصّ بها من يقيم أحكام الجرائم في حال بدوّها ثم الحدود بعد استيفاء شروطها، وكان الذي يقوم بهذا الاستبداد والاستيفاء إذا تنزه عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة، وربما وكل إليه النظر في الحدود والدماء مطلقاً، وكان غالباً ما ينزّه القاضي عن هذه الرتبة، ويتقلدها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم(٤٤١).

ويقرر ابن خلدون أيضاً أن شأن هذه الخطة في الدولة الأموية بالأندلس كان عالياً، يقول: «ثم عظمت نباهتها في دولة بني أمية بالأندلس، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى، وجعل حكم الكبرى على الخاصة وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلامات، وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه، وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامة، ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان، ورجال يتبوءون المقاعد بين يديه، فلا يبرحون عنها إلا في تصريفه، وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة حتى كانت ترشيحاً للوزارة والحجابة»(٤٤٢).

أما إشارات ابن الخطيب التي تلمح إلى هذه الخطة فلم تعد ـ كما ذكرت ـ أن نبهت على اجتماعها بخطة الحسبة في يد رجل واحد، كما نبهت على أن القاضي

(٤٤٠) ـ ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص٦٨٧.
(٤٤١) ـ ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص ٦٨٧.
(٤٤٢) ـ ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص ٦٨٧ ـ ٦٨٨.

هو الذي كان أكثر ترشيحاً لهاتين الخطتين.

ومن النصوص التي تدل على ذلك قوله في حق محمد بن فتح بن علي الأنصاري (ت: ٦٩٨هـ): «تولى قبل ذلك [قبل القضاء] خطة السوق، فلقي سكران أفرط في قحته واشتد في عربدته، وحمل على الناس، فأخرجوا عنه، فاستعرضه واشتد عليه حتى تمكن منه بنفسه واستنصر [استبصر] في حده، وبالغ في نكاله، واشتهر ذلك عنه، فجمع له أمر الشرطة، وخطة السوق، ثم ولي القضاء...»[٤٤٣].

وهذا النص يكشف عن الحقائق الآتية:

١ ـ أن القاضي هو أكثر الناس أهلية لخطة السوق، وخطة الحسبة أو الجمع بينهما.

٢ ـ أن القضاءَ يُرشِّح للحسبة، وخطة السوق أو الجمع بينهما.

٣ ـ أن خطة الشرطة تحتاج إلى الشدة والحزم..

٤ ـ أن مواقف الشدة والحزم قد ترشح القاضي أو المحتسب لتولي خطة الشرطة.

٥ ـ أن خطة السوق هي أقرب الخطط إلى خطة الحسبة لاشتراكهما في شرط القوة والحزم ومبادرة إنفاذ القانون.

٦ ـ أن صاحب خطة السوق قد يتجاوز حدود الاختصاص فيتعداه إلى حدود اختصاصات صاحب الشرطة، فلا يعاقب على ذلك بل ينوه به ويكافئه لما هو أهله، لأنه بادر بالدفع عن حق عام.

ومما يدل على أن هذه الخطة على عهد ابن الخطيب ضعف شأنها عما كانت عليه على عهد الدولة الأموية كما أقر ابن خلدون قوله معلقاً في خاتمة ترجمة أحد قضاة الدولة الأموية، وهو أسباط بن جعفر بن سليمان بن أيوب بن عفان الإلبيري: «وتوفي هشام وهو قاض بإلبيرة، فأقره ابنه الحكم ثم ولاه الشرطة إلى أن توفي أسباط، قلت: انظر حال الشرطة عند الخلفاء من كان يختار لها ولايتها»[٤٤٤].

(٤٤٣)ـ ابن الخطيب، الإحاطة ج١، ص ٥٦٠، وانظر ج١، ص ١٣٨.

(٤٤٤)ـ ابن الخطيب، الإحاطة ج١، ص ٤١٩.

أما حال الحسبة فلم تكن أحسن حالاً من الشرطة لما اعتراه من الفساد والانحراف عن الجادة، وهذا نص لابن الخطيب طريف نجتزئه من رسالة أدبية هازئة بعث بها إلى محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم الأنصاري المعروف بالشُّدِيِّد (ولد: ٧١٠هـ) وقد ولي الحسبة، يقول: «وأدّب أطفال السوق، سيما من كان قبل البلوغ والسبوق، وصمّم في استخراج الحقوق والناس أصناف، فمنهم خسيس يطمع منك في أكلة، ومستعد عليك بوكزة، أو ركلة، أو حاسد في مطية تركب، وعطية تسكب، فاخفض للحاسد جناحك وسدّد إلى حربه رماحك، وأشبع الخسيس منهم مرقة دسمة فإنه خنيق، ودسّ له فيها عظماً لعله يختنق... واجعل قدومك مقروناً برخص اللحم والزيت والدقيق...»[٤٤٥].

المقصد الخامس: العدالة والتوثيق:

وهي صناعة تابعة لخطة القضاء راجعة إليه، ومهمة أصحابها صياغة العقود المختلفة، في المعاملات المتباينة، بناء على شروط المتعاقدين، ويجب أن لا تتعارض مع مقتضيات الشريعة الإسلامية، وقبل أن تصبح نافذة لابد من اطلاع القضاء عليها، والمصادقة على ما جاء فيها.

يقول ابن خلدون معرفاً بهذه الوظيفة، وموقعها من القضاء: «العدالة هي وظيفة دينية تابعة للقضاء ومن مواد تصريفه، وحقيقة هذه الوظيفة، القيام عن إذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم تحملاً عند الإشهاد، وأداء عند التنازع، وكتباً في السجلات، تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم»[٤٤٦].

أما عن الشروط التي ينبغي أن تكون في أصحابها فيقول ابن خلدون أيضاً: «وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية، والبراءة من الجرح، ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عبارتها وانتظام فصولها، ومن جهة أحكام

(٤٤٥)- ابن الخطيب، الإحاطة ج٣، ص١٩٧-١٩٨.
(٤٤٦)- ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص٦٣٥.

شروطها الشرعية وعقودها، فيحتاج حينئذ إلى ما يتعلق بذلك من الفقه» ٢/ ٦٣٥ .

أما عن مهمة القاضي تجاه هذه الوظيفة فيقول أيضاً: «ويجب على القاضي تصفح أحوالهم، والكشف عن سيرهم، رعاية، لشرط العدالة فيهم، وأن لا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس، فالعهدة عليه في ذلك كله»(٤٤٧).

أما عن اصطلاح مواضعهم فيقول: «ولهم في سائر الأمصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها، فيتعاهدهم أصحاب المعاملات للإشهاد، وتقييده بالكتاب»(٤٤٧).

ويلاحظ من خلال الإشارات المتكررة التي وردت في الإحاطة، أن هذه الصناعة كانت مزدهرة غاية الازدهار في بلاد المغرب عموماً والأندلس خصوصاً، لأنها تتعلق بمعاملات الناس المختلفة، كما أنها كانت مصدراً هاماً من مصادر الرزق، يتعيش بها كثير من الناس.

ويجدر التنبيه على أن هذه الصناعة بالمواصفات المذكورة ما زال يعمل بها في المغرب ويطلق على أصحابها مصطلح «العدول».

ولقد تنوعت الصياغات والاصطلاحات التي ألمت بهذه الوظيفة وأصحابها بتنوع السياقات، فأحياناً يسمى أصحابها «كتاب الشروط» كما جاء في ترجمة أحمد بن محمد بن أحمد بن قعنب الأزدي (٦٧٠هـ- ٧٣٢هـ)، قال ابن الخطيب: «كان من شيوخ كتاب الشروط معرفة بالمسائل واضطلاعاً بالأحكام، وانفرد بصحة الوثيقة»(٤٤٨).

وأحياناً تسمى «الوظيفة عقد الشروط» وأصحابها «العدول» كما جاء في ترجمة محمد بن أحمد بن محمد بن علي الغساني (٦٧٣هـ- ٧٤٩هـ)، قال ابن الخطيب: «. . . عقد الشروط بمالقة مدة طويلة، في العدول المبرزين»(٤٤٩)، كما أطلق عليها

(٤٤٧)- ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص ٦٣٦ .
(٤٤٨)- ابن الخطيب، الإحاطة، ج١ ص١٦٦ .
(٤٤٩)- ابن الخطيب، الإحاطة ج١، ص ١٧٢ .

أحياناً مصطلح «صناعة التوثيق»، كما جاء في ترجمة أحمد بن محمد بن علي بن أحمد المعروف بابن برطال (٦٨٩هـ- ٧٥٠هـ)، قال ابن الخطيب: «مشهور الوقار والعفاف، تحرّف بصناعة التوثيق على انقباض»(٤٥٠). ولقد دلّ النص على المعاني الآتية:

١ ـ الإشارة إلى شرطين هامين من شروط «العدل» أو «الموثق» وهما الوقار والعفاف.

٢ ـ الارتزاق من وظيفة «العدالة».

٣ ـ أنها صناعة من جملة الصناعات.

٤ ـ أنها قد لا تنسجم مع صفة الورع التي تغلب على بعض ممارسيها فيعتريهم الانقباض.

كما اكتفى ابن الخطيب أحياناً ـ عند الإشارة إلى هذه الوظيفة ـ بمصطلح «الوثيقة» مثلما في ترجمة أحمد بن عبد الحق بن محمد الجذلي (٦٩٨هـ- ٧٦٥هـ)، حيث وصفه بقوله «إمام في الوثيقة»(٤٥١).

كما وصف آخر وهو محمد بن علي بن الخضر المعروف بابن عسكر (ت ٦٣٦هـ) بقوله: «. . . متقدماً في عقد الوثائق بصيراً بمعانيها»(٤٥٢).

ومما يدل على مراجعة القاضي نصوص الوثائق والعقود والبت فيها، وكذلك تفاوت العدول في الصنعة بحيث قد يكتبون عقوداً وفق شروط يأباها الشرع إما جهلاً أو احتيالاً أو انصياعاً لأحد المتعاقدين أو كليهما، ما جاء في ترجمة مؤمل بن رجاء بن عكرمة بن رجال العقيلي (بدون)، يقول ابن الخطيب: «رفعت إليه امرأة كتاب صداقها، فقال الصداق مفسوخ، وأنتما على حرام، فافترقا فرّق الله بينكما، ثم رمى بالصداق [وثيقة الصداق] إلى من حوله [من العدول والموثقين]، وقال

(٤٥٠)- ابن الخطيب، الإحاطة ج١، ص ١٧٢.
(٤٥١)- ابن الخطيب، الإحاطة ج١، ص١٨٠.
(٤٥٢)- ابن الخطيب، الإحاطة ج٢، ص ١٧٣.

عجباً لمن يدعي فقهاً ولا يعلمه، أو يزعم أنه يوثق ولا يتقنه، مثل أبي فلان، وفي المجلس يكتب هذا الصداق، وهو مفسوخ ما أحقه أن يغرّم ما فيه، فدار الصداق على يدي كل من حضر . . . الخ»[٤٥٣]. وذكر العبارة الشرط التي تبطل الصداق وهي: «ولا يمنعها زيارة ذوي محارمها ولا يمنعهم زيارتها بالمعروف»[٤٥٤]. ولقد دلت إشارات كثيرة إلى أن كاتب العقود والشروط كثيراً ما كان يترشح للقضاء[٤٥٥].

ولقد أفرد ابن الخطيب في هذه الصناعة وأهلها كتيباً غريباً في نزوعه، طريفاً في طريقته، اعتمد فيه أسلوب السخرية والاستهزاء سماه «مثلى الطريقة في ذمّ الوثيقة» شنّ من خلاله حملة شعواء على منتحلي هذه الصنعة، حصر مضمونه في سبعة أبواب مختصرة تتبين من خلالها الأغراض وهي: في جواز الإجارة فيها عند العلماء، في الشركة المستعملة بين أربابها، في محلها من الورع إن سوّغها الفقه، في منازلتها من الصنائع والمهن، في أحوال منتحليها من حيث العلم غالباً، في أحوالهم من جهة استقامة الرزق وانحرافه، في ردّ بعض ما يحتج به فيها.

والناظر في هذا الكتيب على اختصاره يقف على كثير من الحقائق التاريخية والاجتماعية المتعلقة بهذه الحرفة في جميع أقطار بلاد المغرب، كما يقف الناظر أيضاً على شخصية ابن الخطيب فقيهاً يمتلك المادة والأداة، ولقد أثار هذا الكتيب ضجّة كبيرة في الأوساط الفقهية امتد صداها مدّة طويلة بعد هلاك ابن الخطيب[٤٥٦].

المقصد السادس: خطة المواريث:

وهي خطة لم تذكر إلا لماماً، ويفهم من الاصطلاح أن صاحبها ربما كان مختصاً بما يتعلق بأحكام الميراث، وأحكام الميراث في الشريعة الإسلامية مفصلة مقننة كما

(٤٥٣)- ابن الخطيب، الإحاطة ج٣، ص ٣٠٢.
(٤٥٤)- ابن الخطيب، الإحاطة ج٣، ص٣٠٢.
(٤٥٥)- ابن الخطيب، الإحاطة ج١، ص ١٦٩.
(٤٥٦)- ابن الخطيب، مثلى الطريقة في ذم الوثيقة.

هو معلوم، وهي وإن كانت محكمة قطعية، فإن الحالات المتعددة الناجمة عن الوفيات المتنوعة ، والتي قد تبلغ درجة عالية من التعقيد تتطلب المهارة والضلوع في الحساب من كسر وجبر وضم ونشر .

وربما لهذا الداعي جعلت هذه الخطة في يد رجل واحد، رغم اندراجها في سلك القضاء، كما أن إضافة مصطلح «الخطة» للمواريث أشعر بأنها من الخطط الهامة، التي لا تقل أهمية عن القضاء والحسبة والشرطة، أكد هذا أنها كانت ولاية من الولايات التي يختار لها السلطان رجالها .

هذه هي جملة الخطط والرسم التي قامت عليها مؤسسة الحكم في الدولة النظرية التي أعثر عليها النظر والاستقراء في كتابة الإحاطة في أخبار غرناطة، وهي خطط في مجملها ترجع من حيث الأصل إلى التراث الإداري لدولة الإسلام على امتداد التاريخ . وقد لاحظنا أن كثيراً من المؤسسات أصابها تحول كبير شكلاً ومضموناً، وفي ذلك مصداق لكثير من ملاحظات ابن خلدون ونظراته في مقدمته . كما لوحظ أن إشارات ابن الخطيب وإن كانت خاطفة كشفت عن كثير من الفوائد الهامة . كما استيقنا في خاتمة هذه الدراسة أن الاستقراء والنظر إذا خصت به مصادر التراث الإسلامي والتاريخ بخاصة، يوقف على كثير من الحقائق الهامة والمفيدة، لأن الملاحظات كانت دقيقة، واللغة كانت غنية والعبارات كانت مشحونة .

خاتمة :

هذه جملة من القيم والمعطيات، الهامة والطريفة، التي دل عليها تحليل خطاب الإحاطة من الزاوية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعمرانية والمعمارية والعسكرية، والإدارية، وقد كشفت لنا بحق عن صورة مشرقة في آخر صفحة من صفحات تاريخ الإسلام والمسلمين في أقصى الجهات الغربية الجنوبية من البلاد الأوربية، كُتبَ للمسلمين أن يكونوا هنالك كينونة غريبة ومتفردة، وأن يزولوا زوالاً غريباً ومتَفرداً، ولعلهم يعودون عودة غريبة كما بدؤوا، فالتاريخ دول .

ثبت المصادر والمراجع المعتمدة

١ ـ ثبت المصادر :

أ ـ مصنفات للسان الدين بن الخطيب :

* ابن الخطيب : أبو عبدالله محمد بن الخطيب الغرناطي الأندلسي .
الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبدالله عنان ، ط٢ ، مصر ، مكتبة الخانجي ، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣ .

* ابن الخطيب ، أبو عبدالله محمد بن الخطيب الغرناطي الأندلسي .
اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة ، ط٢ ، لبنان ، دار الآفاق الجديدة ، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

* ابن الخطيب ، أبو عبدالله محمد بن الخطيب الغرناطي الأندلسي .
نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، مراجعة عبد العزيز الأهواني ، مصر ، دار الكتاب العربي ، د . ت .

* ابن الخطيب ، أبو عبدالله محمد بن الخطيب الغرناطي الأندلسي .
نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ج٣ تقديم وتحقيق السعدية فاغية ، ط١ ، المغرب ، مطبعة النجاح الجديدة ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .

* ابن الخطيب ، أبو عبدالله محمد بن الخطيب الغرناطي الأندلسي .
تاريخ إسبانيا الإسلامية أو القسم الثاني من كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام ، تحقيق وتعليق ليفي بروفانسال ، ط٢ ، لبنان ، دار المكشوف ، ١٩٥٦م .

* ابن الخطيب ، أبو عبدالله محمد بن الخطيب الغرناطي الأندلسي .
تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط أو القسم الثالث من كتاب أعمال

الأعلام لابن الخطيب، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، المغرب، دار الكتاب، ١٩٦٤ .

* ابن الخطيب، أبو عبدالله محمد بن الخطيب الغرناطي الأندلسي .
ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق محمد عبدالله عنان، ط١، مصر، مكتبة الخانجي ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

* ابن الخطيب، أبو عبدالله محمد بن الخطيب الغرناطي الأندلسي .
مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله)، تحقيق أحمد مختار العبادي، مصر، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٣م.

* ابن الخطيب، أبو عبدالله محمد بن الخطيب الغرناطي الأندلسي .
معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانة، المغرب، مطبعة فضالة، د.ت.

* ابن الخطيب، أبو عبدالله محمد بن الخطيب الغرناطي الأندلسي .
أوصاف الناس في التواريخ والصلات تليها الزواجر والعظات، تحقيق محمد كمال شبانة، المغرب، مطبعة فضالة، د.ت.

* ابن الخطيب، أبو عبدالله محمد بن الخطيب الغرناطي الأندلسي .
الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق وتوزيع دار الثقافة، لبنان، ١٩٨٣م.

ب- مصادر مختلفة :

* ابن خلدون، أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون .
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، طبعة دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة، لبنان، د.ت.

* ابن خلدون، أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون.
التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، ١٩٧٩م.
* ابن سعيد، علي بن موسى الأندلسي.
المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، مصر، دار المعارف، د. ت.
* ابن عذاري، المراكشي.
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج ـ س كولان، ليفي بروفانسال، ط٢، لبنان، دار الثقافة، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
* ابن القاضي، المكناسي.
جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، المغرب، دار المنصور للطباعة والوراقة، ١٩٧٣.
* الحميري، محمد بن عبد المنعم.
الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، لبنان، ساحة رياض الصلح، ١٩٧٥.
* الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان.
سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط١، لبنان، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١.
* المراكشي، العباس بن إبراهيم.
الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المغرب، المطبعة الملكية، ١٩٧٤.
* المراكشي، عبد الواحد.
المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تعليق وتصحيح محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي، ط٧، المغرب، دار الكتب، ١٩٧٨.

* المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني.
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، لبنان، دار صادر، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨.
* المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني.
أزهار الرياض في أخبار عياض، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات المتحدة، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠.
* المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني.
روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، ط٢، المغرب، المطبعة الملكية، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣.
* الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد.
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولدي المؤلف جعفر ومحمد، المغرب، دار الكتاب، ١٩٥٤.
* العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر.
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، طبعة حيدر آباد، ١٣٥٠.
* العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر.
إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشي، مصر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، د.ت.
* ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي.
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لبنان، منشورات دار الآفاق الجديدة، د.ت.
* ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي.
جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، ط٥، مصر، دار المعارف، ١٩٨٢.

* ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف.
المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، مصر، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٣٩٠هـ-١٩٧١.
* ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف.
المقتبس من أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي حجي، لبنان، دار الثقافة، ١٩٨٣.
* ابن أبي زرع، علي بن أبي زرع الفاسي.
الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة، المغرب، ١٩٧٢.
* ابن أبي زرع، علي بن أبي زرع الفاسي.
الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، المغرب، ١٩٧٣.
* ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الغرناطي الأندلسي.
نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان، تحقيق محمد رضوان الداية، ط١، لبنان، مؤسسة الرسالة، ١٣٦٩هـ-١٩٧٦م.
* ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الغرناطي الأندلسي.
نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، تحقيق محمد رضوان الداية، لبنان، دار الثقافة، ١٩٦٧.

٢ـ ثبت المراجع:

* بالينثيا، آنخل بالينثيا.
تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ط١، مصر، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥.

* بوطالب، عبد الهادي بن طالب.
وزير غرناطة لسان الدين بن الخطيب السلماني، ط٢، المغرب، دار الكتاب، ١٩٦٠.
* التطواني: محمد بن أبي بكر التطواني.
ابن الخطيب من خلال كتبه، المغرب، دار الطباعة المغربية، تطوان، ١٩٥٤.
* جوليان، شارل أندري جوليان.
تاريخ إفريقية الشمالية، تونس الجزائر المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة ١٨٣٠، ترجمة محمد مزالي، البشير بن سلامة، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٣٩٨ـ١٩٧٨.
* سالم، السيد عبد العزيز سالم.
تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، مصر، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، ١٩٨٤.
* سالم، السيد عبد العزيز سالم.
في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مصر، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، ١٩٨٥.
* السائح، الحسن بن محمد السائح.
منوعات ابن الخطيب، المغرب، وزارة الأوراق والشؤون الإسلامية، ١٣٩٨ـ ١٩٧٨م.
* شبانة، محمد كمال شبانة.
يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة (٧٣٣هـ ـ ٧٥٥م)، ط١، لبنان، مطبعة الرسالة، ١٩٦٩م.
* العبادي، عبد الحميد العبادي.
المجمل في تاريخ الأندلس، ط١، مصر، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨م.

* العبادي، أحمد مختار العبادي.
في تاريخ المغرب والأندلس، لبنان، دار النهضة العربية، ١٩٧٨م.
* العبادي، أحمد مختار العبادي.
دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ط١، مصر، مطبعة المعري، ١٩٦٨م.
* عنان، محمد عبدالله عنان.
نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط٣، مصر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.
* عنان، محمد عبدالله عنان.
لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، ط١، مصر، مكتبة الخانجي، ١٣٧٧هـ-١٩٦٨م.
* غومث، إيميليو غومث.
مع شعراء الأندلس والمتنبي سير ودراسات، ترجمة الطاهر أحمد مكي، ط٤، مصر، دار المعارف، ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م.
* فرحات، يوسف شكري فرحات.
غرناطة في ظل بني الأحمر دراسة حضارية، ط١، مصر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
* مكي، الطاهر أحمد مكي.
دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط١، مصر، دار المعارف، ١٩٨٠م.
* مؤنس، حسين مؤنس.
معالم تاريخ المغرب والأندلس، ط١، مصر، دار ومطابع المستقبل، ١٩٨٠م.
* ابن الأبار الأندلسي.
ديوان ابن الأبّار، قراءة وتعليق د. عبد السلام هرّاس، الدار التونسية للنشر،

تونس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة الثانية، ١٩٨٦ .

* الحريري، محمد عيسى الحريري .

تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، ط٢، الكويت، دار القلم للنشر والتوزيع ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م .

* صاعد الأندلسي .

طبقات الأمم، تحقيق حياة بوعلوان، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥ .

* ابن هذيل الأندلسي .

حلية الفرسان وشعار الشجعان، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧ .

* ARIE RACHEL, L'ESPAGNE MUSULMANE AU TEMPS DES NASRIDES (1232 - 1492).

PARIS, EDITIONS E.DE BOCCARD, 1973.

Aspects of Civilization in the Kingdom of Granada as Depicted in the Book of Al-Iḥāṭa by Ibn al-Khaṭīb

ABSTRACT

This paper deals with the various aspects of civilization in the kingdom of Grenada, the last Islamic small state in Andalusia, under the Nasride dynasty. The paper tends to analyze the political, social, economic, administrative, cultural and military situations of the kingdom during the most critical period before its collapes.

The Nasride kingdom was unique in its rise and development, as well as in its strength and resistance to external aggression. Equally unique were the civilization it brought about and the collapse of its grandiose.

It was the melting pot where the Andalusian cultural and historic experience reached its zenith.

The paper also focuses on the book of al-Ihata as a main source of historical information related to the kingdom of Grenada.